

سمكة من ذهب



قصص وروايات 7

تأليف : لوكليزيو

ترجمة: عماد موعد

سمكة من ذهب

روايـة

تأليف : لوكليزيو

ترجمة: عماد موعد



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ٢٠٠٧

العنوان الأصلي للكتاب :

Poisson d'or

J. M. G. LE CLEZIO

Roman

GALLIMARD

سمكة من ذهب: رواية / تأليف جان ماري غوستاف لوكليزيو ؛ ترجمة عماد موعد .- دمشق : وزارة الثقافة ، ٢٠٠٧ .- ٢٤٠ ص ؛ ٢٥ سم. (قصص وروايات ؛ ٧)

١- ٨٤٣ ف ل و ك س ٢- العنوان ٣- لوكليزيو
٤- موعد ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص وروايات

«٧»

تقـديـم

ولد جان ماري غوستاف لوكليزيو في نيس عام ١٩٤٠ من أب بريطاني ذي أصل بريتوني وموريسي ومن أم فرنسية. قبل التحاقه بوالده عام ١٩٤٨ في نيجيريا، ربته أمه وجدته، حيث كان لتلك المرحلة أكبر تأثير على اتجاهه نحو الكتابة، فقد اكتشف فيها الكتب التي كانت تملئ المنزل العائلي، إضافة إلى أن الجدة كانت تمتلك مخزوناً كبيراً من الحكايات. عند رحيله إلى نيجيريا للقاء والده الذي كان طبيبًا استعمارياً في الجيش البريطاني – حيث يمضي عاماً –، يكتب خلال الرحلة البحرية التي أخذته إلى هناك محاولتين روائيتين، **سفر طويل** ، و**أروادي الأسود** ، استعادهما فيما بعد في عدد من أعماله .

نشر لوكلوزيو عام ١٩٦٣ روايته الأولى «المحضر الرسمي» التي حصلت على جائزة رونودو. وحصل عام ١٩٦٤ على دبلوم الدراسات العليا، بعد أن أنجز بحثًا حول «العزلة في أعمال هنري ميشو» ثم أصدر عام ١٩٦٥ كتابه الثاني «الحمى» الذي كان عبارة عن تسع قصص عن الجنون .

كان عام ١٩٦٧ عامًا حاسمًا في حياته الشخصية والأدبية، حيث أدى خدمته العسكرية في بانكوك من خلال نظام مهام التعاون، غير أنه أرسل فيما بعد إلى المكسيك بعد أن تم طرده من بانكوك بعد إدلائه بأقوال لصحيفة الفيغارو عن دعارة الأطفال في تايلند. غير أن اكتشافه للمكسيك كان صدمة حقيقية، حيث يبدأ بالعمل على تراث الهنود الحمر. فقد شارك لوكليزيو، ما بين ١٩٧٠ – ١٩٧٤، الشعوب الهندية في مقاطعة دارين البنمية حياتها،

حيث كتب عن هذه التجربة: « إنها صدمة حسية كبيرة، صعبة، كان الجو حاراً، وكان عليّ أن أمشي مسافات طويلة على الأقدام. كان عليّ أن أصبح خشناً، صلباً. منذ تلك اللحظة، اللحظة التي لامست فيها هذا العالم لم أعد كائناً عقلياً. أثرت هذه اللاعقلية فيما بعد في كلّ كتبي».

وهكذا يكرس لوكليزو العديد من الكتب حول المكسيك والهنود الحمر منها ترجمات عن النصوص القديمة «نبوءات شيلام بالام» (١٩٧٦) «علاقة ميشوكان» «الحلم المكسيكي» (١٩٨٥) «أغاني العيد» (١٩٩٧) «ديغو وفريدا» (١٩٩٤) .

ما بين عام ١٩٧٨ و ١٩٧٩ أصدر لوكليزو «المجهول على الأرض»، و«موندو وقصص أخرى» الذي حقق نجاحاً كبيراً في المكتبات ، وفي ذات الفترة يصبح عضوًا في لجنة قراءة منشورات غاليمار. وفي عام ١٩٨٠ يمنح جائزة بول موران من قبل الأكاديمية الفرنسية، وينشر «ثلاث مدن مقدسة» و«الصحراء» التي ستحوذ على جائزة غونكور .

يعود عام ١٩٨١ إلى جذوره الموريسية عبر رحلة إلى جزر موريس ورودرويغس. وعن ذلك يمكننا قراءة العبارة الآتية في «رحلة إلى رودرويغس» التي صدرت بعد خمس سنوات: «حتى اللحظة الأخيرة أشعر بهذا الدوار، كما لو أن كائناً ما أنسل إلى داخلي. ربما لست هنا إلا لهذا السؤال، السؤال الذي فُرض أن يطرحه جدّي على نفسه، هذا السؤال الذي هو أصل كلّ المغامرات وكل الرحلات: من أنا؟ أو بالأحرى: ماذا أكون أنا.» وقد أنتجت هذه العودة العديد من الأعمال لعل أهمها «الباحث عن الذهب» (١٩٨٥) «رحلة إلى رودريغس» (١٩٨٦) «العزلة» (١٩٩٥).

يقع عام ١٩٨٨ في مواجهة مع الأوساط الصهيونية في فرنسا التي عدته مشبوهاً على غرار جان جينيه بعد أن نشر جزءاً من روايته نجمة تائهة

التي كان يعمل على كتابتها في مجلة الدراسات الفلسطينية، متناولاً فيه ـ اللاجئين الفلسطينيين والمراحل الأولى من تشكل المخيم الفلسطيني .

وقد تتابعت إصدارات لوكلوزيو، حيث أصدر الربيع وفصول أخرى (١٩٨٩) أونيتشا ونجمة تائهة (١٩٩٣) سمكة من ذهب (١٩٩٧) صدفة (١٩٩٩)، قلب يحترق (٢٠٠١) ثورات (٢٠٠٣) .

يمثل لوكليزيو في أعماله الكاتب الذي يبحث عن صوت الآخر، سعياً إلى رفض أساطير العالم الغربي الزائفة المدمرة والهارب من معطياتها وشروطها: «من خلال علاقتي بالهنود الحمر غيّرت الصورة التي أحملها عن الزمن. قبل ذلك، كنت مذعوراً بكثير من الأشياء التي لم تعد ترعبني: الخوف من الموت، المرض، القلق من المستقبل. ذلك لم يعد يرعبني الآن... ترعبني فكرة أن أطفالي يمكنهم أن يعرفوا المرض أو الموت، كذلك الحروب العبثية أو الوحشية مثل التي عشناها، وكذلك احتمال وقوع الكوارث البيئية. إن مسؤوليتنا أمام أجيال المستقبل مسؤولية كاملة. إذا تعلمنا العيش مثلما يعيش الهنود الأميريكيون أو مثل هؤلاء سكان الصحراء، بالتأكيد لن يكون لدينا هذا القدر من الكوارث. بالتأكيد لن نكون بالدرجة ذاتها من الكمال التقني، ولكننا لن نهدر بهذه السهولة فرصتنا للحياة.......... هناك ضرورة ملحة لسماع أصوات أخرى، للإنصات إلى أصوات لا تدعها تجيء إلينا، أصوات أناس لا نسمعهم لأنهم استهين بهم لوقتٍ طويل، أو لأن عددهم ضئيل، ولكن لديهم الكثير من الأشياء لنتعلمها.»

كان لوكليزيو أحد الكتاب الذين اقتحموا العالم الهامشي للمجتمع المعاصر، ليكشف عن التعايش ما بين قسوة الحياة ورقة المشاعر والعواطف، ناقلاً هذا الهامش إلى قلب الحياة (ولعل سمكة من ذهب تمثل أنموذجاً على ذلك).

ولعل معظم شخصياته الرّوائية ترحل في عالم من التيه والتطواف الذي يؤسس وجود الشخصية ويبرهن على حريتها. وغالباً ما تكون هذه

الشخصيات شخصيات مراهقين ، أنقياء جداً.. وفي الوقت ذاته، قساة جداً. ينطلقون في الحياة، عليهم واجب التغلب على الصعاب لإنقاذ العالم وأنفسهم من التدمير والفساد. وكذلك فإن الحضور القوي للشخصبات النسائية يثير الاهتمام، إنهن من ينقلن الذاكرة والتجربة والنقاء .

في روايته «سمكة من ذهب» التي أصدرها عام ١٩٩٧، يتابع لوكليزيو سيرة فتاة مغربية، ليلى، في مقتبل العمر، تنتمي إلى بني هلال اختطفت وهي لا تتجاوز السادسة من عمرها. جالت في رحلتها الطويلة عوالم مختلفة من الملاحة في المغرب، إلى الولايات المتحدة، مروراً بفرنسا، لتعود في النهاية إلى قبيلة بني هلال في الصحراء جنوب المغرب حيث تصل إلى المكان الذي تتذكر ملامحه قبل اختطافها، بغية أن تجد حلاً لمأساة لبست حياتها.

تجدر الإشارة هنا إلى أن لوكليزيو أصدر مع زوجته ذات الأصل الصحراوي المغربي، في العام ذاته، كتاب «أناس الغمام» ليرويا فيه حكاية رحلتهما في الصحراء الغربية. يقول لوكليزيو فيه: «كنت أذهب نحو المجهول، فيما كانت جيما تعود نحو ماضيها».

كتبت فصول سمكة من ذهب بقدرة عالية على السرد كما لو أنها كانت شلالاً يتدفق بلا توقف. عن ذلك يقول لوكليزيو: «كانت سمكة من ذهب حكاية لا ينبغي لها أن تستغرق أكثر من خمسة عشر صفحة، غير أنها أصبحت رواية بالرغم عني. لم أستطع فعل شيء لدرجة أن فصولاً لم أحسب لها حسابًا كتبت فيها. لا أتكلم تمامًا على الشخصيات التي أفلتت، ولكن عن الحكاية نفسها، عن النص الذي تضخّم فجأة. يدفعني ذلك لأن أسأل إن لم يكن ذلك يشبه نوعاً من الغزو الجرثومي. إن للخيال جانب يشبه الغرغرينا.. جانب غازٍ.»

في سمكة من ذهب يظل لوكليزيو وفياً لكتابته ولروحه: روح تفلت من هذا العالم كي تجد ملجئها الوحيد في القطرة الأولى..!

أيتها السمكة،

أيتها السمكة الذهبية الصغيرة،

احترسي...!

هناك الكثير من حبال القنص والمصايد الممدودة لك في هذا العالم.

- ١ -

اختطفتُ حين كان عمري ست أو سبع سنوات، لا أذكر حقاً هذه الحادثة لصغر سني ولأن كل ما عشته فيما بعد محى هذه الذكرى التي أصبحت كابوساً مرعباً بعيداً يعود في بعض الليالي ويفزعني حتى في النهار: شارع مشمس مغبر وخاو، سماء زرقاء، نواح طائر اسود.. وفجأة تمتد يدا رجل لترميني في قاع كيس كبير، فأشعر بالاختناق. كانت لالا أسمى هي التي اشترتني.

لهذا، لا أعرف اسمي الحقيقي الذي منحتني إياه أمي عند ولادتي، ولا اسم أبي ولا مكان ولادتي. أعرف فقط الأشياء التي أخبرتني بها لا لا أسمى... وصلتُ إلى بيتها ليلاً، ولهذا السبب دعتني ليلى. قدمتُ من الجنوب ومن مكانٍ بعيد جدا، ربما من بلاد لم تعد موجودة. أما بالنسبة لي، لم يكن هناك شيءٌ قبل ذلك... سوى هذا الشارع المغبر والطائر الأسود والكيس.

أصيبت فيما بعد إحدى أذناي بالصمم. حدث ذلك حين كنت ألعب في الشارع أمام باب المنزل، صدمتني شاحنة وهشمت عظمة في أذني اليسرى.

كنت أخاف السواد.. أخاف الليل. أذكر أني كنت استيقظ أحياناً... أتحسس الخوف الذي يدخل فيّ كأفعى باردة... فأفقد الجرأة على التنفس. فأنسل إلى سرير معلمتي والتصق بظهرها البدين كي لا أرى... كي لا أشعر

بشيء... إني متأكدة أن لالا أسمى كانت تستيقظ، إلا أنها لم تطردني مرة واحدة... لقد كانت حقا جدتي.

لوقت طويل.. كنت أخاف الشارع، لا أجرؤ على الخروج من الباحة، لم أكن أريد حتى أن اجتاز الباب الأزرق الكبير الذي ينفتح على الشارع، وإن حاول أحدهم أن يقودني الى الخارج، كنت أصرخ وأبكي متشبثة بالجدران أو أركض لأختبئ تحت الأثاث. كنت أشعر بصداع فظيع فيما كان ضوء السماء يخدش عيني وينفذ الى داخل جسدي.

بلّ.. كان صخب الخارج يخيفني.. صوت الخطا في الشارع عبر الملاحة.. أو حتى صوت رجل يتحدث بصوت مرتفع في الطرف الآخر من الجدار. غير أني كنت أحب أصوات الطيور عند الفجر وصرير طيور السمام في الربيع، التي تطير على مستوى الأسطحة. لم تكن الغربان توجد في هذا الجزء من المدينة، لم يكن هناك سوى الحمام واليمام. في بعض الأحيان كانت اللقالق تعبر أثناء الربيع، وتجثم في أعلى الجدران تصك بمناقيرها.

لسنين.. لم أعرف شيئا سوى الباحة الصغيرة للمنزل وصوت لالا أسمى التي تصرخ باسمي «ليلى». كما قلت فإني اجهل اسمي الحقيقي واعتدت على هذا الاسم الذي منحته لي معلمتي، كما لو كان الاسم الذي اختارته لي أمي. غير أني أفكر أنه في يوم ما سيخبرني أحدهم باسمي الحقيقي وسأختلج وأتذكره.

هي أيضاً لم يكن اسمها لالا أسمى كانت تدعى عظيمة، يهودية إسبانية كانت الوحيدة التي لم تغادر الملاحة حين اندلعت الحرب بين العرب واليهود في الطرف الأخر من العالم. اعتزلت خلف الباب الأزرق الكبير وأقلعت عن الخروج إلى أن وصلت أنا تلك الليلة، فتغير كلّ شيء في حياتها.

كنت أدعوها «معلمتي» أو جدتي. كانت تريد أن أدعوها «معلمتي» لأنها هي التي علمتني القراءة والكتابة بالفرنسية والإسبانية، وهي التي علمتني الحساب الذهني والجبر وأعطتني مبادئ الدين، دينها حيث لا اسم للإله وديني حيث ندعوه بالله. كانت تقرأ لي مقاطع من كتبها المقدسة، علمتني كلّ ما يجب عدم فعله كالنفخ على الطعام ووضع الخبز بالمقلوب أو المسح باليد اليمنى. علمتني بأنه من الواجب قول الحقيقة دائماً والاغتسال كل يوم من القدم حتى الرأس.

بالمقابل كنت أعمل لها من الصباح حتى المساء في الباحة.. أكنس، أقطع الحطب لموقد الحجر، أو أجلي. كنت أحب الصعود إلى السطح لأنشر الغسيل، من هناك أرى الشارع وأسطحة المنازل القريبة، والناس الذي يمشون والسيارات، حتى أني كنت أرى من شقين في الجدار طرف النهر الأزرق الكبير. كان الضجيج في الأعلى يبدو لي أقل رعباً، وأني في مأمن.

حين كنت أبقى طويلا على السطح، كانت لالا أسمى تصرخ، كانت تبقى طيلة النهار في الغرفة الكبيرة المفروشة بالوسائد الجلدية، كانت تعطيني كتاباً لأقرأ لها أو تقوم بتعليمي الإملاء، تسألني عن الدروس السابقة، كانت تمتحني، ولمكافأتي كانت تسمح لي بالجلوس في الصالة بجانبها فتضع أسطوانات المغنين الذين تحبهم في جهاز البيك أب «أم كلثوم، سيد درويش، حبيبة مسيكا، وبشكل خاص فيروز بصوتها الخفيض الأبح فيروز الجميلة الحلبية التي تغني يا قدس..، كانت لالا أسمى تبكي دائماً حين تسمع اسم القدس.

ذات نهار انفتح الباب وأُذنَ بالعبور لإمرأة سمراء خشنة دون طفل، تدعى زُهرة، إنها كنة لالا أسمى. كانت تجيء لتطبخ شيئاً ما لحماتها ولتفتش المنزل. كانت لالا أسمى تقول بأنها تفتشه كشيء سترثه ذات يوم.

كان ابن لالا أسمى يجيء نادراً، كان يدعى عبل، رجل طويل وقوي يرتدي بزة رمادية جميلة، غني، يدير مشروع مقاولات عامه، حتى أنه كان يعمل في الخارج.. في إسبانيا وفرنسا. غير أن لالا أسمى كانت تقول أن زوجته أجبرته على العيش مع حمويه، أناس غير محتملين، مغترين يفضلون المدينة الجديدة عن الضفة الأخرى للنهر.

كنت دائما حذرة منه. حين كنت صغيرة، كنت اختبأ لحظة وصوله خلف البسط كان يضحكه ذلك «يالها من ساذجة». حين صرت أكبر عمراً، صار يخيفني أكثر. كانت له طريقة خاصة في النظر إلي، كما لو كنت غرضا يملكه. كانت زُهرة تخيفني أيضاً، لكن ليس بذات الطريقة. ذات يوم لأني لم أجمع الغبار في الباحة، قرصتني لدرجه أني أدميت «يالك من بائسة يتيمة حتى أنك لاتعرفين التكنيس». صرخت: «لست يتيمة، لالا أسمى جدتي». هزأت مني، غير أنها لم تتجرأ على اللحاق بي.

كانت لالا أسمى تدافع عني دائماً. غير أنها عجوز تعبة، ساقاها منتفختان من الدوالي. حين تكون متعبة أو متوجعة، كنت أقول لها: «أأنت مريضة يا جدتي؟» كانت تجلسني قبالتها وتنظر إلي. كانت تكرر المثل العربي الذي تحبه، وتقوله بتفخيم، كما لو أنها تبحث في كل مرة عن الترجمة الفرنسية المناسبة : «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لايراه إلا المرضى».

لم تعد تجعلني أقرأ وأدرس كثيراً، ولم يعد لديها أفكار لتبتدع نصاً للإملاء. كانت تمضي معظم وقتها في الصالة الخالية تشاهد التلفاز أو تطلب مني بأن أحضر لها علبة مجوهراتها ونقودها المخبأة. ذات مره، أطلعتني على زوج أقراط ذهبية:

«ليلى، هذه الأقراط ستكون لك بعد موتي».

وضعت زوج الأقراط قي ثقوب أذني. كانا قديمين، باليين على شكل هلال مقلوب في السماء. وعندما قالت لي لالا أسمى اسم هلال اعتقدت أني أسمع اسمي، تخيلت أنه القرط الذي كنت أحمله حين وصلت إلى الملاحة.

«إنه يناسبك . تشبهين بلقيس، ملكه سبأ»

وضعت الأقراط في يدها، وثنيت أصابعها وقبلت يدها.

«شكرا يا جدتي، كم تتكرمين علي»

نهرتني: «– اذهبي.. لم أمت بعد.»

لم أعرف زوج لالا أسمى إلا من خلال صورة، تحتفظ بها في الصالة تتبوأ صواناً بجانب ساعة الحائط المتوقفة، سيدٌ قاس يرتدي السواد، محام غني جداً، إلا أنه لم يكن وفياً، وحين مات لم يترك لزوجته سوى منزل الملاحة والقليل من النقود عند كاتب العدل. كان لا يزال حياً حين جئت إلى المنزل، غير أني كنت صغيرة جداً لأتذكره.

كنتُ على حق في حذري من عبل!

كان عمري أحد أو إثني عشر عاماً، اصطحبت زُهرة حماتها إلى الخارج، على غير العادة، للتسوق أو لرؤية طبيب. دخل عبل المنزل دون أن أعرف، لابد أنه بحث عني في الداخل ووجدني في الغرفة الصغيرة الواقعة في آخر الباحة حيث يوجد المرحاض والمغسل.

كان طويلاً وقوياً جداً بجيث أنه سّد كلّ الباب ولم أستطع الهرب. كنتُ مذعورة لم أستطع الحراك على أي حال، إقترب مني، كانت له حركات

عصبيه فظة، ربما كان يتكلم، غير أني أدرت رأسي من جهة أذني اليسرى، كي لا أسمع. كان طويلاً، عريض المنكبين، ذو جبهة صلعاء تلمع في الضوء. ركع أمامي، وتحسس تحت ثوبي، تلمس فخذي، عانتي كانت يداه خشنتين من الإسمنت. شعرت بأنهما حيوانان باردان وجافان، يختبئان تحت ثيابي. كنت خائفة جداً، بحيث أن قلبي كان يدق في حلقي. فجأة، استعدت الشارع الشاحب والكيس والضربات على الرأس، ثم اليدين اللتين كانتا تلمساني وتضغطان على بطني وتؤلماني. لا أدري كيف تصرفت. أظن أن الخوف جعلني أبول، ككلبة. فابتعد، وسحب يديه، نجحت بالمرور خلفه، تسللت مثل حيوان واجتزت الباحة وأنا اصرخ، وأغلقت على نفسي الحمام، لأنه كان المكان الوحيد الذي يغلق بمفتاح.

انتظرت، القلب يخفق بسرعة وأذني السليمة على الباب.

جاء عبل. في البداية، طرق بهدوء، بأطراف أصابعه، ثم أكثر قوة بقبضة يديه «ليلى، افتحي لي. ماذا تفعلين؟ افتحي، لن أفعل بك شيئا» ثم لا بد أنه قد ذهب. أما أنا، فجلست على الأرضية، وظهري مستند على المغطس المرمري الذي صنعه عبل لأمه.

بعد وقت طويل، جاء شخص ما خلف الباب. سمعت صياحاً، غير أني لم أفهم ما يقال. طُرق الباب أيضاً، في هذه المرة تعرفت على يد لالا أسمى. حين فتحت الباب، لابد أني كنت مرعوبة بحيث أنها ضمتني بذراعيها «ماذا حدث لك، ماذا جرى؟» اقتربت منها، وأنا أعبر أمام زُهره. غير أني لم أقل شيئاً. صرخت زُهره: «أصبحت مجنونة» لم تسألني لالا أسمى أية أسئلة أخرى ولكن، منذ ذلك اليوم، لم تعد تتركني وحيدة حين يجيء عبل إلى المنزل.

ذات يوم، فيما كنت مشغوله بغسيل الخضار في المطبخ لإعداد حساء لالا أسمى، سمعتُ صوتاً قوياً في المنزل كغرض ثقيل سقط على الأرضية وأوقع الكراسي. وصلت راكضة، رأيت السيدة العجوز على الأرض ممددة على طولها. اعتقدت أنها ماتت، وكنت سأهرب لأختبئ في مكان ما حين سمعتها تتأوه وتدمدم. لم تكن إلا في حالة إغماء. أثناء سقوطها، اصطدمت بزاوية أحد الكراسي على رأسها مما أدى إلى نزيفٍ خفيف لدم أسود سال على صدغها.

كانت تنتفض مرتجفة، عيناها مضطربتان. لم أدر ما الذي علي فعله. في النهاية، اقتربت منها لمست وجهها. كان خدها رخواً، بارداً بشكل عجيب. غير أنها كانت تتنفس بقوة، صدرها ينخفض ويرتفع، كان خروج الهواء يجعل شفتيها ترتجفان مصدرة صوتاً مضحكا، كما لو أنها تشخر.

«لالا أسمى.. لالا أسمى » تمتمت بالقرب من أذنها، كنت متأكدة أنها تستطيع سماعي، هنا حيث كانت. كانت فقط غير قادرة على الكلام. كنت أرى ارتعاش جفنيها المفتوحين على عينين بيضاويتين. كنت أعلم أنها تسمعني: «لالا أسمى ! لاتموتي.»

أثناء ذلك وصلت زُهرة، كنت منهمكة بالأنفاس البطيئة للالا أسمى بحيث أني لم أشعر بقدومها.

«يا حمقاء، يا مشعوذة، ماذا تفعلين هنا؟»

شدتني بعنف من كمي فتمزق ثوبي «اذهبي ابحثي عن طبيب، ألا ترين أن أمي تتألم كثيراً!» كانت المرة الأولى التي تتكلم فيها عن لالا أسمى كأمها. بما أني وقفت متحجرة، رمتني بحذائها:

«هيا ماذا تنتظرين ؟»

اجتزت الباحة، ودفعت الباب الأزرق الثقيل وأخذت أجري في الشارع، دون أن أعرف أين أذهب. إنها المرة الأولى التي أخرج فيها، لم تكن لدي أدنى فكرة عن المكان الذي بإمكاني أن أجد فيه طبيباً، لم أكن أعرف إلا شيئاً واحداً: لالا أسمى ستموت، وسيكون ذلك خطئي لأني لم أجد أحداً يداويها. تابعت الجري عبر الشوارع الخاملة تحت الشمس، دون أن آخذ نفساً. كان الجو حاراً والسماء صافية، وجدران المنازل شديدة البياض.

درت من شارع إلى شارع إلى أن وصلت إلى مكان يُرى منه النهر، والبحر وأشرعة المراكب على بعد أكبر. كان ذلك ساحراً، لم أعد أخاف من شيء. توقفت في ظل جدار، نظرت بقدر ما أستطيع. إنه ذات المنظر الذي أراه من سطح لالا أسمى، غير أنه أرحب كثيرا. كان هناك في الأسفل على الطريق الكثير من السيارات والشاحنات والباصات .لابد أنها كانت الساعة التي يذهب فيها الأطفال إلى المدرسة بعد الظهر، كانوا يمشون على الطريق، الفتيات بتنانيرهم الزرقاء وقمصانهم البيضاء، والفتيان بلباسهم الأقل رتابة، وبشعرهم المحلوق، يحملون حقائب مدرسية، أو كتباً مربوطة بمطاطة.

كنت كما لو أني أستيقظ من نعاس طويل. حين عبروا أمامي، سمعت ضحكاتهم واستهزاءهم، وبعد أن تمليت قليلا، أدركت أن حالتي كانت غريبة كما لو أني آتية من كوكب أخر، بثوبي الفرنسي ذي الكم الممزق وشعري الطويل المجعد، لابد أن هيئتي في الظل كانت تبدو أقرب إلى مشعوذة.

اتبعت طريقا بلا تبصر، باتجاه طلبة المدارس، ثم شارعا آخر مليئاً بالناس. كان هناك سوق، أغطية ممددة في مواجهة الشمس، عند مدخل منزل، كان هناك رجل عجوز يعمل في حانوت خشبي يتربع على شيء يشبه طاولة

منخفضة، محاطاً بالأحذية.. كان يثبت بمطرقة نحاسية صغيرة مسامير رفيعة في نعلٍ. بدا كما لو أني توقفت لأشاهده، سألني:

«هل تريدين حذاءً»

كان قد شاهد أني كنت حافية القدمين.

« ماذا تريدين ؟ أنت خرساء؟»

نجحت في التكلم:

« أبحث عن طبيب لجدتي».

قلت ذلك بالفرنسية، ثم كررته بالعربية، لأنه نظر إلي دون أن يفهم.

«ما بها؟

– سقطت وستموت.»

دهشت لهدوئي:

«لا يوجد هنا طبيب. هناك مدام جميلة في الفندق، إنها قابلة، ربما تستطيع فعل شيء.»

خرجت أجري في الاتجاه الذي أشار إليه فيما ظل الإسكافي ساكناً، مطرقته النحاسية مرفوعة. صرخ بشيء لم أفهمه، جعل الناس يضحكون.

كانت مدام جميله تعيش في منزلٍ لم أتخيل أبداً نظيراً له. كان قصراً منهاراً بجدران عالية من الآجر وبباب مصراعاه مفتوحان منذ زمن طويل ولم يعد بالإمكان إغلاقهما، يعيقهما الوحل والحصى. على الواجهة، بقايا

ملاط تشير إلى أن المنزل كان في القدم ذا لون زهري. كانت هناك نوافذ بارزة وشرفات منخورة. بالرغم من خشيتي، دخلت إلى الباحة.

ظننت أن كل باحات البيوت مثل منزل لالا أسمى: عالم منظم صارم ونظافة مفرطة. لكن هنا في داخل الفندق، فوضى لا تصدق. كان هناك أناس في كل مكان، غافين تحت ظل الأفاريز أو تحت بعض شجيرات الأكاسيا النحيلة، ماعز وكلاب، مواقد جمر لا يأبه بها أحد، أكوام قذارات تنقرها دجاجات هرمة تبدو مثل طيور الشوحة. على الحائط حول الباحة تحت الأفاريز، جمع الباعة الجوالون بضاعتهم وناموا عليها لحفظها جيداً. لم أفهم ماذا يفعل هؤلاء الناس ولم أكن أدري تماما ماهو الفندق. بما أني كنت اجتاز الباحة ببطء مترددة في اتخاذ اتجاه محدد، ناداني أحدهم من أعلى الشرفة. كانت الشمس تخطف بصري، تقصيت في ظل الدهليز. سمعت صوتاً واضحاً:

«عم تبحثين؟»

في النهاية رأيت امرأة مسنة ترتدي ثوبا فيروزياً فضفاضاً. كانت تستند على الدرابزين، تدخن وتنظر إلي. نطقت باسم مدام جميلة، فأشارت إلي:

«اصعدي.. الدرج في آخر الممر، أمامك»

بما أنه بدا أني لم أفهم، صرخت:

«انتظريني»

قادتني عبر غرفه كبيرة مظلمة كان فيها بضائع أخرى وأناس يرتاحون، مسنون يلعبون الدومينو على طاولة واطئة، وبجانبهم نرجيلة كبيرة. لم ينتبه أحد منهم إلي.

كان في أعلى الدرج رواق مضاء ببقع شمسية قادمة من النوافذ التي لا أبواب لها. كان الطابق العلوي بأكمله مسكونا بنساء غريبات، بعضهن كان فتياً والبعض الآخر له عمر زُهرة أو أكثر عمراً، مكتنزات، بصباغ فاتح وبشعرمحمر بالحنة وبشفاه ملونة بلون غامق وعيون مرسومة بالكحل. كنّ يدخن أمام أبواب الغرف، متربعات على الأرض. فيما سحب دخان سجائرهن تخرج من ظل الرواق راقصة تحت الشمس.

«أبحث عن مدام جميلة»

بقيت في أعلى السلم بقدم واحدة وضعتها على أرض الطابق. أعتقد ان الخوف من العودة دون طبيب إلى منزل لالا أسمى منعني من المغادرة جريا. أحاطت بي النساء، كن يتكلمن بصوت عال ويضحكن. فيما ملأ دخان سجائرهن المكان برائحة عذبة تصيب الرأس بالدوار.

داعبن شعري وتحسسنه، كما لو أنهن لم يشاهدن أبداً نظيراً له. بدأت إحداهن، امرأه شابة ذات يدين طويلتين نحيلتين عنقها مليئ بالمجوهرات، بصنع جدائل صغيرة لي في قمة الرأس، مدخلة خيطاً أحمر بشعري. فيما أنا، لم أكن أتجرأ على الحركة.

«انظرن إليها، كم هي جميلة إنها أميره حقيقية!»

لم أفهم جيدا ماكانت تقوله. تساءلت فيما إذا كانت هؤلاء النسوة الجميلات المتقلدات بالمجوهرات والمخضبات يستهزئن بي، أو أنهم سيقرصنني، أو أنهم سيشددن شعري. كنّ يتكلمن بسرعة، بصوت منخفض، وبسبب أذني الصماء لمَ أدرك كلّ كلماتهن.

جاءت مدام جميلة في الحال. تخيلتها قابلة طويلة وقوية، بوجه متجهم، غير أني وجدتها إمرأة قصيرة ونحيفة، شعرها قصير، ترتدي ملابس اوروبية. تفحصتني للحظة. أبعدت النساء ومالت نحو وجهي لأنها فهمت مشكلة أذني، وقالت ببطء:

« ماذا تريدين ؟»

«جدتي ستموت يجب أن تأتي لتريها في منزلها.»

ترددتْ ثم قالت :

«حقاً إني هنا لأجل الأطفال ولأجل الجدات التي تموت أيضاً».

في الشارع مشت بخطوات واسعة فيما كنت أركض خلفها. دونها لما وجدت الطريق، فقد كانت مدام جميلة تعرف منزل لالا أسمى.

حين وصلنا إلى المنزل كان قلبي منقبضاً. اعتقدت بأن لالا أسمى قد ماتت خلال هذا الوقت، وأني سأسمع الصرخات الحاده لكنتها. إلا أن لالا أسمى كانت على قيد الحياه تجلس في كنبتها، بمكانها المعتاد، وقدماها مستندتان على كرسي أمامها. كان هناك فقط دم جاف على صدغها، المكان الذي أصاب الأرض حين سقطت.

حين رأتني لالا أسمى أشرقت نظرتها. كانت لا تزال ترتجف قليلا. شدّت يدي بقوه، وشعرت أنها كانت ترغب بالتكلم وأنها لم تكن قادرة على ذلك. لم أكن أعرف أنها تحبني هذا الحب، وفجأة دفعني ذلك إلى البكاء.

«لا تتحركي يا جدتي، سأحضر الشاي لك كما تحبينه.»

ثم رأيت مدام جميلة على عتبه الصالة. وبما أن لالا أسمى لم تكن تموت فلم تعد بحاجة إليها. كانت لالا أسمى لا تحب أن يدخل الغرباء منزلها، لذا قلت لمدام جميلة: «إنها أفضل الآن لم تعد بحاجه لك» رافقتها حتى الباب وأردت أن أدفع لها من دراهم مصروف المنزل، فرفضت. قالت لي وهي تنظر إلي في وجهي مباشرة: «ربما عليك أن تحضري طبيباً حقيقياً، هناك شيء قد تهشم في رأسها جعلها تسقط.»

سألت: «هل ستعود إلى الكلام؟»

هزت مدام جميلة رأسها «لن تعود أبداً كما كانت من قبل. في يوم ما ستسقط ولن تعود لكن عليك البقاء إلى جانبها حتى آخر نفس لها» كررت العباره بالعربية ولم أنسها: «خرجات الروح..»

عادت زُهرة بعد قليل. لم أخبرها عن مدام جميلة. كانت ستصفعني فيما لو علمت بكلّ ما استطعت إحضاره، فقد كانت قابلة من فندق قديم. كذبت: «قال الطبيب أنها ستتحسن، سيعود الأسبوع المقبل. –والأدوية؟ ألم يصف أدوية؟» هززت رأسي.

«قال إنه ليس هناك شيء، وأنها ستعود كما كانت من قبل.»

كانت زُهرة تتكلم بصوت عالٍ، قرب أذن لالا أسمى، كما لو كانت صماء.

«هل تسمعين يا أمي؟ قال الطبيب إنك ستتحسنين.»

لكن لالا أسمى لم تكن تتحدث إلى كنتها منذ أشهر، وزُهرة لم تنتبه لذلك. عندما غادرت، ساعدت لالا أسمى في السير إلى سريرها. كانت مشيتها غريبة، معرقصة مثل شحرور. فيما أصبحت نظرتها الخضراء شفافة، حزينة وبعيدة.

فجأة، خفتُ مما سيحدث. حتى الآن لم أتساءل عن مصيري حين لا تعود لالا أسمى هنا. يمنحني وجودي في هذا المنزل خلف الجدران العالية في الطرف الآخر من الباب الأزرق الكبير ورؤية المدينة من أعلى السطح حيث أنشر الغسيل الاطمئنان بأنه لن يمسني مكروه.

نظرتُ إلى معلمتي، ووجهها المسن المتورم حيث عيناها صارتا شقين دون لون، وخف شعرها، الشائب تحت لون الحنة.

«جدتي، جدتي، لن تتركيني أبداً؟» كانت الدموع تسيل على وجنتي، ولم أعد أستطيع وقفها. «أليس كذلك يا جدتي لن تتركيني؟» أعتقد أنها سمعت ما قلته لها، لأني رأيت جفونها ترتعش فيما كانت شفتاها ترتجفان. وضعت يديّ بين يديها، كي تشدهما بقوة. «سأهتم بك يا جدتي، لن أترك أحداً يقترب منك، خصوصاً زُهرة. سأعد لك الشاي، والطعام، سأجلب لك الخبز والخضروات. الآن، لم أعد خائفة من الخروج، لم نعد بحاجة إلى زُهرة.»

كنت أتكلم فيما دموعي لم تتوقف عن السيلان. أستطيع القول، أنها كانت المرة الأولى. أنا التي لم تبكِ لشيء، حتى حين قرصتني زُهرة إلى أن سال الدم مني.

لم تعد حال لالا أسمى إلى ما كانت عليه. بلّ كانت تزداد سوءاً كل يوم. لم تعد تأكل، حين أحاول جعلها تشرب الشاي البارد، كان يسيل من كل أطراف فمها ويبلل ثوبها. تشققت شفتاها، وصارت بشرتها جافة تماماً، بلون الرمل. وأريد القول أنها كانت تتغوط على ملابسها. هي التي كانت نظيفة جداً شديدة التدقيق. كنت أغير لها. لم أكن أريد أن تراها زُهرة وعبل في هذه الحالة. كنت متأكدة بأنها كانت تشعر بالعار، وبأنها تدرك كلّ شيء. حين

كانت تدخل كانت تشمشم: «ما هذه الرائحة الكريهة؟» كنت أجيبها بأن هناك إصلاحات تجري في المنزل المجاور، وأنهم يفرغون بئر المرحاض. كانت تنظر إلى لالا أسمى متحيرة. وكانت تصيح بي: «هذا لأنك لا تقومين بأعمال المنزل جيداً، انظري إلى هذه الفوضى.» كانت تسعى لمعرفة حالتها. ولكي لا تعرف حالة لالا أسمى كنت أمشط شعرها كلّ صباح، أخضب وجنتيها بالبودرة الزهرية اللون. وأضع على شفتيها زبدة الكاكاو. وأضع الطبق النحاسي مع إبريق الشاي والكؤوس على الطاولة وأصب قليلاً من الشاي المحلى في الكؤوس، كما لو أن لالا أسمى كانت قد شربت.

لم أعد أتركها. في الليل، كنت أنام على الأرض بجانبها ملتفة بشرشف. أذكر أنه كان هناك ناموس طيلة الليل، كنت أسمع أزيزهم في أذني، وفي الصباح، التفت لأنام قليلاً. أنسى نفس لالا أسمى المؤلم، كنت أحلم بأننا صعدنا السفينة الذائعة الصيت والتي كانت تتكلم عنها دائماً من مليلة إلى مالغا، بل إلى أبعد من ذلك، حتى فرنسا.

ذات ليلة، ساءت حالتها. لم أدرك ذلك مباشرة. كان نفس لالا أسمى يضيق، وصوت نفسها مثل هدير كور حدادة، كان هناك خرير في نهاية كل زفير. بقيتُ ساكنة ممددة على الأرض، دون أن أتجرأ على الحركة. كانت الغرفة معتمة، مع ضوء خفيف للقمر في الباحة. لكن لم أكن أقدر على الخروج. كنت أنتظر ضوء النهار معتقدة أنه حال شروق الشمس ستستيقظ لالا أسمى وستتوقف عن الشخير ويزول ضيق نفسها وصوت الخرير.

نمت عند طلوع الشمس، كنت تعبة جداً. ربما كانت لالا أسمى قد ماتت في ذلك الوقت، وربما لذلك استطعت أن أنام.

حين استيقظت عند الضحى. كانت زُهرة بجانبَ السرير تبكي بصوت عالٍ. فجأة رأتني، بدا الغضب عليها. بدأت برمي بكل ما تجده، منشفة، مجلات، ومن ثم خلعت حذائها لتضربني، فهربت إلى الباحة. كانت تصيح «يا شقية يا ساحرة! أمي ميتة وأنت تنامين بهدوء! قاتلة!» اختبأتُ في المطبخ تحت طاولة، كما كنت أفعل حين كنت صغيرة. كنت ارتجف من الخوف. لحسن الحظ، وصلت في هذه اللحظة إحدى الجارات بعدما سمعت الصياح. ومن ثم عبل، و هدؤوا زُهرة. كانت تحمل سكيناً في يدها، كما لو أرادت قتلي. كانت لا تزال تصيح: «ساحرة! قاتلة!» أجلسوها في الباحة وقدموا لها كأساً من الماء.

أما أنا فتسللت إلى خارج المطبخ وعبرتُ الباحة على أربع بمحاذاة الحائط في الظل. كانت قدماي حافيتين، ولا ألبس سوى الثوب المجعد الذي كنت أنام به، مشعثة الشعر، لابد أني كنت أبدو حقاً مثل قاتلة.

نجحت في الخروج من البوابة الكبيرة الزرقاء التي بقيت مشقوقة. ومن ثم بدأت بالركض في الشوارع مثل اليوم الذي ذهبت فيه لاستدعاء القابلة. كنت خائفة جداً من أن يلحق بي أحد، فأرسل إلى السجن بسبب ترك لالا أسمى تموت.

على هذا النحو، تركت دون عودة منزل الملاحة. لم يكن معي شيء، دون أي قطعة نقدية، حافية، بثوب قديم، ولم يكن معي حتى القرطان الذهبيان، هلالالي، اللذان وعدتني لالا أسمى بتركهما لي حين تموت. شعرت أني أكثر تجرداً من اليوم الذي باعني فيه اللصوص إلى لالا أسمى.

-٢-

كان الفندق مختلفاً عما عرفته من قبل.

كان منزلاً مفتوحاً على الجهات الأربع، يقع في شارع كثير العبور، مزدحم بالشاحنات والسيارات والدراجات النارية. كان السوق يبعد خطوتين، بناء كبير من الإسمنت يمكن الحصول منه على كل ما يحتاجه المرء، من لحم الجزار والخضار إلى الأحذية والسجاد والأوعية البلاستيكية.

حين غادرت منزل لالا أسمى، لم أكن أدري أين أذهب. لم أكن أعرف إلا مكاناً واحداً يمكن أن أختبئ فيه دون أن تستطيع أبداً زُهرة وعبل أن يجداني، حتى ولو أرسلا الشرطة لتبحث عني. مشيت عبر الشوارع، في الظل، ألامس الجدران مثل قطة ضائعة. كانت ترن في رأسي صرخات زُهرة: «مشعوذة، قاتلة!» كنت متأكدة أنها إذا أمسكت بي ستضعني في السجن. قادتني خطواتي رغماً عني نحو الشارع الذي بحثت فيه عن طبيب للالا أسمى. حين عرفت المبنى، ببابه الكبير ذي المصراعين الكبيرين المفتوحين، قفز قلبي من الفرح. كنت متأكدة أن زُهرة لن تستطيع أن تجدني.

لم تكن مدام جميلة في الفندق. كانت قد استدعيت من أجل حالة إسعافية. لذا جلست برصانة على الشرفة، مسندة ظهري إلى الحائط، وانتظرتها أمام الباب.

في المرة الأولى التي جئت فيها، كنت مستعجلة، لم يكن لدي الوقت لأرى ما يحدث في الفندق. الآن أستطيع أن أرى كلّ التفاصيل: الناس الذين يدخلون إلى الباحة دون توقف، البائعين المتجولين ذوي الثياب الرثة والمحملين مثل الحمير، التجار الذي يضعون بضائعهم تحت الرواق المقنطر. كان هناك تجار خضار وتجار تمر، وشباب يحملون حمولات غريبة يتوازنون معها على دراجاتهم، صناديق ألعاب بلاستيكية، أشرطة تسجيل موسيقية، ساعات ونظارات سوداء. كنت أعرف كلّ بضائعهم، لأنهم غالباً ما كانوا يقرعون باب لالا أسمى، وبما أنها كانت لا تستطيع الخروج للتسوق، كانت تجعلهم يعرضون بضائعهم في الباحة، وتشتري منهم أشياء لم تكن تحتاجها، أقلام، صابون، مما يدفع كنتها إلى الغضب: «أمي، ماذا ستفعلين بهذه الأشياء؟» كانت لالا أسمى تهز رأسها: «ربما في يوم ما سأكون مسرورة من أني اشتريت ذلك.» لم يكن لي أن أتخيل أن البائعين المسرعين يمكن أن يكونوا في مكان معين مثل هذه الساحة.

كانت تسكن الطابق النساءُ الصغيرات اللواتي رأيتهن في المرة الأولى، أنيقات جداً وجميلات، جعلتني سذاجتي أحسبهم أميرات. في تلك الساعة، كن نائمات في غرفهن، خلف الأبواب العالية المشقوقة.

عبر الشق، رأيت واحدة من الأميرات نائمة على سرير كبير. وبعد برهة ميزت هيئتها. كانت تنام عارية تماماً على أغطية السرير، وجهها مغطى بشعرها، كنت مدهوشة من رؤية بطنها شديد البياض وعانتها المنتوفة بكاملها. لم أر أبداً شيئاً كهذا. لم تكن لالا أسمى تصطحبني إلى الحمامات، ولم تكن تريدني أن أراها عارية حتى الأيام الأخيرة. ولم يكن جسدي النحيف

والأسود يشبه نهائياً هذا الجسم الأبيض وتلك العانة النائمة. أظن أني تراجعت مذعورة قليلاً والعرق يملأ باطن كفّي .

انتظرت وقتاً طويلاً في الرواق، منتبهة للتجار القادمين والذاهبين في الباحة. لم أكن قد أكلت شيئاً منذ العشية، كنت جائعة وأموت عطشاً.

في الأسفل، في الباحة، كان هناك بئر، وحددت تحت القوس كيساً من الفاكهة المجففة مشقوقاً قليلاً، كانت عصافير الدوري تجيء لتنقره. تسللت عبر الدرج إلى الكيس. كنت خجلة قليلاً، لأن لالا أسمى كانت تقول لي دائما أنه لا شيء أسوء من سرقة الآخرين، هذا السوء ينبع بما يتضمنه هذا الفعل من خدعة وخيانة أكثر مما ينبع من قيمة ما نأخذه منهم. غير أني كنت جائعة ودروس لالا أسمى الجميلةُ أصبحت بعيدة.

جلست القرفصاء بجانب الكيس المفتوح، وأكلت تمراً وتيناً مجففاً وحفنة من الزبيب أخرجته من حزمة بلاستيكية. أظن أني كنت سآكل قسماً كبيراً من الكيس، فيما لو لم يأت صاحب البضاعة من الخلف بسكون ولو لم يمسك بي. أمسك بيده اليسرى شعري واستل بالأخرى الحزام: «يا أيتها السوداء الصغيرة السارقة، سأريك ما أقوم به مع أمثالك!» أذكر أن ما أذلني أكثر، ليس لأنني تم ضبط فعلي، ولكن الطريقة التي أمسك بها التاجر فروة شعري، ومن مناداتي «سودا!» لأن ذلك لم يقل لي من قبل أبداً، حتى زُهرة حين كانت تغضب. لأنها كانت تعلم أن لالا أسمى لم تكن تتحمل ذلك.

عاركت، ولكي يتركني، عضضته حتى سال دمه. واجهته من وجهه وصرخت به: «لست سارقة!، سأدفع لك ثمن ما أكلته!»

في ذات اللحظة وصلت مدام جميلة، وظهرت سيدات الطابق على الشرفة وبدأن بسبّ البائع المتجول وبالصراخ بشتائم لم أسمعها من قبل. حتى أن واحدة من الأميرات لم تجد قذيفة أفضل من رميه بقطع ١٠ أو ٢٠ سنتيم صائحة: «خذ نقودك أيها الحرامي، يا ابن الكلب!». أما هو فقد ظل مخبولاً ، وتراجع من تحت شتائم النساء والقطع النقدية التي انهمرت كالمطر، إلى أن أخذتني مدام جميلة من ذراعي واصطحبتني معها إلى الطابق. أظن أنه كان لا زال في يدي حفنة الزبيب والتي لم أتركها حتى حين شدني البائع من شعري وضربني بحزامه.

غير أني فجأة شعرت بخوف شديد، أو ربما كان ذلك تراكماً لكلّ ما حصل معي أخيراً، مع لالا أسمى التي سقطت على الأرضية وزُهرة التي طردتني بعد أن سرقت قرطي. فبدأت أبكي على الدرج بقوة لدرجة أنني لم أعد أستطيع صعود الدرجات. وحملتني مدام جميلة التي لم تكن أطول مني، كما لو أني كنت طفلاً صغيراً. رددت قرب أذني: «ابنتي، ابنتي» وأنا أبكي أكثر، لأني أضعت جدتي ووجدت أمي.

في أعلى الدرج كانت الأميرات (بما أنني دعوتهم بذلك في داخلي، حتى حين فهمت أنهن لم يكن تماماً أميرات) ينتظرنني بآلاف المداعبات وإظهار مشاعر المحبة. سألنني عن اسمي، ورددنه بينهن: ليلى، ليلى. أحضرن لي شاياً ثقيلاً وحلوى بالعسل، أكلت قدر ما استطعت. وفيما بعد أعددن لي سريراً في غرفة كبيرة هاجعة وندية، بوسائد موضوعة على الأرض، ونمت مباشرة في هرج ومرج الفندق على صوت الموسيقى المنبعث من جهاز راديو في الباحة. وهكذا دخلت حياة مدام جميلة، صانعة الملائكة وحياة أميراتها الست.

-٣-

انتظمت حياتي في الفندق بهدوء، دون أن أبالغ أستطيع القول أنها كانت الفترة الأكثر سعادة في حياتي. لم أكن أعاني من أي إكراه أو قلق، وكنت أرى في جميلة والأميرات كلّ الرضى والحنان اللذين حرمت منهما حتى الآن.

حين أجوع آكل، حين أنعس أنام، وحين أريد الخروج (وهذا كان يحصل بشكل دائم) أخرج دون أن أطلب ذلك من أحد. كانت الحرية الكاملة التي كنت أتمتع بها في الفندق حرية نساء شاركتهم الوجود. لم يكن للوقت لديهم أي معنى ، لذا كانوا سعداء. تبنونني كما لو كنت ابنتهم، أو بالأحرى مثل لعبة، أخت صغيرة جداً، وهكذا كنّ يناديينني. كانت مدام جميلة تقول: «بنتي». أما فاطمة وزبيدة وعائشة وسليمة وحورية وتغادير: «الأخت الصغيرة». غير أن تغادير كانت تدعوني في بعض الأحيان «بنتي» لأنها كانت بعمر والدتي. كنت أنام دوريا في كل الغرف التي كانت كلّ منها تضم أميرتين، ما عدا تغادير التي كانت لها الغرفة الكبيرة الخالية من النوافذ حيث نمت في المرة الأولى. أما مدام جميلة فقد كانت لها شقة في الطرف الآخر من الرواق، ذات نافذة تشرف على الشارع. كنت أنام هنا أيضاً، ولكن بشكل أقل، بسبب انشغالات مدام جميلة وعيادتها حيث تستقبل نساءً لديهن مشاكل حمل. حين يكون لديها مريضات، أعرف أنه لا ينبغي أن أطرق الباب. في

تلك الأمسيات، كانت تغلق الباب بالمزلاج. وكنت أرى عبر الستائر الفانوس الذي تتركه مضاءً في العيادة. كانت إشارة فهمتها بسرعة.

كانت الأميرات يحببنني. كن يكلفنني بمشترياتهم وبحاجاتهم. كنت أذهب لأحضر الشاي من الباحة أو لأشتري لهن الحلوى والسجائر من السوق. أحمل رسائلهن إلى البريد. في بعض الأحيان كنّ يصطحبنني معهن للتسوق في المدينة، ليس لحمل أكياسهن (كان هناك أولاد صغار يقمن بالمهمة) ولكن من أجل مساعدتهن على الشراء، ولكي أفاصل الأسعار. كانت لالا أسمى قد علمتني الشراء ومفاصلة البائعين الجوالين الذين كانوا يطرقون بابها، وقد تعلمت ذلك جيداً.

كانت زبيدة تحب الذهاب معي إلى سوق الأقمشة. كانت تختار أقمشة قطنية لثوب أو لغطاء سرير. كانت طويلة ونحيفة، ذات بشرة حليبية وشعر أسود براق. كانت تتدثر بالقماش وتتقدم إلى الضوء: «كيف تجدينني» أتمهل في الإجابة، ثم أقول بجدية: «لا بأس، ولكن الأزرق الداكن سيكون أفضل.»

كان التجار يعرفونني ويعلمون أني أفاصل بشراسة كما لو أني أنا التي سأدفع. لم يكونوا يستطيعون خداعي بالنوعية، تعلمت ذلك أيضاً من لالا أسمى. ذات يوم، منعت فاطمة من شراء حلية من الذهب والفيروز.

«انظري يا فاطمة إنها ليست أحجاراً حقيقية، إنها قطع معدنية مدهونة.» جعلتها تطرقها على أسناني. «أترين لا يوجد شيء بداخلها.» غضب التاجر، إلا أن فاطمة وبختة: «اخرس! أختي تقول الحقيقة دائماً. ينبغي أن تكون سعيداً بأني لم أرسلك أمام القاضي.»

منذ ذلك اليوم، ضاعفت الأميرات اهتمامهن بيّ. كن يروين أعمالي الباهرة لكلّ الناس، حتى أن البائعين الجوالين في الفندق أصبحوا يحيونني

باحترام. كانوا يأتون إلي ليطلبوا مني التدخل لدى أحد ما، ويحاولون دفعي للشراء بتقديم الهدايا لي، لكنني لم أكن مغفلة. كنت آخذ البالونات والحلوى ثم أقول لفاطمة أو زبيدة:«احترسي منه، إنه بالتأكيد نصاب.»

كانت مدام جميلة تعرف كلّ ما يجري. لم تكن تتحدث عنه، لكني كنت أرى عدم رضاها. كانت نظرتها تتبعني حين أذهب للتسوق، أو حين تصطحبني إحدى الأميرات للخارج. كانت تقول لفاطمة بلهجة لوم :«أتصطحبينها هناك؟». أو كانت تحاول أن تبقيني، تكلفني بوظائف، وبصفحات من الكتابة والحساب والعلوم الطبيعية. أرادت أن تعلمني الكتابة بالعربية، كانت طموحة لأجلي.

غير أني لم أكن أنتبه لما كانت تريد قوله لي. كنت سكرى بالحرية، فقد عشت محبوسة لفترة طويلة. وكنت مستعدة للهرب إن أراد أحدهم أن يحتجزني.

إلى الآن، أجد صعوبة في تصديق أن الأميرات لم يكنّ أميرات. كنت ألهو معهن، لاسيما مع زبيدة وسليمة اللتان كانتا صغيرتين. كنّ غير مباليات، يضحكن طيلة الوقت. جئن من قرى الجبل، بعد فرارهن. يعشن محاطات بمجموعة من الرجال، يصعدن في السيارات الأمريكية الجميلة التي تأتي لاصطحابهن من باب الفندق. أذكر ذات مساء أن سيارة سوداء طويلة بزجاج ملون تحمل علمين على الجانبين: أخضر، أبيض، أحمر، وأسود أيضاً. قالت لي تغادير: «إنه رجل ذو نفوذ وغني.» حاولت أن أرى داخل السيارة، غير أن الزجاج الأسود لا يترك شيئاً يتسرب. «أهو ملك؟» أجابت تغادير مستهزئة مني: «إنه شخص مهم مثل ملك.»

كنت أحب وجه تغادير، لم يعد ندياً، كانت تظهر فيه تغضنات واضحة في زاوية العين، كما لو أنها كانت تبتسم، بشرتها سمراء جداً، مثلي، تقريباً

سوداء، مع وشوم صغيرة على الجبهة. كنت أذهب معها مرتين إلى الحمام أسبوعياً. كان يقع على ضفة مصب النهر، بالقرب من رصيف الشحن. كانت تغادير تعطيني منشفة كبيرة، وتأخذ كيساً مملوء بالثياب النظيفة، ونذهب معاً. أيام لالا أسمى لم يكن لدي فكرة بأن مثل هذا المكان يمكن أن يوجد، ولم أكن أتخيل أن أكون عارية أمام نساء أخريات.

لم تكن تغادير محتشمة بتاتاً. كانت تروح وتجيء أمامي دون ملابس، كانت تفرك جسدها بأحجار الخفان وتدلك نفسها بكفوف مهدبة. كان لها ثديان ثقيلان بحلمتين بنفسجيتين، كانت لبشرتها تجعدات عند وركيها وفي بطنها. كانت تنتف بعناية عانتها وإبطيها وساقيها. كنت أبدو بجانبها خنفساء هزيلة، ورغم كل شيء لم أكن أستطيع أن أمتنع عن تغطية أسفل بطني بمنشفة.

كانت تغادير تطلب أن أمسد لها ظهرها وعنقها بزيت لب النارجيل الذي كانت تشتريه من السوق، والذي يبعث رائحة ثمرة الونيلية المنفرة . في صالة الحمام الكبيرة، كانت سحب البخار تنسل فوق الأجساد، كانت هناك أصوات، صرخات، نداءات. صبية صغار يركضن عراة بمحاذاة فسقية الماء الحار، وهم يصرخون. كان كلّ ذلك يجعل رأسي يدور، يبعث فيّ الرغبة بالإقياء.

«تابعي يا ليلى. يداك قاسيتان، مما يجعلني مرتاحة.»

لم أكن أعرف فيما إذا كنت أحب ذلك. كنت أتابع إدخال الزيت في بشرة ظهر تغادير، وأشم رائحة ثمرة الونيلية والعرق. كانت تغادير ترش الماء البارد علي كي توقظني، تضحك حين أهرب، كانت القشعريرة تسكن كل جسدي.

أصبحتُ تميمة الفندق. ربما لأجل ذلك كانت مدام جميلة غير مسرورة. لابد أنها كانت تظن أني كنت مدللة جداً من قبل الأميرات، وأن ذلك يمكن أن يفسد شخصيتي.

كنت ملزمة بسماع افتتان هؤلاء النسوة بي طيلة النهار: «يا لها من جميلة!» كن يجعلنني أتنكر حسب نزواتهن، لدرجة أني كنت أصدقهن. انسجم مع نزواتهن بغرور. يزينونني بأثواب طويلة، يطلين أظافري وشفتيّ بلون، قرمزي، يطلين وجهي بمستحضرات التجميل، يخططن عينيّ بالكحل. كانت سليمة ذات الأصول السودانية تهتم بتسريحتي. كانت تجزئ شعري إلى مربعات صغيرة وتجدلها بخيط أحمر أو ببكل ملونة. أو تغسله بصابون جوز الهند لتجعله أكثر جفافاً وانتفاخاً من عُفرَة أسد. كانت تقول لي بأن جبهتي وحاجبي الطويلين والمقوسين بروعة وعيني اللوزيتين هم أجمل ما لدي. ربما كانت تقول لي ذلك بسبب تشابهي معها.

كانت تغادير تخطط يديّ بالحنة أو ترسم على جبهتي ذات الرموز التي تحملها باستخدام قذاة مبللة بالسواد. علمتني الدق على الدربكة، والرقص وسط غرفتها. حين كن يسمعن صوت الطبول الصغيرة، كانت النساء الأخريات يأتين وأرقص لهن بقدمين حافيتين على البلاط وأنا أدور حول نفسي إلى أن أصاب بالدوار.

كنت أمضي أغلب العصر مع هذه التصرفات الصبيانية. في المساء تصرفني الأميرات لكي يستقبلن زوارهن، أو أذهب إلى غرف اللواتي تصطحبهن السيارات. كانت مدام جميلة تغسل وجهي بطرف منشفة مبللة: «ماذا فعلن بك أيضاً؟ إنهن مجنونات.» لا بد أني كنت أشبه بدمية بشعري المنكوش والكحل وأحمر الشفاه اللذين يسيلان، ولم تكن مدام جميلة تستطيع منعي من الضحك على شكلي. كنت أنام معللة نفسي بدوامة ذكريات تلك الأيام الطويلة جدا، طويلة جداً بحيث لم أعد أذكر كيف بدأت.

كنت أفضل حورية. كانت أصغرهن والقادمة الأخيرة إلى الفندق. جاءت قبل عدة أيام من وصولي، من قرية بربرية بعيدة، من الجنوب. كانت قد تزوجت رجلاً غنياً من طنجة. كان يضربها ويغتصبها. ذات يوم ، أعدت حقيبتها الصغيرة وهربت. كانت تغادير هي التي التقطتها من شارع قرب محطة القطار وأحضرتها إلى هنا كي تستطيع الاختباء من الذين أرسلهم زوجها خلفها. كانت مدام جميلة حذرة وافقت ولكن بشرط أن تغادر حورية بمجرد انتهاء الخطر. لم تكن تريد مشاكل مع الشرطة.

كانت حورية قصيرة ونحيفة، تبدو كطفلة. أصبحنا أصدقاء بسرعة، وكانت تصطحبني معها، حتى في المساء إلى المطاعم والحانات. كانت تقدمني إلى أصدقائها على أني أختها الصغرى. «إنها أختي. ألا تشبهني؟»

كان وجهها جميلاً متناسقاً، حاجباها مرسومان بدقة، وعيناها أجمل عينين خضراوين رأيتهما. لم أكن أسألها عما تفعله للحصول على النقود. كنت أظن أنها تتلقى هدايا لأنها تعرف الرقص والغناء، ولأنها جميلة. لم تكن لدي أية فكرة عن مفهوم المهنة، عما هو خير وعما هو سيء. كنت أعيش مثل حيوان منزلي صغير، كنت أرى من يُطريني ويلاطفني خيّر وشر كلّ ما هو خطر ويخفيني، مثل عبل الذي كان يحدق بي كما لو أنه يريد أكلي، أو زُهرة التي تبحث عني عن طريق الشرطة حين ادعت أني سرقت حماتها.

كانت الوحدة أكثر ما يخفيني. في بعض الأحيان أثناء نومي أعيش ما قد حدث منذ زمن طويل، حين اختطفت. كنت أرى الضوء في شارع ذي بياض شديد، أسمع الصرخة المتوحشة للطائر الأسود. أو كنت أسمع صوت العظم الذي كان يطقطق في رأسي حين صدمتني الشاحنة.

لذا أنسل في سرير حورية وأحتضنها، وأتعلق بظهرها كما لو أني سأتلاشى. كانت حورية هي أول من حدثتني عن أصولي. حين حدثتها عن القرط الذي سرقته مني زُهرة، قالت لي أنها تعرف أين قبيلتي، بني هلال، في الطرف الآخر من الجبال، على ضفة نهر جف. كنت أحلم أني سأذهب إلى هناك، إلى تلك القرية، وسأدخل في الشارع، وفي آخره سأجد أمي التي تنتظرني.

غير أن حورية لم تبق في الفندق لوقت طويل. رحلت ذات صباح. لم يحدث ذلك بسبب زوجها، ولكن بسببي.

ذات مساء، خرجت مع حورية وأصدقائها إلى مطعم على شاطئ البحر. سارت بنا السيارة لوقت طويل في الليل إلى أن وصلنا إلى شاطئ طويل خال. جلست في المقعد الخلفي لسيارة المرسيدس بجانب الباب، وحورية في الوسط مع رجل. فيما جلس في المقعد الأمامي رجلان وامرأة شقراء. كانوا يتحدثون بصوت عال في لغة لا أفهمها، ظننت أنها لابد أن تكون اللغة الروسية. أذكر جيداً الرجل الذي كان يقود: طويل وقوي مثل عبل ذو شعر كثيف ولحية سوداء. أذكر أيضاً أنه كان له عين زرقاء والأخرى سوداء. بقينا في المطعم بعض الوقت حتى قرابة منتصف الليل. مطعم فخم، فيه نوع من المصابيح يضيء رمل الشاطئ، يرتدي خدمه زياً أبيض. أمضيت السهرة في النظر إلى البحر الأسود وأضواء قوارب الصيد العائدة وضوء المنارة البعيدة. كانت المرأة الشقراء تتحدث وتضحك بصوت عال، وكان الرجال يحيطون بحورية. كانت الريح التي تدخل من النافذة المفتوحة تحمل دخان السجائر. شربت نبيذاً بالخفاء، قدمه لي سائق المرسيدس في كأسه، نبيذ عذب وحلو يشعل الحلق. حدثني بالفرنسية بلهجة غريبة ثقيلة تشدد الكلمات. كنت تعبة فنمت على المقعد بالقرب من النافذة.

فيما بعد، استيقظت في السيارة، كنت وحيدة في المقعد الخلفي، وكان السائق يميل عليّ، رأيت شعره الأجعد مضاءً بأنوار المطعم. لم أفهم في الحال، لكن حين وضع يده تحت ثوبي، استيقظت حقاً. كنت سكرى، أرغب بالتقيؤ. رغماً عني، بدأت بالصياح. كنت خائفة، وبما أن السائق أراد وضع يده على فمي عضضتها. صرخت وخدشت وعضضت.

جاءت حورية في الحال. كانت ساخطة أكثر مني، سحبت الرجل إلى الخلف، ولكمته. شتمت. حاول الرجل أن يرد، تراجع إلى الشاطئ فيما حورية التقطت حجراً كبيراً وكادت تقتله لولا وصول الآخرين. تابعت شتم السائق، كانت تبكي، وأنا أيضاً بكيت. التجأ السائق إلى الطرف الأخر من السيارة وأشعل سيجارة كأن شيئاً لم يحدث. بعد قليل، هدأت حورية واستطعنا المغادرة بالسيارة. كان السائق يقود دون أن ينظر إلينا، سيجارته في فمه، ولم يعد أحد يتكلم، حتى أن الروسية كانت صامتة.

أنزلتنا المرسيدس في السويقة، ومشينا إلى الفندق. كان لا يزال هناك الكثير من الناس في الخارج، حدث ذلك مساء سبت. لابد أن شارع العشاق كان مليئاً، زوج تحت كلّ شجرة مانوليا. في الشارع، اشترت حورية كأسين من الشاي وحلوى. كنا خائرتي القوى، نرتجف نحن الاثنتان، كما لو أننا خرجنا من حادث ما. لم نتكلم عما حصل، فقط قالت لمرة واحدة: «قال لي ابن الكلب: اتركيها نائمة سأسهر عليها مثل أب.»

علمت مدام جميلة بما حصل على الشاطئ. لكن لم تكن هي التي طلبت منها الرحيل. في صباح اليوم التالي، أخذت حورية حقيبتها التي جاءت بها حين التقت بها تغادير تائهة بالقرب من محطة القطار. رحلت دون أي

توضيح. ربما عادت إلى زوجها في طنجة. لم أعد أعلم عنها شيئاً لأشهر، غير أن رحيلها ترك حزناً، لأنها كانت حقاً مثل أختي.

بعد ذلك، حاولت مدام جميلة منعي من الخروج مع الأميرات الأخريات، لكن كنت مع حورية قد اعتدت الحرية، ولم أعد أتصرف إلا بما أريده. وقد اكتسبت مع عائشة وسليمة عادات أخرى: بدأت أسرق.

بدأتُ ذلك مع سليمة. حين كانت تستقبل صديقها في الفندق، أو حين كانت تذهب إلى المطعم، كنت أرافقها. أقف في زاوية منطوية على نفسي بجانب بوابة مثل حيوان، وانتظر. كان صديق سليمة فرنسياً، أستاذ جغرافيا في ثانوية، أو شيئاً شبيهاً بذلك. كان رجلاً أنيقاً، بذلة صوفية رمادية وصدرية وحذاء أسود ملمع بشكل جيد.

كان معتاداً أولاً على مرافقتها لتناول الغداء إلى مطعم في المدينة القديمة، وثم يصحبها إلى الفندق، حيث يجلس في غرفة بلا نوافذ. كان يحمل لي السكاكر، يعطيني قطعاً نقدية في بعض الأحيان. كنت أبقى جالسة أمام غرفتها مثل كلب حراسة. في الحقيقة، كنت انتظر لوقت يصبح فيه مشغولاً، وأدخل إلى الغرفة على أربع. اندس في النور الخافت إلى أن أصل إلى السرير. لم أكن اهتم بما تفعله سليمة مع الفرنسي. كنت أبحث عن الملابس. كان الأستاذ رجلاً حريصاً جداً. يثني بنطاله ويضع سترته وصدريته على مسند كرسي. كانت أصابعي تنسل في الجيوب، مثل حيوان صغير رشيق، وأحضر كلّ ما أجده: ساعة، خاتم ذهبي، محفظة قطع نقدية، أو قلم جميل أزرق مرصع بالذهب. آخذ غنيمتي إلى الرواق لأفحصها تحت ضوء النهار،

أختار بعض الأوراق والقطع النقدية، ومن وقت لآخر أحتفظ بغرض يعجبني، أزرار سوار قميص صدفية، أو القلم الأزرق الصغير.

أظن أن الأستاذ انتهى إلى الشك بشيء ما، لأنه ذات يوم قدم لي هدية، عبارة عن سوار فضي في علبة صغيرة، عند تقديمها قال لي:«إنها حقاً لك.» كان رجلاً طيباً، كنت أشعر بالعار مما كنت أفعله، وفي ذات الوقت لم أستطع منع نفسي من فعل ذلك مرة أخرى. لم أكن أقوم بذلك حباً بالأذى، ولكن كان ذلك مثل لعبة. لم أكن بحاجة إلى النقود، لم تكن تنفعني بشيء، فقط لشراء الهدايا لسليمة وعائشة والأميرات الأخريات.

مع عائشة تابعت السرقة في المحلات. كنت أرافقها إلى وسط المدينة، أدخل معها، وفيما هي مشغولة بشراء الحلويات، أملأ جيوبي بكلّ ما أجده، شوكولا، علب السردين والبسكويت والزبيب. حين أخرج كنت أتصيد الفرصة المناسبة، حتى أني لم أكن بحاجة لمرافقتها. كنت صغيرة وسوداء وأعرف أن الناس لا ينشغلون بي. كنت غير مرئية. لكن في السوق لا يمكن عمل شيء. كان التجار يلاحظونني، أشعر بعيونهم التي كانت تتابع كلّ حركة من حركاتي.

كنت أذهب مع عائشة بعيداً جداً، إلى حي المحيط، هناك حيث توجد دور جميلة وعمارات جديدة وحدائق. كانت عائشة تحب التنزه في المراكز التجارية، وأثناء ذلك، كنت أذهب إلى المقبرة لأشاهد البحر.

كنت هناك أشعر بالطمأنينة، المكان هادئ وساكن، بعيد عن صخب المدينة. كنت أشعر أنها مكاني منذ زمن طويل. كنت أجلس على القبور، أتنسم رائحة النباتات الصغيرة ذات الأوراق الكثيفة والأزهار الزهرية. ألمس الأرض حول القبور براحة يدي.

في هذا المكان، كنت أستطيع التكلم إلى لالا أسمى. لم أعرف أبداً أين دفنت. كانت يهودية، ولأجل ذلك لا يمكن لها أن تكون وسط المسلمين. لكن لم يكن لذلك أهمية، كنت أشعر في هذه المقبرة بقربي منها، بأنها تستطيع سماعي. رويت لها ما أعيشه. بعض الأشياء وليس كلها، لم أكن أريد الدخول في التفاصيل. «جدتي، لن تكوني فخورة بي، أنت التي قلت لي دائماً أنه يجب احترام أموال الآخرين وقول الحقيقة، وها أنا أكبر سارقة وأكبر كاذبة على الأرض.»

كان حديثي مع لالا أسمى، على هذا النحو عبر التراب، يجعلني حزينة. كنت أذرف الدموع، لكن الريح تجففها بسرعة. كان كلّ شيء جميلاً في هذا المكان، القبور المغطاة بالزهور الوردية الصغيرة، حجارة القبور البيضاء الخالية من الأسماء، والتي انمحت منها آيات القرآن، وفي البعيد البحر الأزرق، النوارس المعلقة في السماء والتي تنساب مع الريح. وترمقني بعيون حمراء وكريهة. كان هناك الكثير من السناجب في المقبرة، كانت تبدو كما لو أنها تخرج من القبور. كانت تعيش مع الموتى، ربما كانت تقرض أسنانهم مثل الجوز.

لم أكن خائفة أبداً من الموت. من رؤية لالا أسمى تسقط على أرضية الصالة وهي تشخر. أعطاني ذلك الفكرة بأن الموت مثل نوم عميق. ليس الموتى من يبعث الخوف في المقابر.

ذات يوم، ظهر رجل عجوز غني بلحية بيضاء. لا بد أنه كان يتجسس علي منذ زمن طويل، كان واقفاً أمام قبر، كما لو أنه خرج منه. حين كنت أنظر إليه، أدخل يده تحت ثوبه وأخرج عضوه الجنسي بحشفة لامعة بنفسجية مثل باذنجانة. ربما ظن أني قد خفت وأني سأرحل صارخة. لكني في الفندق، كنت أرى رجالاً عراة كل يوم تقريباً، أسمع نكات الأميرات المتعلقة بعضو الرجال الجنسي، الذي يعتبرونه بأنه لا يلبي رغبتهم.

سررت برمي حصاة على العجوز، وهربت بين القبور، فيما كان يشتمني ويعقد حذاءه محاولاً اللحاق بي. «يا خبيثة! يا كلبة!»

في ذلك اليوم فهمت أنه لا يجب الاتكال على المظهر، وأن رجلاً عجوزاً بثوب أبيض وذقن جميلة بيضاء يمكن أن لا يكون سوى هرم كلب فاجر.

كان حي المحيط مناسباً للسرقة، فيه محلات جميلة تحتوي على أشياء للأغنياء فقط، لا توجد في جهة سوق المدينة القديمة. في السويقة، لم يكن يوجد سوى نوع من البسكويت ونوع من العلكة ومشروبات الفانتا والبيبسي. كان يوجد في محلات المحيط علب عصير بأسماء مكتوبة باليابانية والصينية والألمانية، بمذاقات جديدة غير معروفة، تمر هندي، فاكهة الهوى، الجوافة. كان يوجد سجائر من كلّ البلاد، منها نوع طويل أسود مع طرف مذهب، اشتريته لعائشة مع شوكولاته سويسرية سرقتها من الرفوف.

كنت أدخل إلى المحلات خلف عائشة، وأقوم بجولة، ومن ثم أغادر وجيوبي مليئة. لم يكن الناس يعرفوني، ولم يكونوا يحترسون مني. كنت أبدو فتاة صغيرة عاقلة بثوبي الأزرق ذو القبة البيضاء، وبالوشاح على شعري الكث، وعيني البريئتين. كانوا يظنون أني جديدة في الحي، وبأني أرافق أمي التي تعمل في الدارات. لاحظت أن الكثير من الناس هم بسطاء، لم يتعلموا الدرس بالسرعة التي تعلمت بها، يؤمنون بما يرونه، وبما يقال لهم، وبما يُدفَعون إلى تصديقه. كان عمري أربعة عشر عاماً، وكنت أبدو كما لو أن عمري اثنا عشر عاماً، تناهز معرفتي معرفة الشيطان. هذا ما كانت تقوله لي تغادير. ربما كانت على حق. كانت تتشاجر مع سليمة وعائشة وتنعتهما بالقوادتين.

أعتقد أنه لم يعد عندي أي معنى للحدود ولا للسلطة. كنت أخاطر بمشاكل أسوأ. في تلك الفترة تشكلت شخصيتي، وأظن أني أصبحت غير مناسبة لأي مجال، لا أنزع لاقتفاء شيء سوى رغباتي، واكتسبت نظرة قاسية.

كانت مدام جميلة تدرك أن ذلك لن يكون جيداً. غير أنها لم تكن معتادة على الأطفال، كانت الأميرات مثل أطفالها. ولتحاول إصلاح الحال السيئة التي وصلت إليها، أرادت تسجيلي في المدرسة. لم أكن أتكلم العربية بما فيه الكفاية كي أدخل مدرسة عامة، وكنت أكبر من أن أدخل مدرسة أجنبية. بالإضافة إلى أنه لم يكن لدي أي ورقة رسمية. لذا اختارت نوعاً من المدارس الداخلية فيها ما يقارب اثنتي عشرة فتاة ذوات حالات صعبة، وكانت المسؤولة فيها امرأة جافة شرسة تدعى الآنسة روز. في الحقيقة كانت أقرب إلى إصلاحية. كانت الآنسة روز راهبة فرنسية سابقة تعيش مع رجل أصغر منها يهتم بالصندوق.

غالبية الفتيات كن ذوات ماض أثقل من ماضيّ . هربن من منازلهن، أو لهن عشاق، أو أنهن كن موعودات بالزواج وحبستهن عائلاتهن من أجل التأكد من حسن الخاتمة. بجانبهن كنت حرة، غير مكترثة، لا أخاف شيئاً. لم أبق عند الآنسة روز سوى بضع شهور.

كان الأساس في تربية المدرسة الداخلية يتمثل بإشغال الفتيات بأعمال الخياطة والكوي وقراءة الكتب الأخلاقية. كانت الآنسة روز تقوم ببعض دروس الفرنسية، فيما كان مديرها الجميل، البخيل، يقوم بدروس مفاهيم الحساب والهندسة.

كانت الأميرات تغضبن حين كنت أصف لهن عبودية الفتيات الملزمات بالكنس وغسيل أرض المدرسة، أو حين يحرقن أصابعهن بأجهزة الكوي أو بمقابض الأواني. أما أنا، كان غير مقبول لي أن أقوم بأي شيء أو أن أقوم بالأعمال المنزلية. فعلت ذلك من قبل للالا أسمى لأنها كانت جدتي، ولأني أدين بحياتي لها. لم يكن مطروحاً أمامي أن أعود إلى ذلك من جديد لكي

ترضى عني فتاة عجوز مدفوع أجرها. كنت أُسر بالبقاء جالسة على كرسيّ، لأسمع دروس الآنسة روز التي كانت تقرأ بصوت أجش «الزيز والنملة» أو «حلم الفهد». لم أتعلم شيئاً مهماً عند الآنسة روز، غير أني تعلمت أن أثمن حريتي، ووعدت نفسي أنه مهما حدث لن أحرم نفسي من هذه الحرية.

في نهاية الفصل في المدرسة، جاءت الآنسة روز بنفسها إلى الفندق، من دون شك كي تتعرف على الوسط الذي صنع وحشاً مثلي. كانت مدام جميلة في جولة، فاستقبلتها سليمة وعائشة وزبيدة في الرواق، وهن يرتدين مباذلهن الطويلة من الموسلين (الحرير الموصلي) الفاتحة اللون، وعيونهن مسودة من الكحل. قلن: «نحن عماتها». وأمام الآنسة روز التي لم تكن تصدق أذنيها أو عينيها اتهموني بأشياء كثيرة: كاذبة، سارقة، لا أسكت على كلمة، كسولة، وأني إذا بقيت عندها فإني قد أقوم بإشعال النار بكلّ طالباتها، أو بأن أحرق المدرسة بالمكوى. وهكذا طُردت. آلمني ذلك بسبب النقود التي خصصتها مدام جميلة لتربيتي، غير أني لم أكن أستطيع أن أدان بالأشغال الشاقة من أجل أن أرضيها.

وهكذا بعد أشهر من الانقطاع، استعدت حريتي، النزهات في السويقة، حي المحيط الغني والمقبرة الكبيرة فوق البحر. غير أن سعادتي لم تستمر طويلاً. في ظهر أحد الأيام، بينما كنت عائدة من غزوة وجيوبي ملئ بالأشياء الصغيرة لأميراتي، قبض عليّ في مدخل الفندق من قبل رجلين ببزة رمادية. لم يكن لدي الوقت لأصرخ ولا لأن أطلب النجدة. أمسكني كلّ منهما من ذراع، ورفعاني ورمياني في شاحنة زرقاء بشبابيك ذات شبك. كما لو أن كل شيء قد ابتدأ من جديد، كنت من جديد مشلولة من الخوف. كنت أرى الشارع الأبيض الذي ينغلق والسماء التي تختفي. كنتُ مثل كرة في عمق الشاحنة، ركبتاي على بطني ويداي على أذني وعيناي مغلقتان، كنت من جديد في الكيس الكبير الأسود الذي ابتلعني.

- ٤ -

لم تكن لدي أي فكرة عما جرى لي. فيما بعد، فهمت ما حدث. فقد تبعتني شرطة زُهرة ونصبوا لي مصيدة. كانت المحلات التي سرقتها تبحث عني. مثلت أمام قاضي الأطفال، رجلٌ هادئ جداً يتكلم بصوت خافت كي أسمعه. وبما أني أجبت بنعم على كلّ الأسئلة، بدوت له أني مطيعة. غير أنه أراد أيضاً أن يستجوبني حول الفندق، عما تفعله مدام جميلة والأميرات. وبما أني لم أجب بشيء، غضب ولكن بهدوء. اكتفى بتحطيم قلم كان يدور بين أصابعه، وهو ينظر إلي، كما لو أنه أراد أن أفهم بأنه يستطيع أيضاً بحركة واحدة تحطيمي. استجوبت لعدة أيام وفيما بعد أُرسلت إلى غرفة نوافذها مشّبكة . كما لو أنها كانت مدرسة أو ملحقاً لمشفى.

فيما بعد سلّمني لزُهرة. لو ترك لي الفرصة لاختار بين زُهرة والسجن، لاخترت السجن، لكنه لم يمنحني الخيار.

كانت زهرة وعبل عظمة يقطنان في بناء جديد، في مخرج المدينة، وسط حدائق كبيرة . كانا قد باعا منزل الملاحة وقد وافقت زُهرة على ترك والديها لتعيش في هذا الحي الفاخر.

في البداية، كانت زُهرة وعبل لطيفين معي، كما لو أنهما قد قررا محو كلّ الأخطاء وكلّ الماضي، وبأننا سنبدأ صفحة جديدة. ربما كانا خائفين أيضاً من مدام جميلة، أو أنهما كانا يشعران بأنهما مراقبان.

ولكن سرعان ما عادت الأمور إلى طبيعتها. بعد زمن قصير، أصبحت زُهرة مرة أخرى عنيفة باتجاهي. كانت تضربني، تعنفني، بأني لست سوى خادمة، في الحقيقة خادمة لا تصلح لشيء. كانت تغضب غضباً حاداً لأقل سبب: لأني كسرتُ قدحاً أزرق، أو لأني لم أغسل العدس، أو لأني تركت أثراً على أرضية المطبخ.

لم تسمح لي بالخروج. كانت تقول أن هناك أمراً من القاضي، وبأنه ينبغي أن أوقف كلّ معاشرة سيئة. حين كانت تخرج، كانت تغلق عليّ الشقة بقفل ذي دورتين، مع كومة غسيل للكوي. ذات يوم، شيطت قبة قميص لعبل، ولكي تعاقبني حرقت زُهرة يدي بالمكوى. كانت عيناي ملأى بالدموع، غير أني ضغطت أسناني بكل قوتي كيلا أبكي. فقدت نفسي كما لو أن أحداً يضغط على حلقي، لم يغم علي. حتى اليوم لا زال هناك على يدي مثلث أبيض صغير لم يمح أبداً.

ظننت أني سأموت. لم يكن لدي شيء آكله. كانت تطبخ أرزاً لكلبها الصغير، كلب ذو شعر طويل أبيض يشوبه الاصفرار. كانت ترش الأرز بمرقة الدجاج، وكان ذلك كلّ ما تقدمه لي. كنت آكل أقل من كلبها الصغير. من وقت لآخر، أسرق خلسة فاكهة من المطبخ. كنت خائفة مما سيحدث فيما لو أحست بذلك. وقد اصطبغت ساقي وذراعي باللون الأزرق من ضربات الحزام. غير أني كنت جائعة، لذا تابعت السرقة من خزانة المطبخ... سكر وبسكويت وفاكهة.

ذات يوم، دعت عائلة فرنسية تدعى دلاهاي Delahaye للغذاء. اشترت لأجلهم من متجر المحيط الكبير عنقود عنب أسود. فيما كانوا يتناولون المقبلات، انتظرت في المطبخ، أقطف من حباته. فيما بعد أدركت أني أكلت كلّ حبات أسفل العنقود. لذا ومن أجل أن تتأخر في كشف الجريمة، وضعت في أسفل العنقود كرة ورقية، ليبدو الصحن مليئاً. كنت أعرف أن ذلك سيُعرف عاجلاً أم أجلاً، لكن الأمر كان سيان عندي. فقد كان العنب عذباً وحلواً ومعطراً مثل العسل.

في نهاية الوجبة، أحضرت العنب، لحظتها طلب المدعوان أن أبقى. كانا يقولان لزُهرة: «ربيبتك الصغيرة.»

تغنجت زُهرة. جعلتني أخلع أسمالي الرثة، وألبستني الثوب الأزرق ذي الرقبة البيضاء الذي كنت أملكه أيام لالا أسمى. كان قصيراً بعض الشيء، وضيقاً، غير أن زُهرة تركت السحاب مفتوحاً وعقدت فوطة من أعلى. بالإضافة إلى أني نحفت كثيراً.

«إنها ساحرة، فاتنة، تهانينا.» كان الفرنسيان يبدوان لطيفين. كان للسيد دلاهاي عينان زرقاوان لامعتان على وجهه البرونزي. فيما كانت السيدة دلاهاي شقراء، بشرتها حمراء قليلاً، لكنها لا تزال ندية. كنت أود أن أطلب منهما أن يصطحباني، وأن يتبنياني، لكني لم أكن أعرف كيف أقول لهما ذلك. تمنيت أن يقرأ تعاستي في نظرتي، وأن يفهما كلّ شيء.

بطبيعة الحال، في لحظة تقديم الطبق الأخير، اكتشفت زُهرة أن أسفل العنقود قد أكل، وكذلك الكرة الورقية. صرخت باسمي. كان آخر العنقود دون حب منتوفاً. حتى أن العنقود بدا خجلاً.

«لا تصرخي، إنها طفلة، ألم نفعل كلنا ذات الشيء حين كنا أطفالاً؟» قالت السيدة دلاهاي. ضحك زوجها بوضوح، رسم عبل على وجهه ابتسامة غامضة. لم تضحك زُهرة، رمتني بنظرة شريرة طويلة، وبعد مغادرة الفرنسيين، أحضرت الحزام ذا البكلة النحاسية الثقيلة. «لكلّ حبة ضربة!» وضربتني حتى أدمى جسدي.

بفضل عائلة دلاهاي استطعت الخروج من الشقة. فقد اتصلت السيدة دلاهاي بزُهرة: «عزيزتي، أتعيرينني محميتك الصغيرة، كما تعرفين إني بحاجة لمساعدة في المنزل وفي ذات الوقت يمكن أن تدخر مصروف جيب.»

في البداية رفضت زُهرة تحت ذرائع مختلفة، غير أن السيدة دلاهاي لامتها: «أتمنى أنك لا تسجنينها!» خافت زُهرة واعتقدت أن هناك تهديداً وراء تلك المداعبة، وتركتني أذهب. مرة ثم مرتين في الأسبوع.

كانت عائلة دلاهاي تستأجر منزلاً في حي المحيط. كانت شركة عبل هي التي نفذت أعمال الدهان والإصلاح. مكان هادئ، بحديقة مزروعة بالبرتقال والليمون وأسيجة من الدفلى. والكثير من الطيور. كنت أشعر بالراحة في منزل عائلة دلاهاي كما لو أنني وجدت الهدوء الذي عرفته في طفولتي بالملاحة، حين كان العالم يقتصر على الباحة البيضاء لمنزل لالا أسمى.

كانت جوليت دلاهاي لطيفة معي. حين كنت أصل حوالي الساعة الثانية من بعد الظهر، كانت تقدم لي الشاي والحلوى من علبة معدنية حمراء جميلة. لابد أنها شكت بأني لا آكل كفايتي عند زهرة حين رأتني كيف انقض على البسكويت الجاف. كنت أعتقد أنها تعرف ماضيّ، لكنها

لا تتكلم عنه. حين كنت أمسح الغبار في غرفتها، كانت تترك كل مجوهراتها ظاهرة على الصوان (الكومدينة) وكذلك بعض النقود بما فيها قطع نقدية. كنت أظن أنها تمتحنني، فاحترس من لمسها. كانت تعدّ النقود بعد مروري، ومن صوتها السعيد أعرف أنها مسرورة من أنها قد وجدت ما تركته كاملاً دون نقصان. لكن فيما كانت تقوم بذلك كان بإمكاني زيارة جيوب سترة زوجها المعلقة في البهو.

كان السيد دلاهاي رجلاً مسناً بعض الشيء، ذا أنف كبير ونظارات تضخم عينيه الزرقاوين. أنيقاً دائماً، ببزة ذات سترة رمادية داكنة مزينة بكرة حمراء صغيرة في عروتها، وحذاء من الجلد الأسود ملمع جيداً. كان في الماضي رجلاً مهماً، سفيراً أو وزيراً، لم أعد أذكر. كنتُ متأثرة به، كان يناديني «صغيرتي» أو «آنسة». لم يخاطبني أحد بهذه الطريقة من قبل. كان يناديني بصيغة المفرد، ولكنه لم يقدم لي أبداً السكاكر و لا النقود. كان شغوفاً بالصور، التي توزعت في كل مكان من المنزل، في الممرات في الصالة في الغرف وحتى في التواليت.

ذات يوم دعاني إلى الإستديو خاصته، مبنى صغير دون نوافذ في آخر الحديقة، كان كراجاً في الماضي فأعاد ترميمه. كان فيه يقوم بتظهير الصور وبسحبها.

ما أدهشني في الإستديو، صور زوجته المعلقة بدبابيس على الجدران. صورٌ قديمة بعض الشيء، بدت فيها صغيرة جداً. كانت دون ملابس، مع أزهار معلقة في شعرها الأشقر، أو في لباس بحر على الشاطئ. تم التقاطها في بلد آخر، في جزيرة بعيدة، تُرى فيها أشجار النخيل والرمل الأبيض

والبحر ذي اللون الفيروزي. ذكر لي الأسماء، ربما منروفيا أو اسم قريب من ذلك. كان هناك أيضاً على الحائط شيء من الجلد الأسود، مزين بمسامير نحاسية، اعتقدت في البداية أنه سلاح، نوع من المقاليع أو الكمامات. حين نظرت إلى الصور، كنت مندهشة حين استنتجت أنه ساتر عورة السيدة دلاهاي الذي علقه زوجها مثل تذكار.

اعتدت على رؤية نساء عاريات في حمام البخار مع تغادير أو حين كانت عائشة أو فاطمة يتمشون في الغرفة. مع ذلك كنت خجلة من رؤية هذه الصور التي لا ترتدي بها السيدة دلاهاي أي شيء. في صورة سوداء وبيضاء، كانت ممددة عارية على شرفة، تحت الشمس، وفي أسفل بطنها بدت عانتها كبقعة مثلثة سوداء كبيرة تتناقض مع لون شعرها. كان السيد دلاهاي يراقبني من خلف نظارته بابتسامة غامضة. اعتقدت أن ذلك كان أيضاً امتحاناً فأخفيت خجلي. لقد رغبت كثيراً بإرضائهم.

عدت عدة مرات إلى الإستديو. شرح لي السيد دلاهاي تقنية سحب الصور، الماء الأسيدي، كيف يمكن أن تأخذ الصورة بملقط وتعلق على حبل كي تنشف. أحببت أن أظهر الوجوه في الماء، ببطء، كانت تصبح سوداء أكثر فأكثر. كانت هناك وجوه نساء وأطفال ومشاهد من الشارع. كانت هناك أيضاً فتيات في أوضاع غريبة مع ثوب مفتوح ينزل إلى الكتف وشعر محلول.

كان السيد دلاهاي يقول بأني ذكية وبأني موهوبة في التصوير. كان يحدث السيدة دلاهاي عني بحماسة، بأنه يمكنني جعل التصوير مهنتي. كنت أنظر إلى هذه المرأة نظرة متميزة جداً، وأردت أن أمحو من رأسي قطعة

الجلد الأسود المسمرة والتي تتأرجح على جدار الاستديو. كنت أقول لنفسي إن ذلك لم يكن شيئاً مهماً لا بد أنهم نسوه كما لو أن أحدهم علق قبعة على مسمار ثم مضى.

ذات عصر، في بداية الصيف، كان الجو حاراً في الخارج، ذهبت كعادتي بعد مهامي، لأعمل قليلاً في سحب الصور . كان السيد دلاهاي مرتدياً قميصه، وقد علق سترته على علاقة، لم يكن قد أضاء الضوء الأحمر. قال لي: «اليوم أرغب بتصويرك.» نظر إلي بغرابة. قال ذلك كما لو أنه شيء مقرر. أما أنا فلم أكن أحب أن أُصوّر. لم أحب ذلك أبداً. أذكر أن لالا أسمى كانت تقول بأن التصوير سيئ، وأنه يتعب الوجه.

وفي ذات الوقت، كنت أحس بالإطراء من أن رجلاً مثل السيد دلاهاي لديه رغبة في تصوير فتاة صغيرة سوداء مثلي.

أضاء مصابيحه، ووضع مقعداً أمام خلفية قماشية بيضاء كبيرة مثبتة على الجدران بمسامير. كان قد نفذ كل تحضيراته، لا بد أنه فكر بذلك منذ زمن طويل. كان وجهه جاداً، مثابراً وجبهته تلمع من العرق بسبب حرارة المصابيح. أجلسني على المقعد، وجعل جذعي مستقيماً.

ثم بدأ بالتقاط الصور، بآلة ذات أقدام حيث يلمع ضوء أحمر صغير. كنت أسمع صوت السداد. بدا لي أيضاً أني كنت أسمع صوت تنفسه، نفسه الربوي. كان شيئاً غريباً. لم أكن خائفة منه بتاتاً، وفي ذات الوقت كنت أشعر أن قلبي يخفق بشدة، كما لو أنني أقوم بشيء ممنوع وخطر.

توقف، حين رأى أن شعري ليس ممشطاً جيداً. أو بالأحرى، وجد أن شعري لم يكن مشعثاً بما فيه الكفاية. خلع العصبة التي كانت زُهرة تجبرني

على وضعها، رش شعري بالماء البارد، ونفخه بسيشوار إلكتروني. كنت أشعر بالهواء الساخن على رقبتي وبذات الوقت بالماء البارد الذي يسيل على عنقي والذي يبلل ثوبي. الآن أصبح السيد دلاهاي حقاً غريباً، كان يشبه عبل عندما حاصرني في مغسل باحة لالا أسمى. كان يترشح عرقاً، نظرته لامعة متفحصة، كان في بياض عينيه شيء من الحمرة. خطر لي أن زوجته قد تأتي في أي لحظة، وأن ذلك يقلقه. فجأة ذهب إلى الباب، ونظر في الخارج، ومن ثم أغلقه وأدار المفتاح في القفل. كان شيئاً غريباً مثل الآخرين، من مدام جميلة إلى الأنسة روز وزهرة، أرادوا كلهم حبسي بالمفتاح. في تلك اللحظة شعرت بالسوء، كان قلبي يخفق بسرعة، شعرت بعرق القلق يخزني في خواصري وظهري.

عاد السيد دلاهاي إلى التصوير. قال لي شيئاً متعلقاً بثوبي، بأنه ليس مناسباً، وأنه مبلل. كان يريد شيئاً يتناسب مع وجهي، شيئاً أكثر وحشية، أقرب إلى الحيوانية، حلّ أزرار ثوبي، وسّع ما حول العنق. أحسست بيديه على عنقي، وعلى كتفيّ. أحسست بأنفاسه، تنحيت وأدرت له جذعي، كان كما لو أنه يبحث عن حركة ما، ووضعية معينة. لا بد أن الغضب كان في عيوني، لأنه تراجع، ثم التقط سلسلة من اللقطات، ثم أعاد: «إن ذلك رائع، كنت رائعة!» من وقت لآخر، يمر خلفي، يحلّ زراً آخر ويسّحل الثوب قليلاً على كتفي. لكنه بالكاد كان يلمسني، كنت أشعر فقط بأنفاسه على عنقي.

فجأة لم أعد احتمل. كنت أشعر بالغثيان. حتى أني نهضت دون أصحّح هيئتي، ركضت باتجاه الباب. وبما أن المفتاح لم يكن في القفل، عدت. كان

السيد دلاهاي واقفاً أمام آلته، كان يبدو عليه التفكير. كانت تعابير وجهه غريبة، كما لو أنه يعاني كثيراً. لا أعرف ماذا قلت بصوت غاضب: «إن لم تتركني أغادر سأصرخ.» فتح لي الباب. ابتعد عني كما لو أني كنت عقرباً. قال «ما بك؟ ماذا فعلت لك؟ لا أريد أن أخيفك، أريد فقط أن التقط لك صوراً.» لم أسمع. خرجت راكضة. خرجت من المنزل دون أن أودع السيدة دلاهاي. كان قلبي يخفق بشدة، كنت أشعر بالنار على وجنتي وعلى عنقي، حيث مرر هذا الرجل أطراف أصابعه.

في النهاية، عدت إلى منزل زُهرة. لم يكن هناك أحد، انتظرت عودتها على الدرج. كان غريباً أنها لم تضربني، لم تطرح أي سؤال. فقط، لم أعد إلى رؤية عائلة دلاهاي. أعتقد أني منذ ذلك اليوم قررت الرحيل، أن أذهب أبعد ما يمكن، إلى آخر العالم، وأن لا أعود أبداً. في تلك الفترة أيضاً، قررت زُهرة تخطيبي.

لم أدرك بسرعة أنها تعمل على هذه الفكرة، غير أني لاحظت منذ توقفي عن الذهاب إلى عائلة دلاهاي، أن زُهرة أصبحت أكثر لطفاً معي. تابعت حبسي في الشقة، لكنها لم تعد تضربني، حتى أنها كنت تقدم لي المزيد من الطعام، أكثر من المعتاد الذي أشارك فيه الكلب. كان لي الحق من وقتٍ لآخر بفاكهة، موزة، تفاحة، تمر محشي. حتى أنه ذات يوم أعادت لي بأبهة العلبة الصغيرة التي تحتوي القرط الذهبي، الهلال الذي يحمل اسم قبيلتي، والتي تركها سارقو الأطفال عندما باعوني للالا أسمى. «إنه لك. حفظته كيلا تفقديه. إنها إرادة أمي، كيف يمكنني أن لا أخضع لها؟» تساءلت دائماً لماذا تفعل ذلك. وجدت أن التفسير الوحيد لذلك هو أن

لالا أسمى ظهرت لها في النوم وطلبت منها فعل ذلك. فقد كانت زُهرة متطيرة مثلما هي شريرة.

جاءت السيدة دلاهاي عدة مرات لتطالب بي. غير أن زُهرة لم ترد أن أراها، وكنت مسرورة من ذلك. فقد تعلمت فجأة كره هؤلاء الناس الصبوحين والمهذبين جداً، مع كلّ قصصهم المتعلقة بساتر العورة وصورهم الغريبة.

إضافة إلى ذلك، كان هناك رجل يتردد على المنزل.

كان شاباً، موظف مصرف أو شيء شبيهاً بذلك. متصنعاً. لابد أن زُهرة أخبرته بأني أتكلم العربية بشكل سيء، فكان يتكلم معي بفرنسية قديمة ورسمية، تبعث فيّ الرغبة بالضحك. كانت زُهرة تقدم له الشاي في الصالة، وتجلب منفضة كيلا يسقط رماد سجائره على السجادة. كان يمسك سيجارته بشكل مستقيم، مثل قلم، كان يبدو أخرقاً.

حين يأتي، كانت زُهرة تلبسني الثوب الأزرق ذا قبة الدانتيل الذي كان السيد دلاهاي يكرهه والذي أراد أن أخلعه يوم الصور. كنت أحضر الصينية مع الأكواب الصغيرة المذهبة والسكرية، فيما السيد جماح (سرعان ما اسميته السيد أبداً)(١) ينظر إلي بعينين هادئتين. كان وجهه ناعماً وأبيض يفصح عن الكثير من المشاعر، وحين كنت أجلس أمامه على الأريكة، كنت أفاجئ من وقت لآخر بنظراته الخفية إلى ساقيّ. استمر ذلك عدة أشهر، صرت أستمتع بهذه اللقاءات. أتغنج وأقول أشياء مضمرة ليتلذذ أكثر. وفي ذات الوقت أصبح عبل غيوراً، صغيراً، كانت

---

(١) هناك تشابه بين لفظ وكتابة جماح Jamah وكلمة Jamais والتي تعني أبداً.

تلك لعبتي أيضاً، طريقة لأنتقم منْ كلّ ما فعله بي سابقاً. كنت أريد أن يعتقد أني مسرورة بهذه الخطبة المعلنة. حين يكون موجوداً، كنت أسأل زُهرة عن السيد «أبداً»، عن ثروته، منزل عائلته، أوضاع أخوته..الخ.

ذات يوم رماني بنظرة خبيثة. «علي أية حال، لم يبق لك وقت طويل هنا.» قال لي بأن موعد إعلان الخطبة سيكون في شهر تشرين الأول. وأضاف:« وبما أنك تحبين الفنادق سيكون ذلك في فندق على شاطئ البحر.» وقد تم حجز الصالة.

لم أوضب حقائبي كيلا يشعر بشيء. وضعت كلّ ما وفرته في ثيابي، كلّ ما سرقته، وكلّ ما كسبته عند عائلة دلاهاي، كنت قد خبأته في الغرفة التي أنام فيها. وضعت القطع النقدية في جيوبي، والأوراق النقدية في مخيط في سترتي، من جانب بطني. غرزت حلق الهلال تحت عصبة رأسي.

ومن أجل الخروج، انتظرت عودة زهرة من السوق، وأسقطت من غرفة المغسل قطعاً من الغسيل إلى الباحة. قلت لزُهرة إني ذاهبة لأحضرها. كان قلبي يخفق، ولم أردها أن تشعر بتوتر صوتي. في العصر كانت زُهرة نعسة. ترددت، غير أنها كانت تعبة. أعطتني المفتاح. «لا تستغلي ذلك كي تتسلي في الخارج!»

لم تصدق عيناي، كان ذلك سهلاً.

«لا يا خالتي، سأعود حالاً.»

كانت تتثاءب.

أغلقي الباب جيداً، وأعيدي غسل كلّ شيء.»

خرجت إلى الدرج. ولأنتقم، أخذت الكلب، وأغلقت الباب بالمفتاح بدورتين. كان مع عبل نسخة أخرى من المفتاح وكنت أعلم أنه لن يعود قبل المساء.

في أسفل البناء، طردت الكلب بقدمي ورميت المفتاح في القمامة، وأغرقته بين النفايات كي أتأكد من أن أحد لن يجده. ومن ثم رحلت عبر الشوارع الفارغة تحت الشمس دون عجلة.

- ٥ -

كما تتخيلون، كان همي الأول هو الذهاب إلى الفندق لرؤية مدام جميلة والأميرات. مرّ ما يقارب السنة منذ أن أوقفتني شرطة زُهرة وعبل. وحين وصلت إلى الفندق لم أعرف شيئاً. كان كما لو أن هناك هزة أرضية قد حدثت. اختفى الجدار العالي الخارجي والبوابة ذات المصراعين ، وساحة الباحة حيث كان يقف الباعة المتجولون. تم تزفيت الأرض وأصبحت موقفاً للسيارات والشاحنات القادمة إلى السوق. تم سدّ أو إغلاق الغرف السفلية بستائر معدنية. ظل الطابق لوحده دون تغيير كبير، إلا أنه بدا خالياً، قديماً، مهجوراً. زال طلاء الجدار فيما كُسرت أبواب النوافذ. حتى أن السنونو قد عشش في سقف الرواق. لم أفهم شيئاً، كنت مذهولة، وقد شعرت بخيانة ما.

في مدخل الموقف، كان يقف حارس. رجلٌ طويل جاف، وجهه محروق مثل جندي، يرتدي سترة طويلة رمادية و كوفية منحلة مكورة على الرأس. فيما كان وراءه، في الباحة، صبية صغار مشغولون بمسح زجاج السيارات المتوقفة يحملون أوعية من الماء والصابون ومماسح قديمة. راقبني الحارس بحذر. لم أتجرأ أن أسأله. ربما سيشي بي إلى الشرطة. على أي حال، ماذا يُمكن أن يعرف؟ انتابني اليأس من ظني أني كنت السبب في عدم

بقاء الفندق. فقد نفذ المالك تهديداته وطرد مدام جميلة والأميرات لأسباب التعدي على الأخلاق، ومن ثم باع المنزل للمصارف.

روى لي العجوز رومانا، التاجر الذي كنت أشتري منه دائماً السجائر الأمريكية لتغادير، ما حدث. تم سجن مدام جميلة، فيما رحلت كلّ الأميرات، غير أنه كان يعرف أن تغادير ذهبت للعيش في الضفة الأخرى من النهر، في دوار يدعى تبريكة. كانت حورية تعيش معها. اشتريت لها بعض السجائر، ذكرى الأيام الماضية. لكن لم أستطع التأخر في هذا المكان. كان من الأكيد أن زُهرة ستبحث عني في منطقة الفندق أولاً.

عند نهاية العصر ركبت العبارة، بدا مصب النهر ضخماً. كانت قوارب الصيد قد بدأت بالعودة مع المدّ، محاطة بأسراب النوارس. وكان أفق المدينة يتلاشى في الضباب. أما الطرف الآخر من النهر فقد غزته الظلال، كانت هناك أضواء تومض. بدا لي أني كنت حرةً للمرة الأولى. لم يعد هناك ما يربطني، وأني ذاهبة نحو المستقبل. لم أعد أخاف من الشارع الأبيض وصرخة الطير، لن يكون هناك أحد سيرميني في كيس ويضربني. كانت طفولتي قد بقيت في الطرف الآخر من هذا النهر.

وجدت صعوبة في العثور على منزل تغادير. فقد كان دوار تبريكة بعيداً عن النهر، في حيٍ عالٍ، مغلقٌ بطريق كبير يتم بناءه حيث تسير الشاحنات. حي فقير، لا شيء فيه سوى أكواخ من الألواح الخشبية مغطاة بصفائح معدنية أو ألواح الفيبر مثبتة بالحجارة لمقاومة الريح. كلّ الشوارع متشابهة، حارات مستقيمة، مليئة بزوابع الغبار. وقد ظللت الشارع الكبير أكبر غيمة حمراء فوق المدينة.

مشيت في الشوارع دون أن أقصد اتجاهاً محدداً. كانت الكلاب تنبح باتجاهي، بسبب شعري الكث وأسمال ثوبي. كان هناك نساء وأطفال يملؤون بيدونات بلاستيكية عند صنبور ماء. صبية يتجولون على دراجات هوائية يحملون بيدونات ماء أو حطباً للنار يضعونها على مقود الدراجات، محافظين على توازنهم بها. أرشدتني امرأة إلى منزل تغادير، وقد رافقتني إلى آخر الطريق فيما تركت بيدونها تحت حنفية الماء ليمتلئ وحده. في آخر الشارع أشارت إلى منزل أخضر. كان منزل تغادير.

كان قلبي مقبوضاً، لأني لم أكن أعرف كيف ستستقبلني تغادير وحورية بعد ما حدث. ظننت أنهما لن تريدا استقبالي، وأنهما سترمياني بالحجارة.

لم أكن محتاجة لطرق الباب، فقد أخبرهم شخص ما، وخرجت حورية لحظة وصولي. قبلتني، وعانقتني بقوة، رددت:«ليلى، ليلى!» وعيونها تدمع. بدا التغيّر عليها، كانت أكثر شحوباً، مكفهرة قليلاً، ارتسمت حول عيونها دوائر زرقاء تشير إلى الإرهاق. فيما لطخت ثوبها بقع طينية. كانت قدماها عاريتين في صندل بلاستيكي لم تربط إبزيمه.

سمعت صوت تغادير الخفيض، في آخر الباحة، كان هناك إفريز بلاستيكي أخضر يتموج، مثل ذلك الذي يُرى في الحدائق التي فيها موقد جمر. جاءت تغادير، كانت هي أيضاً ترتدي ثوباً أخضر. لم تتغير كثيراً. كانت التجاعيد الصغيرة التي أحببتها في زاوية العينين وفي جانبي الفم أكثر ظهوراً. لاحظت أنها تعرج قليلاً، فيما ضُمدت ساقها.

تعانقنا. كنت سعيدة لرؤيتها، لاستنشاق رائحتها. بدا لي كما لو أني ألاقي والديّ وعائلتي بعد غياب استمر سنين. أعدت تغادير الشاي مع المعطرات التي تحبها والنعنع الذي ينمو في أصيص بالقرب من المطبخ. كان عندي الكثير من

الأسئلة التي أريد طرحها عليها بحيث أني لم أكن اعرف من أين أبدأ. حدثتني حورية عن مدام جميلة، التي بعد أن قضت فترة قصيرة في السجن انتقلت إلى مدينة أخرى، ربما تكون مليلة أو في فرنسا. أما الأميرات فقد رحلت كلّ واحدة منهن في اتجاه. تزوجت زبيدة وفاطمة، فيما سليمة تزوجت من أستاذ الجغرافيا، وعائشة تعمل في التجارة. ظل الفندق مغلقاً زمناً طويلاً ومن ثم تم هدم الجدار. كما كنت أقول، كان ذلك كله بسببي، لأنه تم توقيفي، طمأنتني العجوز تغادير: «كان لا بد أن يحصل ذلك يوماً. مضى زمن طويل دون أن تدفع مدام جميلة الأجرة، وكذلك التجار. كان منزل الجميع، ولا بد أن الأمر كان سينتهي كذلك.» خف ألمي، لكن في ذات الوقت كنت أعتقد أن ذلك كله كان بسبب خبث زُهرة التي تمّ كل شيء بتدبير منها، لقد كانت شيطاني.

سألت تغادير وأنا أنظر إلى ساقها: «ما بك؟»

هزت كتفيها كم لو أنها ملت السؤال.

«لا شيء، لقد قرصني عنكبوت كما أعتقد.»

لكن فيما بعد أخبرتني حورية بالحقيقة: كانت تغادير مصابة بالسكري. فحص طبيب في المشفى ساقها وأخبر حورية: «إنها مريضة جداً، أصيبت ساقها بالغرغرينا، وينبغي قطعها.» لكن حورية لم ترد أن تخبرها «إنها لا تزال تعتقد أنها قرصة عنكبوت، إنها تضع كمادات من العشب، وحالها أفضل، غير أنها لم تعد تشعر بالألم لأن ساقها تموت.» كان شيئاً مفزعاً، لكن من جهة أخرى ربما من الأفضل أن لا تعرف حقيقة مرضها.

لم تكن الحياة في دوار تبريكة سهلة، لاسيما لي، حيث أني لم أعرف الفقر أبداً. حتى حين كنت عند زُهرة كنت أكل كل يوم، وكان لدي الماء

والكهرباء. هنا في تبريكة، كان هناك جوع طوال الوقت، حتى أبسط الأشياء كانت مفقودة، مثل القدرة على الاغتسال يومياً، أو وجود الحطب لغلي الماء من أجل الشاي. كان الأطفال يبيعون الحطب الذي يحملونه من بعيد، من الطرف الآخر من الطريق والتلال. وثمة فتيات بأسمال رثة يحملن حزماً من الحطب أكبر منهن مربوطة بحبل على ظهورهن.

مع ذلك، كان منزلنا بعيداً عن أن يكون الأكثر فقراً. كانت تغادير فخورة بذلك، لأن ابنها عيسى هو الذي بناه لوحده، حيث حمل أحجار الطوب حجراً وراء حجر. كان عيسى بناءاً يعمل في ألمانيا. وضعت تغادير صورته في الصالة، صورة كبيرة لطختها بعض البقع. كان يشبهها، حتى أن له ذات العينين النجلاوين، مثل صيني.

كانت تغادير هي التي اختارت اللون الأخضر لطلاء المنزل، فقد كان لونها المفضل. طلت به أصص الزهور التي زرعت بها النعناع والمريمية، وأيضاً الكراسي والطاولة الواطئة، حتى أنها عثرت على إبريق شاي إنكليزي فيروزي اللون له مقبض من ساق أسل الهند ورأس غطاء مستدير مثل حبة بازلاء صغيرة.

كان المنزل كبيراً يتسع للجميع، فيه باحة ترابية وبناء صغير ملحق بالمطبخ وغرفة لتغادير وصالة كنت أنام فيها مع حورية على الوسائد المفروشة في الأرض. كان هناك أيضاً غرفة لعيسى مع سريره وخزانته، جاهزة في حال عودته دون سابق إنذار. وقد أصلحت تغادير الحمام المبني من الألواح الخشبية بجانب المطبخ. كان بالإمكان في هذا الحمام سكب الماء من دلو من التوتياء إلى حوض بلاستيكي حيث يستعمل الماء ثانية من أجل غسيل الشراشف وقطع

الغسيل الكبيرة. كنت أنا وحورية نذهب لملئ الدلو من صنبور الشارع، وكانت إحدانا تسكب الماء للأخرى ، كلّ واحدة بدورها، فيما صوتنا يعلو بصرخات كبيرة. لم يكن هناك حمام عام في الدوار، كان الناس فقراء جداً والماء نادراً جداً ولكن مع حمام تغادير ودلوها التوتيائي كنا نعيش حياة مرفهة.

لم تعد تغادير تعمل منذ أن بدأ الألم في ساقها. فيما استأنفت حورية عملها، حيث كانت تقوم بأعمال الخياطة والكوي لمصبغة تقدم خدماتها للفنادق. كانت تذهب كل صباح في السادسة، وتركب العبارة للوصول إلى المدينة. كنت أطلب من حورية: «ابحثي لي عن عمل.» كانت تهز رأسها. «لا ينفع ذلك لك، ينبغي أن تقومي بعمل شيء آخر.» اشترت لي كتباً بالفرنسية والإسبانية والإنكليزية، ودفاتر. كانت تغادير متفقة معها. «لا ينبغي أن تصبحي مثلنا، ينبغي أن تكوني امرأة مهمة، كأن تكوني طالبة أو طبيبة. وليس خادمة مثلنا.» لم أكن أعلم لماذا كانتا تقولان ذلك. كانت المرة الأولى التي لا يريد أحد فيها أن أتزوج. المرة الأولى التي يرى بها أحدٌ فيّ شيئاً مختلفاً غير الخادمة. خادمة لا تنفع لشيء. فقط خادمة تطهو الطعام لزوجها. أثر ذلك فيّ فانهمرت دموعي ، إنهن حقاً أميرات طيبات، عانقتهن في تلك اللحظة.

غير أني لم أكن أستطيع البقاء في المنزل للدراسة. إن ذلك أكثر مما أحتمل. لذا كنت آخذ كتبي مربوطة بمطاطة بلاستيكية، مثل الأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة، وأبحث عن مكان للقراءة بهدوء.

في البداية، بما أنه كان شهر تشرين الأول اللطيف، كنت أذهب إلى المقبرة الكبيرة الواقعة فوق البحر، هناك حيث يمكن رؤية الأفق، وأمضي الصباح في القراءة بين القبور. في بعض الأحيان، كانت الطيور ترفرف

أمامي مع الريح. أو كانت السناجب الصهباء تخرج من القبور وتنظر إلي بوقاحة. غير أني لم أكن أشعر أني بأمان، منذ ما حصل لي مع العجوز ابن الكلب. كنت خائفة بأنه قد يخبر الشرطة انتقاماً. لذا بحثت عن مكان آخر، فوجدت مكتبة الحي العامة، بجانب متحف الآثار. كانت مكتبة صغيرة، مع بضع طاولات كبيرة فقط للقراءة وكراسٍ قديمة ثقيلة جداً. كانت مفتوحة كلّ الأيام ما عدا الأحد. لم يكن بها أحد باستثناء الأوقات التي يحضر بها طلبة الثانوية للقيام بوظائفهم عقب خروجهم من المدرسة. خلال هذه الأشهر استطعت قراءة كلّ الكتب التي وددت قراءتها، دون منهج محدد أو ترتيب معين، كنت أقرأ على هواي. قرأت كتباً في الجغرافية والحيوان والرواية ولا سيما نانا وجيرمينال لزولا Zola، ومدام بوفاري وثلاث حكايات لفلوبير Flaubert، والبؤساء لفيكتور هيجو Victor Hugo ، وحياة لموبسان Maupassant، والغريب والطاعون لكامي Camus، آخر الشرفاء لشوارزبارت Schwarzbart، وواجب العنف ليامبو أولوغام Yambo Ouologuem، وطفل الرمال لبن جلون، وصديقي بيرو لكونو Queneau، وعشيرة مورمبير لإكزبرايا Exbrayat ، وجزيرة النوارس لباشلري Bachellerie، والعشوائية لفانسانو Vincenot، و الموراقي لسندار Cendrars. كما قرأت أيضاً ترجمات، كوخ العم توم، ولادة جالنا، قال لي اصبعي الصغير، القديسون الأبرياء، والحب الأول لتورغنيف. الذي أحببته كثيراً. كان الجو حاراً في الخارج، فيما كانت المكتبة مكاناً هادئاً ورطباً، كان لدي شعور أن لا أحد سيجيء ليبحث عني فيها. في المكتبة تعرفت على السيد رشدي الذي كان أستاذاً للفرنسية في إحدى الثانويات. حين أكون مرهقة من القراءة، كنت أخرج إلى خارج المكتبة وأجلس على جدار واطئ، في الحديقة الصغيرة المغبرة، فيما كان السيد رشدي يجيء ليدخن

سيجارة وليثرثر. لم يطلب مني شيئاً، ولكني كنت أظن أنه كان متحيراً في رؤيته لي وأنا أقرأ هذا الكم من الكتب. قدم لي بعض الإرشادات عما يجب أن أقرأه أولاً، وكلمني عن الكتاب الكبار مثل فولتير وديدرو، وأيضاً عن كتاب من عصر أحدث مثل كوليت ورامبو الذي كنت أجد شعره جميلاً دون أن أفهمه. كان السيد رشدي فقيراً، ولكنه أنيق ببذة كستنائية مكوية دائماً بشكل جيد، وقميص أبيض وربطة عنق زرقاء داكنة. كان يدخن كثيراً، اصفرّ شارباه الرماديان من التبغ، غير أني أحببت طريقته في إمساك السيجارة، بين الإبهام والسبابة، كما لو أنه يظهر شيئاً ما بحرص.

حين يخفت الضوء، كنت أعود إلى دوار تبريكة. فيما كانت العبارة تنزلق على الماء الباهت لمصب النهر، كان رأسي يضج بالكلمات التي قرأتها، بالشخصيات والمغامرات التي عشتها. أمشي فيما بعد في شوارع مدينة الصفيح، كما لو أني قادمة من عالم آخر. تكون تغادير قد أعدت الحساء والتمر الصلب والجاف مثل السكر المصفى، وخبزت الخبز المستدير في فرنها الأجري المغلق بقطعة من الصفيح المعدني، كان يبدو لي أني لم أكل أبداً شيئاً أطيب من ذلك، وأنه لم أعش حياة غير مبالية كهذه الحياة. نسيت زُهرة وكل ما حصل لي من قبل.

لم تكن حورية تصل إلى المنزل إلا في الليل، متعبة وجنتاها محروقتان من بخار المكاوي، عيناها حمروان من تعبها طوال النهار. تشتكي قليلاً، ثم تشرب عدداً من كؤوس الشاي، وتستلقي دون أن تنام. كنا نتحدث في الليل، كما في الماضي، أيام الفندق. كنت أنا التي أتكلم وحدي، لأنني لم أكن أسمع ما كانت تقوله لي، وكنت لا أستطيع أن أقرأ الشفاه.

من وقت لآخر، كانت تخرج مساء السبت. تحضر سيارة لاصطحابها. إلا أنها لم ترد أن يعرف أصدقاؤها أين تسكن، فكانت تنتظر عند شجرة أكاسيا هزيلة، في مدخل الدوار. كانت السيارة تحملها في غيمة من الغبار، متبوعةً بصبية يرمونها بالحجارة.

ذات مساء، فيما كانت تغادير مشغولة في الخارج. همست حورية في أذني السليمة بما كانت تنوي فعله: حين يصبح معها ما يكفي من النقود، ستأخذ السفينة وتذهب إلى إسبانيا، ومن هناك إلى فرنسا. أرتني ما ادخرته، حزمة من الدولارات ملفوفة ومشدودة بمطاطة بلاستيكية، تخبئها في محفظة تحت الوسائد. قالت لي أنه لم يعد ينقصها إلا القليل من النقود لدفع قيمة الرحلة للمهرب. كانت تتكلم بصوت خفيض، متهيجة كما لو أنها قد شربت الكحول. كان قلبي منقبضاً حين رأيت كل هذه النقود، لأن ذلك كان يعني أن حورية سترحل قريباً.

«ما بك؟» كنت أثيرها، لأني كنت أتجهم، كما لو أني سأبكي. «إن كنت ستغادرين، ماذا سيحل بي؟ لا أريد البقاء هنا مع تغادير.» ضمتني إليها، محاولة تعزيتي ببعض الكلام الجميل، غير أني كنت أشعر بأنها قد قررت كل شيء. من الآن لم يعد قلبها معنا.

كانت واثقة من نفسها، بهيئتها الطفولية. كانت رقيقة، بيديها الصغيرتين ووجهها ذي الجبهة المحدبة الذي احتفظ بتعابير عناد الطفولة. قررت الهرب من كل شيء، من هذه الشوارع المغبرة، وهذا الطريق الذي يهدر بالشاحنات، سقوف الفيبر، حيث يبعث المطر صوت انهيار ما، حيث تحرقكم الشمس مثل قطعة حديد حمراء. الجدران التي تنبعث منها رائحة العفن، الآبار ذات الماء الأسود، اللاذع، الأطفال العراة الذين يركضون بين أكوام القمامة، الفتيات

ذوات الوجوه الملطخة بالسواد، المنحنيات تحت حزم الحطب مثل عجائز. كلّ ما يذكرها بطفولتها، بؤس الريف، حيث ماء الشرب له طعم الفقر. وأكثر ما تريد الهرب منه، هو حفلات رجال المجتمع الراقي في سيارات الليموزين السوداء ذات الزجاج الملون، حيث ينبغي أن تضحك وأن تكون سعيدة ومسرورة، لأن البؤس لا يرضي أحداً. تريد الهرب دائماً من المبعوثين الذي يرسلهم هذا الرجل القاسي، الذي ظن أنه حين تزوجها أصبح له الحق في جسدها، وفي تعذيبها.

ذات مساء، عادت ثملة بنظرة تائهة مثل معتوهة... أخافتني. وعلى ضوء الكيروسين، رأيتها تفتش في وسادتها، تعد حزم الدولارات. لاحظت أني لم أكن نائمة، وأني أنظر إليها. اقتربت مني: «لن تمنعيني من الرحيل، لا أنت ولا أي أحد آخر!» حدقت بها دون أن أقول شيئاً. «سأقتلك، سأقتلك إن حاولت، سأقتل نفسي إن كان ينبغي أن أبقى هنا.» قالت ذلك، فيما كانت تضع على رقبتها السكين الصغيرة التي تحملها دائماً كي تدافع عن نفسها ضد القوادين.

لم تتكلم ثانية عن ذلك، وأنا أيضاً لم أقل لها شيئاً. كنت متأكدة من رحيلها، ومن أنها التقت مهرباً. مما بعث فيّ فكرة الرحيل، أنا أيضاً. العبور، الذهاب إلى الطرف الآخر من البحر، إلى إسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا بلّ أميركا.

غير أني لم أكن مستعدة. إن رحلت، سيكون ذلك للأبد، دون عودة. فكرت ليلاً ونهاراً في ذلك. كنت أمشي في حارات دوار تبريكة، دون أن أعود فيها. كنت أتجاوز الحفر وبرك الطين، أتجنب مجموعات الأطفال، حيث كنت أملأ البيدونات البلاستيكية من الحنفية في آخر الشارع الرئيسي، غير أني كنت أقوم بذلك كما لو أني في حُلم.

بدأت بقراءة الأطالس، لأعرف الطرق وأسماء المدن، والموانئ. انتسبت إلى دروس الإنكليزية في القسم الثقافي الأمريكي، والألمانية في معهد غوته. بالطبع كان ينبغي أن أدفع الرسوم وأن أحصل على كل أنواع الموافقات والمراجع. غير أني ارتديت ثوبي الأزرق ذي القبة البيضاء، الذي طولته قليلاً، وغيرت مواضع أزراره. شددت شعري الكث الأصهب بعصبة بيضاء ملائمة، ورويت لهم حكايتي، بأني يتيمة، دون نقود، وأني صماء قليلاً من إذن واحدة، وأني مستعدة لأي شيء كي أتعلم، لأسافر، كي أحقق ذاتي. أنه بإمكاني أن أدفع بالقيام بأعمال التنظيف، أو بكتابة المغلفات أو بتصنيف الكتب في المكتبة، أو أي شيء آخر. في القسم الثقافي الأمريكي، استحسنتني السكرتيرة، سيدة سوداء ميسورة. حين دخلت عليها للمرة الأولى، صرخت: «يا إلهي، أحب شعرك!» مررت يدها على خصل شعري الواقفة المندفعة من وراء العصبة المطاطية، وقامت بتسجيلي دون أن تطلب مني شيئاً آخر.

عند الألمان، كان هناك السيد جورج شون، شاب طويل نحيف، مع قليل من الشعر الأشقر والمجعد، ونظرة مكفهرة جادة وحزينة. سرّ مني وألحقني بصفه على سبيل التجربة. سردت جيداً قائمة الكلمات والتصاريف. قمت بذلك بصوت واضح، كما لو أنني أفهم ما أقوله، كما لو أنه شعرٌ. قال السيد شون أن ذاكرتي خارقة، ربما بسبب أذني المعطوبة.

في المساء، كنت أصطحب الدروس إلى منزل تغادير، وأقرأ على ضوء شمعة، أقوم بوظائفي. ذات يوم أمام الصف. عرض السيد شون ورقتي. حيث ظهرت بقعة كبيرة في أسفلها.

«ما هذا؟ هل كنت تأكلين وأنت تعملين؟»

ضحك الطلبة الآخرون.

«لا يا سيدي. إنها بقعة شمع.»

لم يفهم السيد شون.

« بما أنه لا توجد كهرباء عندي، فإني أدرس على ضوء الشمع. أتريد أن أعيد نسخ كل شيء؟»

نظر إلي حائراً.

«لا، لا هذا جيد.»

بعد هذه الحادثة، أصبح غريباً بعض الشيء. كان ينظر إلي كما لو أنه لا يزال يفكر في تلك البقعة من الشمع على ورقتي. لم أستطع أن أفهم ما الذي يعكره. غالباً ما كان يبقيني بعد الصف، ويطرح عليّ أسئلة عن المكان الذي أعيش فيه والناس الذين يعيشون هناك. لم أدر ما الذي يريد الوصول إليه. كنت خائفة من أن يشي بي إلى الشرطة. كانت نظرته غريبة وحزينة دائماً، وحين يكلمني يمسك يديه، ويلاعب أصابعه. كان يذكرني بالسيد دلاهاي، لكنه أكثر لطفاً ووداعة. كان له ذات الطريقة في النظر، قليلاً من الجنب، فيما أهدابه تطرف. قال بأنه سيحصل على منحة لي كي أدرس في ألمانيا في دوسلدوف، مدينته، أراد أن ألقاه هناك. كان يقول بأني سأقوم بالتأكيد بعمل أشياء كبيرة. سأصبح شهيرة وغنية، وستكون صوري في كل الصحف.

كان السيد رشدي يعرف كل شيء، لم أعد أذهب كثيراً إلى المكتبة بسبب دروس الألمانية والإنكليزية، إلا أنه يكون هناك حين أذهب. يقرأ كتبه الفلسفية، في آخر الصالة. ويخرج بعد برهة ليدخن سيجارته، فأنضم إليه في

الحديقة الصغيرة. حين كلمته عن السيد شون، هز كتفيه: «إنه يحبك، هذا كل شيء.» اعتبرني قاسية بعض الشيء: «وأنت يا آنسة أتحبينه؟» دفعني سؤاله إلى الضحك. «أنت التي ينبغي أن تقرري. أنت شابة والحياة أمامك.» ومن ثم أوصاني بقراءة ضمير زينو لإيتالو سفيفو Italo Svevo، وقال بأسلوب ملغز: «الذي لم يقرأ هذا الكتاب، لم يقرأ شيئاً». بعد ذلك قرأ لي شعر شحادة وأدونيس. ولأستثيره، ذات يوم قلت له: «إني أعتقد حقاً أني سأتزوج من السيد شون.» فجأة بدا مرهقاً، وقال: «لا أنصحك بذلك.» يا لغروري.. كنت متأكدة من أن السيد رشدي مغرم بي، واستمتعت لرؤية وجهه الذي تغير حين كلمته عن زواجي.

استمرت حياتي الطلابية ستة أشهر من النشاط إلى أن جاء الربيع، فقد قررت عدم الذهاب إلى المعهد. كانت هناك بعض الصعوبات في المنزل، كانت تغادير تتشاجر طيلة الوقت مع حورية، كانت تتهمها باستغلالها وعدم إعطائها النقود، بل واتهمتها بسرقتها. غضبت حورية، وتفوهت بشتائم كبيرة، وخرجت من المنزل صافقة الباب، واختفت لليالٍ كاملة، كنت أبقى بلا نوم أترقب، كما لو أني سأستطيع سماع صوت أقدامها في الشوارع.

ومن ثم كان ما حصل في صالة الصف عصر ذات يوم. بقيت كعادتي، بعد الدرس أراجع التصريف اللغوي، ولاسيما أن السماء كانت تمطر. كان السيد شون واقفاً خلفي ينظر إلى أعلى كتفي، حيث كنت قد ارتديت ثوباً أسوداً يكشف الظهر، أعارتني إياه حورية. كانت المرة الأولى التي أرتدي فيها هذا الثوب، حيث كان الربيع قد حلّ، وقد مللت من لبس التريكو والمعاطف. فجأة انحنى السيد شون وقبل عنقي بسرعة، فقط للحظة. كان ذلك

سريعاً بحيث أنه لم يكن لدي الوقت لإدراك ذلك. كان يمكن أن يكون ذلك مجرد ذبابة حطت على عنقي وغادرت. غير أني رأيت السيد شون خلفي محمراً ولاهثاً كما لو أنه كان يركض. أما أنا فقد تصرفت كأنه لم يكن هناك شيء. وجدت في ذلك مفارقة مضحكة وغريبة، فهذا الرجل الحزين جداً والبارد جداً يتصرف فجأة مثل صبي صغير.

تراجع وأصبح شاحباً وأكثر حزناً. نظر إلي من بعيد عبر قزحيتيه الرماديتين، كما لو أني كنت شيطاناً. لم أعرف ما الذي تمتم به، لم أسمع الكلمات. لكنني أدركت ضرورة مغادرتي في الحال. كان شيئاً لا يصدق، هذا الرجل الطويل جداً، والمهم جداً، أستاذ اللغة الألمانية في جامعة دوسلدوف، ترك نفسه يقبل عنق شابة صغيرة سوداء من دوار تبريكة.

جمعت دفاتري وكتبي، وهربت تحت المطر الناعم المتساقط على ظهري عبر ثوبي المكشوف الذي استثار السيد شون.

بعد أيام، التقيت صدفةً بألين بوسونترو طالبة اللغة الألمانية حين كنت أتنزه بالقرب من باب الريح. قالت لي أن السيد شون يأسف جداً لأني تركت، وأنه يأمل بعودتي، وأني على قائمة الطلبة الذي يضغط من أجل الحصول على منح دراسية لهم في ألمانيا. لم أعرف لماذا روت هذه الفتاة لي ذلك. ربما كانت تخرج مع السيد شون، وأسر لها. كانت تبدو لطيفة وساذجة ولا أستطيع التصديق بأنه قد روى لها ما قد حدث.

قلت نعم بالتأكيد سأعود بأسرع ما يمكن، إلا أني في هذا الوقت مشغولة جداً. كنت أريد التخلص منها، وأنا أنظر إلى كل الجهات، قلت لنفسي إذا تابعت الوقوف، فإن شرطة زهرة ستأتي لتوقفني. قرأت ألين شيئاً ما في

نظرتي... الحذر والخوف. مالت نحوي قائلة: «ليلى هل لديك مشاكل؟» كانت ابنة تاجر فرنسي كبير، لديه احتكار الدراجات الصينية في أفريقيا. هل كان بإمكانها أن تفهم شيئاً ما من حياتي؟ كنت خائفة من أن يلاحظني أحد ما بسببها: فتاة شقراء وأنيقة جداً. قلت لا، لا كل شيء على ما يرام، ثم هربت، وضعت بين الجموع، وقمت بدورة طويلة كي أصل إلى المعبر.

بعد ذلك الحادث، توقفت عن العبور. كنت أشعر بالأمن في هذه الضفة من النهر. توقفت عن كلّ الدروس، وهجرت مكتبة المتحف والسيد رشدي. لم أتجرأ على الخروج من دوار تبريكة لأسابيع. بقيت في منزل تغادير، في الباحة الصغيرة، تحت الإفريز البلاستيكي، أسمع صوت المطر على سقف الفيبر ومشاهدة الماء وهو يملأ الأواني.

كان وقتاً طويلاً حزيناً. كانت حورية تنتظر طفلاً، ولهذا السبب تشاجرت مع تغادير. لم أسأل عن شيء، غير أني كنت أظن أن ذلك بسبب عشيقها الذي يأتي لاصطحابها بالسيارة. ازدادت حالة تغادير سوءاً، أصبحت تتألم من أعلى الفخذ ليل نهار، أصبحت غددها اللمفاوية قاسية وسوداء مثل حبات الزيتون. فيما كانت ساقها رمادية ومنتفخة، ولم تعد تشعر بها كما لو أنها ساق خشبية. كانت تمضي النهار جالسة على كرسي تنظر إلى ساقها تلعن العنكبوت الذي قرصها. كانت أيضاً تتهم الفتيات الأخريات، سليمة وفاطمة وعائشة بسبب مشاجراتهم القديمة. كانت تقول أنهن كن كلهن ساحرات، يستخدمن السحر للأذى. ذات الكلمة التي كانت تقولها أيام زمان: ساحرة. كانت تهذي، تدعي أنهن وضعن شوكة في حذائها. توقعت أنه عاجلاً أم آجلاً سأكون أنا المتهمة.

للمرة الأولى، كانت لدي الرغبة بالرحيل، بعيداً جداً. من أجل البحث عن أمي وقبيلتي، وبلاد هلال، خلف الجبال. غير أني لم أكن مستعدة. ربما كلّ ذلك لا وجود له، ربما اخترعته وأنا أشاهد أقراطي.

تلك الليلة، شددت نفسي إلى حورية، وضعت أذني على بطنها، كما لو أني سأسمع دقات قلب الطفل.

«متى سنغادر؟» سألت.

لم تجب، غير أني أدركت بيدي أنها كانت تبكي، أو أنها كانت تضحك دون صوت. بعد قليل، قالت في أذني: «عما قريب، عما قريب، حين يكون هناك مقعدان في السفينة المتجهة إلى مالغا.»

الآن أصبحنا متواطئتين معاً. في العصر، حين ترتاح تغادير في غرفتها، بدلاً من الاهتمام بمشاغلنا المنزلية نتحادث خفية. كانت حورية تسرد أسماء المدن التي سنذهب إليها، والناس الذين سنراهم. أما أنا فلم أكن أعرف إلا أسماء الكتاب والمغنين. ذكرت أمامها: خوسيه كابنيس، كلود سيمون، وأيضاً سيرج غنسبورغ، بسبب أغنيته إليزا. قالت حورية: «إذا أردت يمكننا أن نراهم أيضاً.» كانت تظن أنهم أناس مثلها ومثلي، أناس يمكننا رؤيتهم.

كانت تغادير تخرج من غرفتها وهي تعرج. تشتمنا. فهمت بأننا سنرحل. كانت تصرخ: «أذهبا أينما تريدان! إلى فرنسا، وأمريكا إلى الشيطان إن كنتما تريدان ذلك! ولكن لا تعودا إلى هنا!»

اشتريت من مدخراتي جهاز راديو من سوق التهريب، بالقرب من النهر. جهاز صغير أسود لا بد أنه كان لدهان فقد كان مبقعاً بدهان أبيض.

كانت ماركة الجهاز *Realistic*. في المساء كنت أسمع من محطة طنجة جيمي هندريكس. كان يبث أيضا في نهاية العصر برنامج جيما، كنت أحب سماع صوتها، شابة، عذبة. متهكمة قليلاً. كنت أشعر أنها صديقتي، وأنها تشاركني حياتي. كان يخطر ببالي: «أريد أن أصبح مثلها.» سجلت في دفتري كلّ أسماء المغنين الذين تقدمهم، حاولت تدوين كلمات الأغاني بالإنكليزية، Foxy Lady. ياله من شعور غريب، فقد كان هذا الربيع ربيعي الأخير في أفريقيا. فيما كان المطر يهطل شلالاً على الإفريز البلاستيكي في الباحة الممتلئة بالأواني، كان يرن في أذني صوت جيما وموسيقى جهاز الراديو... نينا سيمون، بول ماكارتني، سيمون وغارفنكل، كات ستفنز الذي كان يغني Longer Boats، كل ذلك كان يبدو انتظاراً طويلاً جداً: حورية التي تنتظر أيضاً، تتمدد على وسائدها ويداها على بطنها. صارت تمشي مترنحة مثل بطة رغم أنه لم يمض بالكاد شهر على حملها. أما دوار تبريكة، حولنا، فبدا كما لو أنه ينتظر بلا نهاية شيئا لن يصل أبداً. أطفال متسخون يتيهون بين البرك وأصوات نساء يصرخن. في المساء، صوت آذان يصدح فوق النهر ويختلط بصوت النوارس العائدة من الصيد. وخلفنا في الليل المغبر الطريق حيث تتقدم الشاحنات مثل حشرات مؤذية.

ذات مساء، كانت تغادير تتألم أكثر. أرسلتني حورية لأتصل بابنها، كوني أعرف الألمانية. حين عدت، كانت تغادير قد غادرت إلى المشفى حيث ستُبتر ساقها. جرى ذلك بسرعة. في اليوم التالي عند نهاية العصر، استعددنا للرحيل. أوصلتنا شاحنة إلى مليلة، وفي الليل أصعدنا المهرب إلى السفينة المتجهة إلى مالغا.

عددنا النقود بعصبية، واحتفظت حورية بما يكفي لدفع أجرة المهرب ، وأعطتني الباقي، حزمة من ألفي دولار مشدودة بمطاطة. وبما أني كنت سأضعَ النقود في جيبي، قالت حورية لي: «ليس هنا! هكذا سيسرق كلّ شيء» أخذت واحد من حمالات نهديها، وضيقتها وحشت جيوب الحمالة بحزم النقد الملفوفة بالمناديل. وألبستني الحمالة. «الآن تبدين امرأة حقيقية! كلّ الرجال سيحاولون الإيقاع بك!» شعرت كما لو أني كنت أحمل كيسين ضخمين على صدري، كما لو أن الحمالة تنشر كتفيّ. «لن أقدر على ذلك أبداً. إني أتألم، سأضيع نقودك.» غضبت حورية: «توقفي عن التباكي، ينبغي أن تعتادي، أنت التي ينبغي أن تحتفظ بالنقود، لا توجد طريقة أخرى.»

قلت: «ربما ينبغي أن نذهب لرؤية تغادير في المشفى؟» حين كنت أفكر فيها كنت أشعر بالندم، كنت مستعدة للتراجع. غير أن نظرة حورية كانت قاسية، مصممة. كان لها ذات التعابير يوم وضعت السكين على رقبتها. «لا، سنطلب منها اللحاق بنا فيما بعد، في اللحظة التي يصير لنا فيها مكان.»

انتظرنا الشاحنة على طرف الطريق حتى الليل. والغبار يغطينا، وبدونا كمتسولتين.

عبرت الشاحنة أمامنا، وأبطأت من سيرها، وتوقفت على بعد قليل، كانت كلّ أضوائها مطفأة. كنت خائفة، غير أن حورية سحبتني بقسوة. نزل السائق. وأشار إلي سائلاً حورية: «هل هي راشدة؟» أجابت حورية: «ألم تر صدرها؟ هل أنت أعمى» أعتقد أنه كان مندهشاً من لوني. ظن أنني قادمة من السودان أو السنغال. أصعدتني حورية إلى خلف الشاحنة، وصعدت هي

بدورها. لم يكن معنا حقائب، كما هو متفق. فقط كيس لكل واحدة، مع بعض الأغطية وجهاز الراديو خاصتي.

وبما أن السائق لم ينطلق مباشرة، قالت حورية له: «ماذا تنتظر، cono؟» دمدم السائق بكلام نصفه إسباني ونصفه الآخر عربي. أخبرتني حورية: «هكذا هم في مليلة.»

وصلنا إلى الميناء نحو الساعة الرابعة صباحاً. عند عبور الجمارك، طرق السائق على البراد الخلفي ليشير لنا بأن نستلقي. كانت الشاحنة ممتلئة بصناديق كرتونية من البياضات، كتب عليها: BLANCO أبيض. كان ذلك مضحكاً لنا، نحن السمراوتان.

عبرت الشاحنة ببطء أمام نقطة الجمارك. رأيت عبر الزجاج الخلفي مصابيح صفراء ولج ضوؤها، ثم عاد الظلام ثانية. نهضت لألقي نظرة: كانت مدينة حديثة، بغيضة المنظر، ذات أبنية كبيرة مقامة على أوتاد فوق الماء. كانت السماء تمطر رذاذاً.

كان هناك الكثير من الناس على الرصيف ينتظرون القارب. لاسيما رجال وبعض النسوة ملتحفين معاطفهم، بدا عليهم سرعة التأثر بالبرد. لم يكن هناك أطفال.

جلسنا، أنا وحورية، مستندتين على جدران الميناء، هاربتين من رذاذ المطر الناعم. نامت حورية ورأسها على كتفي. كانت تنتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل، وفجأة لم تعد تستطيع مقاومة التعب. حاولت تشغيل جهاز الراديو، غير أن جيما لم تكن تتحدث في تلك الساعة. كان هناك صوت قرقعة جعلتني انتفض، كما لو أنه كان صوت حشرات من آخر العالم.

قبل مطلع الفجر، حذا القارب الرصيف. زورق كبير ذو جسر مغطى. بدأ الناس بالصعود، مسرعين للحصول على مقعد داخل حجرة القارب. صعدنا آخر الجميع وجلسنا على الجسر مستندتين على درابزين القارب.

كان المهرب يسير دون أن يقول شيئاً. يمد يده، وكل واحد يضع بقية النقود. يلتهم الأوراق النقدية بسرعة، ومن وقت لآخر كان يقول بصوته الأغن: Ok,OK. خلاف ذلك، لم يخطر ببال أحد الكلام. كان الجميع يستمع إلى اهتزازات المحرك، منتظرين اللحظة التي تزداد قوتها إيذاناً بمغادرة القارب.

بعد لحظات، كان كل شيء جاهزاً. أعاد البّحار رمي حبل المركب، وانزلق القارب ببطء نحو القناة مترنحاً مع الأمواج المضطربة.

وهكذا غادرنا راحلين دون أن نعرف إلى أين ومتى سنعود. كلّ ما عرفناه الرحيل والاختفاء. كنت أفكر بمنزل الملاحة، الصغير جداً بين منازل شاطئ النهر، حيث كان النهار يشرق عليه، وبدوار تبريكة والنساء المصطفات أمام حنفية الماء البارد. ربما سنموت هناك، في الطرف الآخر من البحر، ولن يعرف أحد هنا شيئاً.

-٦-

يمكنني أن أروي لكم ما جرى في بقية الرحلة حتى باريس.

أنا التي لم تخرج أبداً من محيطها، حيث أمضيت طفولتي في باحة منزل لالا أسما، وقد كانت أبعد نقطة وصلت إليها، فيما بعد، هي آخر الشارع الكبير في حي المحيط، وإلى سلا ودوار تبريكة بواسطة العبارة، ها أنا أسافر الآن بقارب كبير وسريع وأجتاز إسبانيا بسيارة حتى وادي آرن Valle de Aran (اسم لن أستطيع نسيانه أبداً) ومن ثم اجتاز الجبل المغطى بالثلوج مشياً على الأقدام، وأمد يدي إلى حورية التي كانت تلهث.

أترنح على الدروب الجبلية مع الآخرين، دون أن أعرف إلى أين نذهب، ودون أن أعرف أسماء من معي. كلّ شخص يسير لوحده. كان الدليل شاباً صغيراً يلبس بنطال جينز وحذاءً رياضياً، أسمر مثل الناس الذين يقودهم. بالرغم من التنبيه، كان البعض يحمل أمتعة، وحقائب أو كيس سفر ذي حمالات.

عبرنا الممر الجبلي عند هبوط الليل. كانت أعماق الأودية مفروشة بضباب حليبي، بدخان دون نار. قلت لحورية: «انظري، ها هي فرنسا، كمّ هي جميلة...» كانت شاحبة، يؤلمها بطنها. جاء الشاب، ونظر إليها،

وقال بالإسبانية: «أتنتظر طفلاً؟» قلت: «لا أعرف، إنها متعبة.» هز كتفيه. تركتهم حورية يتقدمون، كنت أشاهد المجموعة الصغيرة تهبط الدرب المتعرج. لا يتكلمون، ولا يصدرون أي صوت. كم كان جميلاً هذا الوادي المفتوح، نهر الضباب. خطر ببالي أنه حتى ولو متنا هنا، لن يكون لذلك أية أهمية، لأننا هنا، في أعلى الجبل، ولأننا رأينا هذا الوادي الواسع الذي يشبه بوابة.

لا أدري لماذا، وللمرة الأولى، فكرت ببلادي، كما لو أنها كانت هنا، في هذا الوادي، الذي سأرحل عنه بعيداً وأتركه خلفي. بقيت في الخلف، أتأخر. كنت مأخوذة بهذه العذوبة، بسبب الضباب والليل الذي يجيء. نفذ صبر حورية: «هيا، سنضيع.»

في أسفل الجبل، كانت المجموعة تنتظر، عند طرف غابة صغيرة. كنا نسمع صوت سيل يخبئه الليل. حين وصلت، توجه الإسباني إلي، كما لو أنه ينتظر مني أن أترجم للآخرين.

«سننام هنا، ليس بإمكانكم عمل أي ضجة، ولا إشعال النار ولا السجائر، مفهوم؟» رددت ما قاله بالعربية، ثم أضاف: «في الغد، ستأخذكم شاحنة إلى تولوز Toulouse، لإيصالكم إلى القطار الذي ستستقلونه.» وغادر دون انتظار أي جواب. ووجدنا أنفسنا وحيدين في الغابة.

أذكر تلك الليلة. بعد حرارة النهار حين تسلقنا الجبل، حلّ بردٌ فظيع، رطب، تسلل إلى العظام. حاولت أنا وحورية الاستلقاء بين أبر الصنوبر الميتة. غير أن البرد الذي كان يصعد من الأرض جعل أسناني

تصطك. لم يكن لدينا شيء، ولا حتى غطاء. بعد برهة، جلسنا كل واحدة منا تحضن الأخرى كي لا نشعر ببرد الأرض. وكي لا ننام، بدأنا نروي حكايات، أي شيء، ما كان يحدث في الفندق، نغتاب الآخرين، نتّم، نخترع نكتاً وطرائف. لم أعد أذكر ما قلناه، فقط أننا كنا نتكلم الواحدة تلو الأخرى، بالوشوشة والضحك، في بعض الأحيان كنا ننسى أنفسنا، فيشير لنا الآخرون: «سكوت! سكوت!»

لم ينم الآخرون أيضاً. تحت الضوء الخفيف للسماء المليئة بالنجوم، رأيت أنهم قد نهضوا واستندوا على الأشجار. من وقت لآخر كنا نسمع صوت خطوات بين إبر الصنوبر، أحدهم يقرفص كي يبول.

استطعنا النوم في الشاحنة التي حملتنا إلى تولوز. عند مطلع الفجر، كانت الشاحنة على الطريق، في طرف الغابة. أرشدنا الإسباني إليها، ثم اتجه نحو الجبل، دون أن ينظر إلينا أو دون أن يشير بإشارة وداع. في الشاحنة نمت على كتف شاب جزائري، عبد. من شدة تعبي كنت سأنام وأنا ماشية. كان الطريق يلف ويلف. من فتحة الغطاء، رأيت لبرهة أعالي الصنوبر الأسود، طرقات القرى، جسر... وصلنا إلى محطة تولوز، صالة كبيرة ذات سقف عال، الأرصفة حيث ينتظر الناس قطار باريس. أعطانا السائق البطاقات والتعليمات: «لا تبقوا معاً، ليذهب كلٌ منكم إلى جهة، لا تلفتوا الأنظار.» أخذت يد حورية وسحبتها إلى آخر الرصيف، حيث السقف الزجاجي الذي يسمح بمرور الشمس. جعلتني رؤية السماء الزرقاء أشعر بالتحسن. أكلنا، ونحن جالستان على المقعد، ما تبقى من خبز تغادير، مع التمر. حاولنا عبثاً كل ما نستطيع

كي لا نجلب الانتباه، فقد كان الناس ينظرون إلينا. أستطيع القول أننا لم نكن نبدو مثل سائر الناس، حورية بثوبها الطويل الأزرق وإيشاربها الأبيضَ، أما أنا ببشرتي السوداء وشعري المنكوش بسبب النعاس. كنا حقاً متوحشتين.

حتى أن صبياً صغيراً جاء ووقف أمامنا ليتفرس بوجهينا جيداً وبوقاحة. أحنت حورية رأسها، أما أنا فقد تملكني الغضب، قلت له: «ماذا تريد؟» وبما أنه لم يرحل، تظاهرت بأني أمشي نحوه فرحل: كان هناك على أرصفة المحطة أناس ذوي شكل غريب مثلنا. رجال ونساء ببشرة داكنة، وبشعر أسود. يلبسون بشكل سيء، ويتكلمون لغة غريبة مع كلمات إسبانية. همست حورية لي : «إنهم الغجر، يسافرون طيلة الوقت، وليس لهم بيوت.» لم أرهم من قبل. كانوا فقراء ذوي نظرة متعجرفة. كان أحدهم شاباً ذا وجه حاد ثبت عينيه عليّ، كما لو أنه لا يستطيع تحويل نظرته، وللمرة الأولى منذ زمن طويل شعرت قلبي يخفق من الخشية والخوف أو شيء شبيه بذلك. شدت حورية ذراعي: «لا ينبغي أن تنظري إليه، سيسبب لنا مشاكل.» اقترب الغجري منا: «من أين أنتم؟ هل تذهبون إلى باريس.» تلمع أسنانه البيضاء في وجهه الداكن، يقف بتخلع مثل سوقي. سحبتني حورية إلى الطرف الآخر من الرصيف، ورددت: «أنت مجنونة يا ليلى، مجنونة، إنه خطر.» فيما بعد وصل القطار، وازدحم الناس حول الأبواب التي أغلقت علينا. وجدنا مكاناً في مقصورة فارغة. وسار القطار في طريقه بطيئاً ومغادراً المحطة. كنت أنظر إلى البيوت التي تختفي خلفنا، وأفكر في كلّ ما تركته، الشوارع الصاخبة

والمنازل الصغيرة المتكومة في تبريكة أو في باحة منزل لالا أسمى، في الفندق والتجار الذين كانوا يملؤون سابقاً الغرف والأروقة وبضائعهم وأكياس الفاكهة المجففة. فكرت أنني ربما أعود يوما ما ولن يبقى شيء من ذكرياتي. كان قلبي مقبوضاً، تساورني رغبة في البكاء، وأنا أفكر في تغادير في غرفتها في المشفى، وساقها المقطوعة، بدا لي وأنا أغادر كما لو أني أضعت آخر فرد من عائلتي. نامت حورية مقابلي على المقعد مستندة على كيسها. لبرهة، أضاء ضوء الشمس وجهها وعيونها المغلقة بأهدابها الطويلة، وفمها حيث تلمع قواطعها البيض.

ذهبت إلى الممر كي أدخن سيجارة. بدأت بالتدخين على القارب، لأن السجائر الأمريكية تباع في مليلة دون ضريبة. أحب التدخين في الخارج، وأن أنظر إلى الدخان الذي يشكل حلقات في الهواء. كنت خجلة من رؤية حورية لي وأنا أدخن، ومن أن تقول لي: «أتدخنين الآن؟»

كان القطار طويلاً، لم يكن هناك الكثير من الناس في القاطرة. بدأت أصعد من عربة لأخرى، عابرة في الممرات المرنةَ التي تفصل القاطرات، وفجأة رأيت الغجري. لا بد أنه سيتبعني، لأنه كان وحيداً في آخر الممر. تصرفت كما لو أني لم أعرفه، وأردت العودة إلى مقصورتي. سدّ علي الطريق. كان طويلاً، وببشرة داكنة، وبحواجب سوداء جداً، تلتقي في وسط الجبهة . ابتسم وقال، كما أظن: «ما اسمك؟» كان له لهجة فرنسية غريبة، كما لو أنه من جنوب أمريكا. قال أيضاً: «أأنت خائفة مني؟» لم أحب أبداً المغرورين. قلت له: «ولماذا أخاف منك، من فضلك؟» وفي ذات الوقت عبرت تحت ذراعه، حيث أنزلت

جسدي مثل طفل. مشى خلفي. لم أرد أن يعرف أين حورية. توقفت في الممر بجانب الحمامات، وأشعلت سيجارة. ظل الغجري إلى جانبي ينظر إلي من نافذة الباب. كادت خضخضة القطار أن تسقطنا، والضجة القادمة من الممر المرنة كانت تصم الآذان، وهو يصرخ قال لي: «اسمي ألبونيكو! وأنت؟» طيّرت الريح شعره، كان له خصل طويلة تنسدل على وجهه. ومن نظرة واحدة، رأيت أن له سناً ذهبياً. لم يبد خطراً. أعطيته اسماً متخيلاً، ديزي، أظن أننا بدأنا نتكلم قليلاً. رغم كل شيء، كنا معاً في ذات القطار ذاهبين إلى باريس، ولقتل الوقت، كان الحديث أفضل من النظر عبر النافذة أو من قراءة مجلة. ولم أكن نعسانة. على نقيض ذلك شعرت بنفاذ الصبر، وبطاقة مفعمة. حدثني عن الموسيقى، مهنته، كان يعزف ويغني. في لحظة ما، قال لي: «انتظريني.» ذهب إلى مقدمة القطار وعاد مع غيتار. وضع قدمه على حافة الباب وبدأ يعزف. عزف موسيقا غريبة، كانت دندنات ممزوجة بصوت القطار، ومن ثم دندنات تتشظى، تتحدث بسرعة. لم أكن أبداً قد سمعت شيئاً مثل هذا، حتى على جهازي القديم. كان يعزف وفي ذات الوقت كان يتكلم ويغني، أو بالأحرى كان يتمتم كلمات بلغته أو همهمات.. هم هم، آه هم، هم، أشياء كهذه. ثم توقف. «أأعجبتك موسيقاي؟ ألحببتها؟» كان لا بد أن أرى العيون التي تلمع لأنه كان قد تابع. كان هناك أناس جاؤوا ليتفرجوا، أطفال يخرجون من آخر القاطرة. حتى أن المراقب ذا البذلة الزرقاء الداكنة والقبعة توقف للحظة، ومن ثم تابع سيره. توقف ألبونيكو للحظة، وقال بسرعة: «أترين؟ حين أعزف، لا يطلبون مني البطاقة» كما لو أنه

أحضر الغيتار لي لأجل ذلك. أما أنا فكان لدي رغبة بالرقص، أذكر في الأيام الأولى في الفندق حين كنت أرقص للأميرات، بقدمين عاريتين على الأرضية الباردة للغرف، فيما كن يغنين ويصفقن بأيديهن. كانت موسيقى الغجري مثل ذلك، دخلت فيّ، وأعطتني قوى جديدة.

جاءت حورية. كما تتوقعون، لم تكن مسرورة برؤيتي مع هذا الرفيق. قالت لي بالعربية، وأسنانها مشدودة: «تعالي! لا ينبغي لك أن تبقي مع هذا الرجل.» خرجت من المقصورة مع كيسينا وجهاز الراديو خاصتي، خوفاً من السرقة. بدت خرقاء بكنزتها الكستنائية وثوبها الأزرق الطويل والذي يعطيها حقاً شكل المرأة الحامل، مما أثر بي. كانت حقاً أسرتي الوحيدة، أختي. سحبتني من يدي والغجري ينظر إلينا ضاحكاً ونحن نرحل. كرهته لاستهزائه منا، من حورية. كان مغروراً! لم تكن حورية تخشى شيئاً سوى أن أضيع. استيقظت، وحيدة في المقصورة، كانت خائفة من أجلها هي. هي التي كانت ستضيع من دوني. ضممتها إلي، على المقعد كي تطمئن. «إنك في فرنسا الآن، إنك لا تخاطرين بشيء. لا أحد يستطيع أن يجدك.» كان لنا ذات الحالة، كان زوجها يبحث عنها، فيما أنا كانت كنة مخدومتي تبحث عني. وكل طرقة للقطار على سكة الحديد تبعدنا عن جلادينا، توسع البحر الذي يفصلنا عنهم.

كنت أنام بعمق حين وصل القطار إلى باريس. ظلت حورية مستيقظة، وكلمتني بهدوء: «استيقظي يا ليلى ها قد وصلنا.» كان الليل قد حلّ، وعبر الزجاج رأيت الأضواء الراقصة فيما القطار يهتز

مصرصراً على وصلات السكة الحديدية. كانت تمطر. حدقت في القطرات التي تسيل على الزجاج، دون أن أستطيع الحركة. لا بد أنني كنت تعبة جداً وحورية خائفة، غضبت: «ما بك؟ استيقظي، يجب أن ننزل.» لم أستطع التصديق بأن ذلك انتهى، وأننا وصلنا إلى آخر الرحلة. بالرغم من تعبي كنت سأدفع أي شيء من أجل أن يذهب القطار أبعد ولكي أعود إلى النوم بهدوء.

ها نحن في باريس، كنا نمشي تحت المطر وتحت مظلة حورية ، مع كيسينا وكيس برتقال وجهاز الراديو Realistic، على الرصيف وحول المحطة للبحث عن منامة، في شقة الآنسة ماير بشارع جان بوتون Jean-Bouton التي لم تعد اليوم موجودة كما أظن.

-٧-

في البدء.. كانت باريس رائعة. اركض في الشوارع، دون توقف. فيما تظل حورية حبيسة البناء، تقوم بالطبخ، وتراقب. كانت تخاف من كلّ شيء. كنت أقوم بالتسوق، وأذهب إلى كل الأمكنة، كما كنت أفعل أيام الفندق. أخرج صباحاً حوالي الساعة السابعة أو الثامنة، أحمل أكياساً بلاستيكية، اشتري البطاطا (كثيراً ما كنا نأكل البطاطا المسلوقة) الخبز والبندورة والحليب. أما اللحم فقد كان غالياً، ومن ثم فإن حورية لم تكن لديها ثقة باللحم، فقد كانت تخشى أن يكون اللحم لحم خنزير.

كان التوفير ضرورياً. كانت أجرة الغرفة تبلغ خمسمائة فرنك في الأسبوع، إضافة إلى الكهرباء. لم يكن هناك مدفأة. كان المطبخ مشتركاً لكلّ المستأجرين. كانوا كلهم سوداً تُسكنهم الآنسة ماير أربعة في كلّ غرفة. أما هي فقد كانت تسكن على قرص الدرج، تجيء في كلّ لحظة لتراقب ما يجري. بعد بضعة أيام تعرفت إلى ماري هيلين، فتاة من الغوادلوب تعمل في مشفى بوسيكو Boucicaut، وصديقها خوسيه، أنتيلي أيضاً، وإلى كلّ الأفارقة، نيمباي، مادي، أنطوان، نونو الذي كان أقصر مني، فاحم السواد، يمارس الملاكمة. أحببتهم، كانوا مسلين، يستمتعون بكلّ شيء يدعون المالكة، الآنسة ماير، «بالعجوز الشمطاء»، أو «بالشيبانة»

كما اسمتها فاطمة، الفتاة التي قطنت قبلنا في الغرفة. حين رأتنا الآنسة ماير، قالت: «من حيث المبدأ لا أوجر أبداً للعرب» غير أنها استثنتنا من ذلك، ربما بسبب لوني.

في الأيام الأولى، أحببت هذه المدينة. كانت تصيبني بالخوف، لأنها كانت كبيرة جداً، غير أنها كانت ملأى بأشياء رائعة، بأناس غير عاديين، هكذا كنت أراها.

في البدء، كانت الكلاب تثير استغرابي.

كانت في كلّ مكان.

كبيرة، ضخمة، صغيرة قصيرة، بوبر طويل جداً لا يعُرف رأسها من عنقها. وبر مجعد، كما لو أنها خرجت من عند الحلاق، وكلاب أخرى جزّ وبرها على هيئة الأسود والثيران والخرفان وعجول البحر. بعضها صغير جداً بحيث يظن أنها جرذان، ترتجف مثلها، كريهة مثلها. والبعض كبير مثل العجول أو الحمير، مع براطيل ملطخة وخدود حين تهز رأسها ترش كل شيء بلعابها. يعيش بعضها في شقق الأحياء الفخمة ويركب السيارات الأمريكية والإنكليزية والإيطالية. يخرج بعضها بين أذرع أصحابها، وكلها مزينة ومرتدية صداري صغيرة عليها أشكال مربعة. حتى أني شاهدت كلباً يتنزه في طرف رسن ربطته صاحبته بسيارتها.

لا أريد القول أنه لم تكن هناك كلاب عندنا. كان هناك منها الكثير، لكنها تتشابه جميعاً، لونها لون الغبار وعيونها صفراء، وبطنها غائر جداً كما لو أنها استطاعت أن تشده. هناك، تعلمت الاحتراس منها، حين كنت أرى كلباً

يقترب كثيراً، أو لا يبتعد بسرعة عن طريقي، كنت أختار حجراً مسنوناً وأرفع يدي فوق راسي، كان ذلك يكفي ليبتعد الحيوان. كنت أقوم بذلك دون أن أفكر فيه. تعودتُ على ذلك، لدرجة أنه في المرة الأولى، في حديقة النباتات، اقترب مني كلب كبير نحيف مربوط برسن طويل جداً، له زنبرك، ليشم كعبي. قمت بذات الحركة. لم يكن لدي حجر، لأنه في باريس لا يمكن العثور بسهولة على الحصى في الشوارع. نظر إلي الكلب مندهشاً، كما لو أني كنت ألعب بالكرة. غير أن صاحبته قد فهمت تصرفي، وشتمتني كما لو كنت سأرميها هي بالحجر.

فيما بعد، لم أتعود حقاً على ذلك، غير أني صرت لا أنتبه كثيراً للكلاب. كانت كلها مملوكة لأناس يربطونها برسن، ولذا لم تكن خطرة، سوى بسبب قاذوراتها، التي يمكن الانزلاق عليها بما يسبب كسور العظام.

بدت لي شوارع باريس بلا نهاية، كان بعضها حقاً بلا نهاية، شوارع كبيرة وأتوسترادات تضمحل في تدفق السيارات، التي تختفي بين الأبنية. بالنسبة لي، أنا التي لم تعرف سوى عالم الملاحة ومدينة الصفيح في تبريكة، أو الشوارع الصغيرة المحاطة بالياسمين في حي المحيط، كانت هذه المدينة ضخمة لا تنضب. حتى أني فكرت أنه لو أردت أن أسير في كلّ الشوارع، واحداً وراء الآخر، لن تكفي حياتي لفعل ذلك. وليس بإمكاني سوى رؤية جزء صغير وعدد محدود من الوجوه.

كانت الوجوه التي أشاهدها من جميع الأنواع، مثل الكلاب، سمينة، لمسنين وشباب، وجوه حادة، شاحبة، بلون الأرض البيضاء، وداكنه أكثر سواداً من وجهي، بعيون تبدو مضاءة من الداخل.

في الأيام الأولى، لم أكن أقف لأتفرس الوجوه، شعرت أن نظرتي يتم التقاطها وارتشافها من قبل نظرة الآخر، وبالتالي لا أستطيع أن أنفك منها. لذا جربت النظارات السوداء، كقناع، غير أن الشمس لم تكن كافية، ولم أحبَّ أن أضيّع أي تفصيل أو أي تعبير أو أي بريق نظرة.

جلب لي ذلك المشاكل بسرعة. فقد بدأ بعض الرجال الذين كنت أتفرس وجوههم يتبعوني. كانوا يظنون أني مومس، مهاجرة صغيرة من الضواحي تريد البحث عن الذهب وسط المدينة. كانوا يقتربون، دون أن يتجرؤوا مفاتحتي، فقد كانوا يخافون من مصيدة ما. ذات يوم، أخذني رجل مسن قليلاً من ذراعي.«أتريدين الصعود إلى سيارتي؟ إن صعدت سنذهب لشراء حلوى لذيذة.»

كان يشد ذراعي بقوة، كانت عيناه مثل عينا الرجل الذي سبب لي سابقاً المشاكل في المطعم مع حورية. كنت معتادة على ذلك، كما تعرفون جيداً. شتمته بالعربية أولاً، كلب، قواد، لعنت دين أمه! ومن ثم في الإسبانية: cono, pendejo, maricon! وهذا ما أدهشه كثيراً بحيث ترك ذراعي واستطعت الهرب.

بعذ ذلك، كنت أشعر بسرعة حين يتبعني رجل، كنت موهوبة بالتخلص منهم. غير أنه كان هناك أيضاً نساء يلحقن بي. كن أكثر مكراً، يرتبن الأمر لملاقاتي في مكان لا أستطيع الهرب منه، ممر محمي، أو في درج متحرك في مركز تجاري، أو في عربة مترو. كنّ يخفنني. طويلات، بيضاوات مع قلنسوة شعر سوداء، ستر جلدية، ربطات. لم أكن أستطع شتمهن. أذهب وقلبي يخفق، اجتاز الشارع بين السيارات، وأركض مضطربة.

ذات يوم، في حمامات مقهى، خفت كثيراً. كانت الحمامات عبارة عن صالة كبيرة تحت الأرض، فخمة، بمرآة ومصابيح صغيرة على الجدران. كنت أغسل يدي، وأمسح جبهتي كعادتي بقليل من الماء، ولكي أملس شعري الحرون. جاءت على يساري امرأة شابة، سمينة، بأنف كبير، وبوجنتين فيهما شقوق، وبشعر أشقر لفته على هيئة عقيصة. بدأت تقوم بمكياجها، نظرت إليها في المرآة لمرة أو مرتين وبسرعة، الوقت الذي يسمح برؤية أن عينيها زرقاوتين فيهما شيء من الخضرة. كانت تعلق لوناً أسود بريشة صغيرة.

فجأة اندلع غضبها، سمعت صوتها الذي يقول بلهجة غريبة شريرة رنانة، مثل صوت زُهرة حين كانت تغضب:«لماذا تنظرين إلي؟ مابي؟» استدرت نحوها. لم أكن أفهم ما الذي كانت تقوله.

«أجيبي، لماذا تنظرين إلي؟»

كانت عيناها جاحظتين، باهتتين بحيث أني كنت أرى البؤبؤ، بدا لي أنهما تنفتحان وتنغلقان مثل عيني قطة. تلعثمت: «إني لا أنظر إليك..» غير أنها تقدمت نحوي، ممتلئة بحنق بارد مخيف. «بلى، إنك تنظرين إلي، يا كاذبة، عيناك مسمرتان عليّ فيما أنا لم أكن أنظر إليك، شعرت بعينيك تأكلاني.» تراجعت إلى الطرف الآخر من الحمامات، فيما كانت تمشي نحوي. مسكتني من شعري، بملء يديها، وأمالت برأسي إلى المغسلة. ظننت أنها ستضربني، وأنها ستطرق رأسي بلوح المرمر. صحت. تركتني. «قذرة!..» أخذت حاجياتها. «لا تنظري إلي، اخفضي عينيك! قلت لك اخفضيهما! إن نظرت إليّ سأقتلك!» ثم خرجت. كنت خائفة جداً بحيث أني لم أستطع الوقوف على قدماي. كان قلبي يضرب في صدري، شعرت بالغثيان. لم أعد بعدها أبداً إلى الحمامات التحت أرضية.

كنت أتعلم حياتي الجديدة شيئاً فشيئا. فيما لم تكن حورية تستطيع متابعتي. أثقلها حملها، لم تعد تتحرك، ولم تعد تخرج من غرفتها إلا لتطبخ، حين لا تكون ماري هيلين هناك. كان الأنتيليين يخيفونها. كانت تقول بأنهم سحرة. غير أني أعتقد أنها كانت تقول ذلك لأنهم سود مثلي. كانت حورية تعد مدخراتها كلّ مساء. لم نغادر الملاحة إلا قبل ثلاثة شهور فيما المدخرات نقصت إلى النصف. على هذا النحو، لن يعود معنا شيء قبل الخريف.

كانت حورية تبدو غارقة، وكنت أسليها بقدر ما أستطيع. أعانقها قائلة لها: «ستتحسن الأحوال، سترين ذلك.» وعدتها بآلاف الأشياء، بأننا سنجد عملاً وشقة جميلة على ضفة قنال أورك، وبأننا سنستطيع أن نعيش حياة عادية بعيدة عن بناية الآنسة ماير القذرة.

كانت ماري هيلين هي التي أنقذتنا. حين لم يعد معنا شيء لدفع الأجرة، في نهاية الصيف، وبدأت أفكر باستعادة مهنتي القديمة في السرقة. ذات يوم، سألتني الأنتيلية في المطبخ: «أيناسبك العمل في المشفى؟» سألت ذلك بلا مبالاة، غير أني فهمت من خلال عينيها أنها عرفت كلّ شيء، وأنها تشفق علينا.

كان العمل عبارة عن وظيفة فتاة صالة، عمل جيد . باشرت مباشرةً. وبما أني كنت سوداء، قدمتني على أني ابنة شقيقها، قالت بأنه لدي أوراقاً رسمية، وأني من الغوادلوب. دُهش الآخرون بأني لم أكن أفهم لغة الكريول، فشرحت ماري هيلين: «ولدت هناك، غير أن أمها جاءت مباشرة إلى فرنسا، فنست كلّ شيء.» لم يكن هناك داع لتغيير اسمي الأول، حيث أن ليلى اسم موجود هناك، إلا أنها سجلت اسمي الثاني: مانين، اسم عائلتها.

كنت أعمل من الساعة السابعة وحتى الواحدة في بوسيكو، بنصف أجر، كان ذلك يكفي لدفع أجرة الغرفة وبعض النفقات الأخرى. كان يمكن أن تبقى نقود حورية لفترة من الزمن. بالإضافة إلى أني كنت أستطيع أن آكل في مطعم المشفى. كانت ماري هيلين تحجز لي محلاً بالقرب منها وتملأ طبقها من أجلي. كانت لطيفة جداً. كنت أحب نظرتها الندية. كانت أيضاً قادرة على أن تغضب غضباً مريعاً. ذات يوم فيما كانت الآنسة ماير تتهم حورية بشيء لم أعد أذكره، مهددة إياها بطردها، أخذت ماري هيلين سكيناً كبيرة من المطبخ، ومشت نحو المالكة: « لا أنصحك بمحاولة طرد أي أحد . رغم النقود التي ندفعها لك، تبقين امرأة شمطاء فاجرة!»

كنت أحب الحفلات كثيراً، من وقت لآخر، بمناسبة عيد ميلاد ما أو بأي مناسبة أخرى، كان السود يقفلون كلّ الستائر، فتغرق الشقة بالسواد. كان الأفارقة يقرعون الطبول، طبول كبيرة من الخشب مغطاة بجلد، رويداً رويدا، بأطراف الأصابع، وكان الشباب يرقصون على ضوء الشموع. كان نونو الملاكم الكاميروني يرقص شبه عارٍ أو عارياً تماماً في وسط الممر، كانت تسمع صوت الضحكات في الغرف، فيما يصدح صوت ماري هيلين. ويخرج خوسيه صديق ماري هيلين آلة الساكسو ويعزف الجاز والسلو، ومن وقت لآخر كان يصدر صيحة صارّة. كانت الآنسة ماير تعتزل في غرفتها في هذه الأيام ولا تتجرأ بالخروج منها ما دامت الحفلة مستمرة. كانت حورية أيضاً لا تخرج، غير أنها كانت تستمع إلى الموسيقى. أما أنا فأمضي وقتي بالدخول والخروج. أتنفس رائحة الدخان، والطبخ، اندس وسط الناس الذين يرقصون. أساعد ماري هيلين في تجميع الكؤوس. أحمل لحورية صحن طعام، رز بجوز الهند، يخنة سمك ملئ بالتوابل، مقالي. كنت أرقص أيضاً مع الأفارقة

أو مع أسود أنتيلي طويل بعيون خضراء، اسمه دنيس. وبما أنه كان يضمني إليه بشيء من الشدة، كانت ماري هيلين تبعده بكلام لاذع: «انتبه، إن هذه الفتاة عفيفة، إنها ابنة أخي!» حين تنتهي الحفلة، أساعد ماري هيلين بالتنظيف. كان يصعب عليها الانحناء لجمع الصحون والأوراق والمحارم. كانت تهزأ: «لن أكون الوحيدة.» وبما أني كنت أنظر إليها دون أن أفهم: «نعم، الوحيدة التي لها طفل، ماذا، أتشكين بذلك؟» كانت تنظر إلي مشفقة. «حقاً، إنك ساذجة، لا تعرفين شيئاً عن الحياة، من علمك، أمك؟» أدركت أنها تقصد حورية. «إنها ليست أمي، كما تعرفين.» تضحك: «نعم ولكن مهما حدث، ستلد طفلها قبلي.»

كانت المرة الأولى التي نتكلم عن ذلك. شعرت أنه كان ينبغي أن أقول وأن اسر لها عني، غير أني لم أكن أعرف فعل ذلك. لم أكن أعرف سوى ابتكار القصص، لأنه منذ أن أضعت معلمتي، كان ذلك كلّ ما فعلته. ذات مرة، بدأت: «ألم أقل لك أني دون أهل؟» قاطعتني ماري هيلين فجأة: «اسمعي يا ليلى، ليس الآن. في يوم ما سنتكلم. ليس الآن. لست راغبة بسماع ذلك، وأنت ليست لديك الرغبة فيه.» كانت على حق. ربما فهمت أني لا أقول الحقيقة.

تابعت اكتشاف باريس، كلّ الصيف. كان الجو رائعاً، سماء زرقاء دون غيوم، كانت الأشجار ما تزال خضراء، تلمع. طفح السين من عواصف آب. حين أخرج من المشفى بعد الظهر، كنت أسير بمحاذاة النهر، أصل إلى الجسور التي تربط الضفتين أمام الكنيسة الكبيرة. كنت لا أزال لا أشبع من السير في الشوارع. كنت أسير أبعد ما يمكن. في بعض الأحيان أركب المترو، وعلى الأغلب الباص. لم أكن أستطع التعود على المترو. كانت ماري

هيلين، تستهزء مني قائلة: «أنت حمقاء، على النقيض، في الصيف يكون بارداً وفي الشتاء يكون دافئاً. ما عليك إلا أن تجلسي في زاوية مع كتاب، ولن ينتبه إليك أحد.» لكن لم يكن ذلك بسبب الناس. وإنما ذلك بسبب شعوري بالدوار حين أكون تحت الأرض. كنت أترصد ضوء النهار، وأحس بثقل على صدري. لم أكن أتحمل سوى خط المترو الهوائي القريب من محطة أوسترليتز Austerlitz، أو من جهة كامبرون Cambronne. كنت أركب الباص دون أن أقصد جهة معينة، إلى أن أصل نهاية الخط. لم أكن أقرأ أسماء الشوارع. كنت أريد رؤية أكبر قدر ممكن من الناس والأشياء والأبنية والمحلات والساحات.

فيما بعد كنت أمشي في كلّ هذه الأحياء: الباستيل Bastille، فيدإرب-شاليني Faidherbe-Chaligny،شوسيه دانتان Chaussée-d'Antin، الأوبرا L'Opéra، مادلين La Madeleine، سيباستوبول Sébastopol، كونترسكارب Contrescarpe، دنفيرروشرو Denfer-Rochereau، سان جاك Saint-Jacques، سان أنطوان Saint-Antoine، سان بول Saint-Paul. كانت هناك أحياء برجوازية، أنيقة، تنام في الساعة الثالثة بعد الظهر، وهناك أحياء شعبية، أحياء صاخبة، جدران طويلة من الآجر الأحمر الشبيه بجدار سجن، أدراج، طلعات، ساحات فارغة، حدائق مغبرة، ملأى بأناس غريبي الأطوار، جسور خطوط حديدية، فنادق مريبة تسكنها فتياتٌ يرتدين جلداً أسود، محلات فاخرة تعرض ساعات، مجوهرات، حقائب يد، عطور. كنت أمشي بصندل جلدي. تقطع في الخريف. اشتريت حذاء رياضياً بلاستيكي أبيض، قبيح، من محل بجانب بورت ديإيتالي Porte d'Italie، غير أنني به أستطيع أن أسير كيلومترات.

كنت أمشي دون أن أتكلم مع أحد. كان هناك أناس ينظرون إلي من وقت لآخر، كما لو أنهم يودون مخاطبيتي. منذ ما حدث في حمامات ريجنسي. لم أعد أنظر إلى عيون الناس. كنت أمشي غافلة عما حولي، كما لو أني أعرف أين أذهب. فيما إذا تبعني شخص ما، كنت أدخل في الأبنية، وأنتظر في الظلام في آخر الممر، وأعد حتى المئة، ثم أغادر.

كانت هناك أمكنة غريبة، لا سيما بجانب محطات القطار. شارع جان بوتون، رصيف المحطة. شباب يرتدون سترات واسعة، فتيات نحيفات يرتدين الجينز وستر قصيرة. شعورهن مغسولة بالكلور، وجوههن حادة، بنظرة ساهية، خاوية. ذات يوم، وأنا عائدة إلى الشقة، رأيت مشاجرة. كانت مرعبة، غير مفهومة. في البداية، رجال ونساء يركضون ويتدافعون، ويصيحون بأصوات أجشة. كانوا أتراكاً كما أظن، أو روساً لا أدري. فيما بعد كان هناك مجموعة صغيرة من الشباب يرتدون ستر جلدية، يحملون بأيديهم مطارق وعصي بيسبول. عبروا بالقرب مني تماماً. وبما أني بقيت مجمدة على طرف الرصيف، دفعني أحدهم براحة يده. رأيت وجهه المُقطب، فمه، عينيه التي حدقت بي للحظة، عينين قاسيتين، جامدتين مثل عيني عظاية. ومن ثم غادروا. وقعت على ركبتي أمام مجرى الماء، ولم أكن أجرؤ على التحرك. سمعت صفارة الشرطة، ولم يكن لدي الوقت سوى لأركض حتى باب بناء الآنسة ماير.

كانت حورية ترتجف في الشقة. حين دخلت إلى الغرفة الداكنة، أضأت الضوء، ولم أعرف نظرتها، نظرة حيوان مطارد. أثر ذلك فيّ، لأني عرفتها مرحة جداً لا تبالي بشي.

«ما بك؟» لم تجبني. كانت تنظر إلى ساقي، وأدركت الشيء الذي كانت تحدق به، كان بنطالي الممزق عند الركبتين، واتسعت بقعة دم على القماش. قلت لها: «وقعت، لا بد أن خطوتي قد زلت.» غير أني كنت أعلم أنها ليست مغفلة. قالت بصوت مخنوق: «أريد أن أرحل، لم أعد أستطيع.» قلت لها بلهجة قاطعة، مثل لهجتها قبل أن نغادر: «هذا مستحيل. لا يمكنك العودة، سيكون مصيرنا السجن، حتى أن طفلك لن تربيه، سيأخذونه منك.» قلت ذلك لي أيضاً. كي لا أنسى ما فعلوه بي، حين كنت طفلة، طفلة خُطفت وأدخلت في كيس وضُربت وبيعت. وهذه الأيدي التي مرت عليّ وحُرقت بطني. عادت الذاكرة فجأة مثل حامض في الحلق. «إن الموت أفضل.» قالت ذلك، كما قالته في تبريكة حين وضعت السكين على رقبتها.

في نهاية الصيف تقريباً، تعرفت على الدكتورة فروميجو. أظن أنه لا بد أنها قد لاحظتني حين كنت أدفع عربة الأغطية المراد غسلها في الممرات. كانت الدكتورة فروميجو طبيبة عصبية، عيادتها في الطابق الثالث، إلا أنها كانت تذهب وتجيء من قسم لآخر دون توقف. سألت ماري هيلين عن اسمي، وعن معلومات أخرى متعلقة بي. ذات يوم، سحبتني ماري هيلين لحظة الغذاء. كانت تتكلم في ذات الصوت البطيءالرخيم، لكن كنت أستطيع أن أقرأ مشاعرها في عمق عينيها الواسعتين البراقتين، انزعاجها أو سخريتها أو حذرها. قالت لي: «تعلمين ليلى، لقد قمت بكل ما تريدين، إلا أني أريد أن أشير لك أن هناك أحداً في مكان رفيع يهتم بك.» وبما أني نظرت إليها دون أن أفهم، قالت لي: «إنها الدكتورة فروميجو، إنها تدير قسم الأمراض العصبية، تريد مساعدتك. وهي مستعدة لتجد لك عملاً،

إن أردت تستطعين لقاءها.» كنت متحيرة لأني لم أكن أريد معرفة أي أحد، لقاء أي شخص مجدداً. كنت أريد أن أتابع إنسلالي بين الناس، بين الأشياء مثل سمكة تصعد سيلاً.

غضبت ماري هيلين: «ينبغي عليك أن تفكري بمستقبلك، لا أستطيع الاستمرار في إحضارك إلى هنا دون أوراق رسمية، إن ذلك خطر جداً، أنا أخاطر بفقدان عملي.» كانت المرة الأولى التي تشعرني بها أنها قد أدت لي خدمة. لو استطعت كنت سأغادر المشفى بكل بساطة، غير أن حورية كانت محبطة ووحيدة، ونحن بحاجة ماسة إلى النقود. قلت: «ماذا ينبغي أن أفعل؟» قالت لي ماري هيلين بطريقة لاذعة: «ماذا تتخيلين؟ إن هذه المرأة تقترح عليك فقط العمل عندها والقيام بالأعمال المنزلية والتسوق، هذا كلّ شيء. ستعملين كلّ الأيام، وتستطعين أن تأكلي عندها بعد الظهر. ستنتظرك غداً بعد الظهر في منزلها، وتستطعين البدء مباشرة. أليس هذا ما تبحثين عنه ؟» أخفضت رأسي. لم أرد أن أعارض ماري هيلين. إنها حقاً قد قامت بالكثير. لأنها كانت متعاطفة، وأحبت كثيراً شعري وبشرتي السوداء، وعيني الشبيهة بعينيها، عيناي الغزال، كما كانت معلمتي تقول. قبلتني. «إن أردت سأذهب معك لتقديمك إليها. طلبت من سيسيل أن تحلّ محلي غداً بعد الظهر.»

قامت ماري هيلين بما وعدت به. لا أظن أنه كان لديها حقاً نية سيئة. كانت تفكر بمساعدتي، وربما كان في أعماقها القليل من الحسد، لعلها أرادت، هي أيضاً، أن يلاحظها شخصاً مهماً. كان وضعها قاسياً، خانتها الحياة، مع ابنتها والسنوات التي كان خلالها زوجها السابق يضربها كل مساء. كانت قد فقدت قاطعاً في اليوم الذي دفعها فيه، ووجها إلى الأمام، إلى خزانة زجاجية.

كانت تريدني أن أتفادى ذلك. كانت تقول: «انظري إلي، حياتي لا شيء.» كانت تريد أن أترك حورية، وأن أحقق ذاتي.

كان منزل الدكتورة فروميجو في باسي، في شارع صغير هادئ، باب حديدي كبير وعمودين، الرقم ٨ على قطعة حديدية، واجهة بيضاء مع سقف محدب ونافذة تحت السقف أحببتها مباشرة.

قدمتني إلى الدكتورة فروميجو. سمعت الكثير عنها، كنت خائفة من لقائها، كنت أظن أنني سألتقي امرأة من نساء العالم الراقي، مثل السيدة دلاهاي في الرباط، بمجوهراتها وبطقم رمادي منزه عن أي عيب، وبوجه باهت وبعينين باردتين، وقد استعددت لفكرة أني سأهرب من أول كلمة غير لطيفة. كانت السيدة فروميجو نقيض ذلك. كانت قصيرة، نابضة بالحياة، شديدة السمرة، بعينين براقتين من الدهاء، وثياب غريبة: ترتدي بنطالاً كاكياً واسع جداً وسترة سماوية طويلة مثل فوطة ريفية.

حين رأتني، قبلتني.هتفت فرحاً: «إنها حقاً فاتنة!» أعدت لنا الشاي والحلوى. لم تكن تبقى في مكانها، كانت تطير عبر الشقة مثل عصفور دوري. «ليلى، عليك أن تهتمي بي، أتريدين ذلك؟ ليس لدي أطفال، ستكونين ابنتي، أنت ستنظمين كلّ شيء في هذا المنزل. قالت لي ماري هيلين أنك كنت تهتمين سابقاً بامرأة عجوز عاجزة؟ أنا لست عجوزاً جداً وليست لدي عاهة، لكنني بحاجة لأن تهتمي بي، كما لو أني كذلك، أتفهمين؟» شربت الشاي، هززت رأسي. شعرت بغصة لتكلمها عن معلمتي على هذا النحو، كما لو أن عملي كان الاهتمام بعجوز عاجزة. كنت أفهم في العمق صحة ذلك، كان ذلك حقاً عملي منذ أن كنت صغيرة جداً.

أحببت العمل عند السيدة فروميجو. كنت أبقى عندها طيلة النهار، أنظف المنزل. عدت إلى الأعمال التي كنت أقوم قديماً بها، في منزل الملاحة، عند لالا أسمى. كنت أبدأ بكنس الباحة، ومن ثم الرواق، كنت أجمع الأوراق التي كانت تسقط من شجرة الكستناء، والأغصان وما يسقط من عند أبنية الجيران. ومن ثم أقوم بمسح الأرضية، وأنفض السجاد. كنت أكنس الموكيت بمكنسة مصنوعة من جذور النباتات، وجدتها في الكهف. ذات صباح، جاءت السيدة، وضحكت: «ليلى، ينبغي استخدام المكنسة الكهربائية.» كنت أخاف من هذه الآلة التي تهدر وتصفر وتبتلع كل شيء، حتى أسفل الستائر. لكني تعودت عليها فيما بعد.

كنت أذهب للتسوق في الحي. وبما أن محلات الجوار كانت غالية، كنت أركب الباص وأذهب إلى سوق آلجير، حيث أشتري البرتقال المعبأ بصناديق سعة كيلو غرامين، البندورة والكوسا والشمام. كان المطبخ يطفح بالفاكهة. كانت السيدة سعيدة بذلك. كانت تترك مائة فرنك على الطاولة الصغيرة عند المدخل، وكنت أضع ما يتبقى في صحن صغير، كنت أسعى لأن أنفق أقل ما يمكن. كنت أعد السلطة، كل يوم بأشكال مختلفة، مع زيتون تونسي، زبيب، تين، يقطين، كيوي، أفوكاتو، بامية، وحبات الرشدية، وأوراق كبيرة من الخس البلدي والهندباء والخس الصيفي وخس النعجة والهندباء البرية وأوراق القرع والكرنب الأحمر. كنت أملأ قصعة كبيرة أتركها على الطاولة وسط غطاء أبيض جميل مع إناء فضي يلمع وإبريق ماء عذب. ومن ثم أذهب، وأعود إلى شقة الآنسة ماير، حيث يبدو لي كل شيء مكفهراً وحزيناً وتعيساً، كانت حورية تبقى ممددة على الأريكة، تقضم الخبز، تشكو: «تتركيني وحيدة أقضي طيلة وقتي بالبكاء، أمن أجل ذلك

أحضرتك إلى هنا؟» كانت غيورة، حسودة. «الآن لم تعودي محتاجة إلي، الآن وجدت أفضل مني، سترحلين وتنسيني، وأنا أموت في هذا الثقب الأسود دون أن ينجدني أحد!» كنت أحاول أن أطمئنها، وعدتها بأنه منذ اللحظة التي سأوفر فيها النقود سنذهب نحو الجنوب، إلى مرسيليا ونيس. كنت أكلمها كما لو أنها طفلة.

ربما كانت على حق. كنت أريد الرحيل، أردت أن أكون أبعد ما يمكن من شارع جان بوتون، من الفنادق البائسة، من مروجي الكوكائين على الرصيف، ومن عصابات الشباب الذي يركضون بعصيهم ليضربوا العرب والسود عند مرورهم.

لا أشعر بالراحة إلا عندما أدفع الباب الحديدي رقم ٨، وأدخل إلى المنزل القديم الصامت حيث رتبتُ ونسقتُ كلّ شيء، كما لو أن لالا أسمى لا تزال هنا، وكما لو أنها هي صاحبة المنزل الحقيقية.

خطر لي أنه منذ أن كنت طفلة، لم يتوقف الناس على اعتباري ابنتهم. يوقعونني في شراكهم وينصبونها لي من عواطفهم ومن ضعفهم. في البدء، كانت لالا أسمى ومن ثم كنتها زُهرة ومدام جميلة وتغادير والآن حورية. لا أستطيع أن أخلص من مشاكلها. ينبغي العودة إلى دوار تبريكة والعيش فيه من جديد عند تغادير حيث لا أفق سوى آخر الشارع المحفر وجسر مشروع الطريق السريع، والفئران التي تصرصر على السقوف.

إني متفقة معكم أن ذلك ليس مقبولاً مني، غير أني لم أعد أستطيع. في الساعة التي ينبغي أن أعود فيها إلى مكان إقامتنا في شارع جان بوتون، بقيت عند السيدة. أتابع ترتيب المطبخ، ألمع الأواني والخزف والحنفيات. كنت أفعل ذلك من أجل أن لا أفكر.

عادت السيدة، مبكرة قليلاً. حين رأتني، لم تقل شيئاً، فهمت كلّ شيء. قبلتني، حتى قبل أن تخلع معطفها أو أن تترك مفاتيحها. قالت لي: «إن ذلك يسرني يا عزيزتي، كنت أنتظر هذا اليوم موقنة أنه سيأتي.» لم أفهم تماما ما الذي كانت تريد قوله. كانت قد أرتني الغرفة الواقعة في آخر المنزل بجانب المطبخ، تلك التي لها مخرج على درج الطوارئ. وضعت فيها حقيبتي وجهاز الراديو القديم خاصتي، كلّ ما أملك. لم تطرح السيدة أي سؤال. تصرفت كما لو أنه كان متفقاً على ذلك، كما لو أني كنت أسكن منذ أشهر وسنوات. وهكذا ارتحت بعد حورية. حتى أن ماري هيلين كانت متعبة، تريد معرفة ما يحدث، وكانت لها آراء مسبقة. حتى أني لم أعد أفكر في نونو. كان هو أيضا يحبسني في شباكه، يريد أن نخرج معاً، أن أقبل أن أكون خطيبته. كان لطيفاً، مسلياً، كنت ألهو معه، لكني كنت خائفة دائماً من أن تلتقطه الشرطة، لأنه كاميروني دون أوراق. كنت أشعر أنه عاجلاً أم آجلاً سيتم التقاطه ولا أريد أن أُلقط معه.

كان كل شيء عند السيدة مريحاً. هنا، أعرف أن لا شيء يمكن أن يحصل. كان حياً جيداً، فيه شارع صغير منحني، منازل صغيرة بحدائق، أبنية غنية، أطفال شقر بملابس مدرسية. لم تكن الشرطة تأتي لتطوف في المنطقة. في الأيام الأولى بعد استقراري في باسي، كنت أنام طوال الوقت، بدا لي أني منذ سنوات لم أنم، لأنني كنت أعيش تحت التهديد من الرحيل أو الخشية من شرطة زُهرة. أما في شارع جان بوتون فقد كانت هناك مشاجرات السود والآنسة ماير، وهؤلاء المسلحين بالعصي الذين يركضون في الشوارع ليضربوا العرب وصفارات الشرطة التي غالباً ما تصيح، وفي الليل النعاق المشؤوم لسيارات الإسعاف.

لذلك، كنت أنام حتى الساعة التاسعة أو العاشرة. في بعض الأحيان، كانت السيدة توقظني، تفتح الستائر فينسل ضوء الشمس بين أجفاني. كنت أرى من نافذتي الكرمة الحمراء، وأسمع زقزقة الطيور. كنت أبقى متكومة على سريري، لآخر لحظة استيقاظي، فيما كانت السيدة تجلس على الطرف، تمرر راحة يدها على وجنتي، كما لو أني قطة صغيرة. كان صوتها يداعبني أيضاً، كانت تقول كلمات عذبة تنسل كما لو أنها في حلم. «عزيزتي، لا تتحركي، ابقي هكذا، إنه منزلك، دعيني أهدهدك، إنك ابنتي الصغيرة، أنت التي أنتظرها، دعيني أحميك، معي لن تخافي من شيء، سأهتم بك جيداً. إنك ابنتي، طفلتي الصغيرة...» كانت تنطق بكلمات مثل هذه، قريباً جداً، في أذني، أشياء أخرى، بصوتها الأجش والخفيض والوديع، ويدها الحارة الجافة التي تنزلق على وجهي، وتداعب شعري عند العنق، وأصابعها التي تنفتح في خصلاتي. لم أكن أدري إذا كنت أحب ذلك. كان ذلك غريباً، كان حلماً يمتد، كما لو أني أطير على غيمة. كنت أرتعش، أشعر بموجة تعبر ظهري، تصعد إلى بطني. كنت أشعر تماماً بكل عصب في بشرتي، من قدماي حتى يديّ، ولا أستطيع أن أتحرك. ومن ثم أنام وحين أفتح عيناي من جديد، يكون الوقت تجاوز الضحى، والسيدة قد ذهبت إلى العمل. فأنهض وأذهب إلى الحمام وأستحم مطولاً تحت الدوش كي أستيقظ.

لم أعد أذهب بعيداً للتسوق، أصبحت أخاف من مغادرة الحي، من الابتعاد عن الشارع الهادئ، من أن أفقد رؤية البوابة رقم ٨. كنت أذهب إلى المخبز في آخر الشارع، وبالقرب من محطة المترو، أشتري الفاكهة والخضار والجبن. لذا لم تعد النقود تكفيني. كي لا أطلب، كنت أنفق من

مدخراتي. كنت أظن أن السيدة فروميجو شغلتني لأني ماكرة، أعرف الشراء، ولم أكن أريد أن تعرف أني أصبحت كسولة، ولا أوفر نقودها. بعد ذلك، في عدة مرات، ولأنه لم يعد عندي ما يكفي من النقود كنت أسرق، علب سلمون، بسكويت، بياضات للمنزل. لم أفقد خفة يدي، كنت ما زلت قادرة، فيما كان تجار الحي ساذجين، لا يحترسون مني. تورطت في مشكلة، مرة واحدة، لم أفهم مباشرة، غير أن ذلك ترك لديّ شعوراً غريباً، كما لو أن هناك سرّاً ما، معنى سرياً لم أدركه. كانت واحدة من بائعات محل الأغذية الكبير، فتاة شابة بدا عظمها، شعرها أصفر. حين مررت، نظرت إلي بإمعان، ظننت أنها قد شاهدتني، ورأتني وأنا أسرق منفضة. كنت سأخرج من جيبي لأدفع، غير أنها قالت فقط وببطء شديد، ومشددة على كل كلمة: «إذاً أنت الجديدة؟» تلعثمت: «الجديدة؟» كانت لا تزال محدقة فيّ، بعينيها الشاحبتين والباردتين. قالت: «نعم، نعم، يا له من قلب جميل.» ووضعت كلّ شي في الكيس، ومدته لي دون أن تأخذ نقودي. هربت راكضة، كما لو أنها ستناديني.

في بعض الأحيان، بعد الظهر، كنت أتصل بحورية هاتفياً. ولكي تمرر الآنسة ماير لها المكالمة، كنت أقول لها أني بعيدة، في إنكلترا، أو في أمريكا. كانت تقول: «حقاً؟» بصوتها المزماري النغم. بعد لحظة، كنت أسمع صوت حورية المنخفض والأجش. كانت تكلمني بالعربية، وأرد عليها بالفرنسية.

«أين أنت؟

– في باريس، وليس في أمريكا.

– متى ستعودين؟

– لا أدري. إني مشغولة جداً بعملي.

- أووو..

- نعم، أُكد لك، بالتأكيد ليس لدي الوقت. ومن ثم أنني أعمل في مكان بعيد، في الطرف الآخر من المدينة.

- أووو.. أووو..

- لماذا تقولين «أووو..»؟ ألا تصدقيني؟»

صمت

«سأجيء لزيارتك عندما أستطيع. أبحاجة إلى شيء؟ هل ما زال معك نقود؟»

- ماشي الحال، هناك القليل.

- ينبغي أن أتركك. سأتصل بك، مرة أخرى.

- لماذا تكذبين؟ لن تأتي أبداً إلى أن أموت.

- إني لا أكذب. ليس بإمكاني أن أجيء الآن، غير أني سأتصل بك.

- حسناً.

- إلى اللقاء.

- سلامة ليلى.

- سلامة خالتي.»

كنت خجلة. كان يكفيني نصف ساعة من المترو لأكون هناك. غير أن فكرة أن أدخل شارع جان بوتون كانت تبعث فيّ الغثيان. كما لو أن هناك جداراً يفصلني عن هذا المكان.

جاء نونو ذات صباح. لا أدري كيف وجد مكاني. دون شك، أنه استدرج ماري هيلين في الكلام. رغم أنها كانت تحترس منه، لكن لا بد أنه قد استعلم من المشفى. حين خرجت للتسوق، كان بانتظاري، لا بد أنه انتظر وقتاً طويلاً عند زاوية الباب، مرتدياً سترته الجلدية، كان يستنشق بصعوبة، لأنه كان مزكوماً. كان السرور بادياً عليه من رؤيته لي، ولم أستطع أن أتخلص منه. كان خجلاً.

«لقد تغيرت.

–نعم؟ إلى الأحسن؟»

ابتسم. «كما لو أنك سيدة.»

كان ذلك بسبب الملابس التي اشترتها لي السيدة فروميجو. بنطال فيزون أسود وكنزة بقبة سبعة وإشارب أحمر عقدته حول عنقي.

ظننت أني سأفزع من رؤية أحد من حياتي الأخرى، لكنني دهشت لسروري من رؤية نونو.

رافقني خلال التسوق. حمل العلب. كان لديه كتفان عريضان، ورقبة سميكة. ووجهه كان وجه طفل، وكنت مدهوشة من قامته. كان يبدو لي أكثر أقصراً. كان التجار يجدونه لطيفاً، يمازحونه. قال أحدهم: «أهذا أخوك؟» تسليت للمرة الأولى منذ أسابيع.. كأني خرجت من حلم.

أخبرني نونو ببعض أخبار شارع جان بوتون. كانت الآنسة ماير تواجه بعض المشاكل، فقد باغتتها الشرطة. لأنها لم تكن تصرح عن كلّ شاغلي الغرف، وقد هددتها بالغرامة. «بكت العجوز الشمطاء وقالت: ليس خطئي، إن هؤلاء السود متشابهون، ولا أعرف أن أميز بينهم!

- وخالتي؟»

هكذا كنت أنادي حورية ولم تكن تقول شيئاً. كانت قد فتحت بابها، وأغلقته في الحال. كانت خائفة من الشرطة، كانت تظن أنهم جاؤوا ليوقفوها لإرسالها إلى زوجها. غير أن رجال الشرطة كانوا قد اكتفوا بما فعلوه مع الأنتيليين والأفارقة. كان نونو قد هرب عبر المزراب، ومن أجل ذلك جاء إلى هنا.

«وأين تقيم الآن؟»

أشار إلى الجهة الأخرى من المدينة، كما لو أن ذلك يمكن أن يُرى من هنا.

«أعارني صديق مستودعاً، أنام فيه...

- في أي منطقة؟»

فكّر. «إنه اسم غريب، شارع جافلو Javelot.»

أخرج قطعة ورق كتب عليها العنوان: ٢٨ شارع جافلو. خطر ببالي أن ذلك اسم جميل لمحارب كاميروني.

«جيد في الليل، لكنه معتم جداً في النهار، لذا فإني أذهب للتدرب في القاعة الرياضية. عندي مباراة في الشهر القادم، قال لي المُعلم أنني بإمكاني أن أصبح محترفاً وسيمنحني كل الأوراق.»

حين عدنا إلى البوابة ٨، بدا عليه البرد، دعوته إلى الدخول لشرب فنجان قهوة. دهش من المنزل. كان يمشي بهدوء، كما لو أنه كان خائفاً من كسر الأرضية. اجتزنا الصالة إلى المطبخ الأبيض الكبير. أمتعني إندهاشه. كنتُ أعرف منازل الأغنياء منذ وقت طويل، منذ دارة السيدة دلاهاي، كان عادياً بالنسبة إليّ. غير أن نونو كان مثل طفل أمام ألعاب جديدة. فحص آلة إعداد القهوة الكهربائية، آلة تحميص الخبز، فتح الأدراج، أدار الأوعية الغير قابلة للتأكسد.

«إنها حقاً غنية.

- صحيح، أيرضيك ذلك؟»

ضحك ضحكته الرنانة.

«إن ذلك أفضل من المستودع الذي أقيم فيه!»

وضعت ذراعي حول عنقه.

«إن أصبحت ملاكماً مشهوراً بإمكانك أن تشتري منزلاً مشابهاً.»

فكر.

«إن حصل ذلك، سأتزوج منك.»

كانت تبدو عليه الجدة مما جعلني أقهقه ضحكاً. «أوقف حماقاتك. إن أصبحت ملاكماً مشهوراً لن تفكر بي، ستتزوج من لعبة جميلة بيضاء!»

نظر إلي نونو باتهام.

«لماذا تقولين ذلك؟ أنت التي سأتزوجها.»

اعتاد المجيء كل صباح، ما عدا في عطلة نهاية الأسبوع لأن السيدة فروميجو كانت تبقى في المنزل. كان يساعدني في حمل ما أشتريه، وأعد له فطوراً وفيراً مع بيض، وخبز محمص وفنجان كبير من الحليب.

لم تكن السيدة فروميجو تقول شيئاً، غير أنه ذات يوم لا بد أن أحداً قال لها شيئاً، لأنها غيرت وجهها. أصبحت غير لطيفة، كانت تصيح بي سواء إن قلت نعم أو قلت لا. أو كانت تعود بشكل غير متوقع حانقة، كما لو أنها نسيت شيئاً ما، حزمة مفاتيح، ملف ما أو أي شيء آخر. لكن عودتها

كانت كي ترى إن كنت مع نونو لتفاجأنا. فهمت ذلك مباشرة وطلبت من نونو عدم المجيء، والانتظار في الشارع. استهزأ مني: «معلمتك غيورة!»

أتعبني هذا التحول في تصرفاتها. كنت أشعر بأن شيئا ما يُعد له. لا أعرف ما هو. في أثناء ذلك، كانت السيدة فروميجو قد أعطتني رسالة غامضة. كُتب في رأسها: الشرطة الوطنية مركز الدائرة السادسة عشر. كانت دعوة لتسوية وضعي القانوني. كانت السيدة فروميجو تعرف تماماً ما هي. كانت قد أعدت كلّ شيء، فقد كانت صديقة مع مفوض الشرطة. فقدمت له وثيقة السكن والتصاريح. كان كلّ شيء جاهزاً. تظاهرت بأنها تحاول الفهم. قالت لي: «أظن أنهم سيقبلون الطلب ومن ثم ستحصلين على الجنسية.» دهشت. كان يجب أن أقول: «لم أطلب شيئاً!» ثم تذكرت زُهرة وزوجها وشقتهما حيث أغلقا الباب عليّ لأشهر ودوار تبريكة والجرذان التي تركض على السقوف التي تغرز مخالبها. قلت: «شكراً.» وقبلتني.

ربما كانت السيدة قد ندمت. عدت من مركز الشرطة، باحمرار خفيف بسبب الجو الحار، كان الموظف مستعجلاً، كان ينبغي أن أروي كلّ شيء، أن أوقع الأوراق، أن تأخذ البصمات الرقمية، أن يتم التلقين، ثم اختار اسماً لي... ليز هنريت. وجد أن ذلك مناسباً لي. ضحكت السيدة فروميجو، صفقت بيديها، كانت متحمسة ولو أن كل شيء كان من أجلها. بالطبع لم أرو لها بأن الموظف مال عليّ ووضع يده على عنقي وأنه سألني بصوت خافت: «كيف نقول أحبك في العربية؟» وأجبته : «سفيه...» الكلمة الأكثر بذاءة التي أعرفها، لأن حورية كانت تصرخ بها للرجال الذين كانوا يضايقونها في تبريكة. لن تفهم. لن تفهم أن ذلك لا يعني لي أي شيء، وبأن ذلك متأخر، وأنه ينبغي منح الأوراق لحورية وليس لي.

هدأت السيدة قليلاً وقالت لي: «لن ترحلي؟ لن تتوقفي عن الاهتم.
أليس كذلك؟» تكلمت مثل حورية وتغادير. كلّ الناس متشابهون.

بقيت لوقت طويل معها، أعتقد أني كنت سأبقى معها لو لم يحدث الشيء في الليل. أجد صعوبة في فهم كيف حدث ذلك. كان ذلك بعد العشاء، تكلمنا. كنت منذ مدة أدخن معها سجائر أمريكية ونتحدث. نشاهد التلفزيون قليلاً بطرف أعيننا دون أن نتابع حقاً ما يعرض. كان الجو ما زال حاراً. كان ذلك في نهاية أيلول، كانت النوافذ مفتوحة على مصراعيها، كان هناك قليل من المطر يسقط على أوراق الشجر. كان كلّ شيء هادئاً في شارع أشجار الكستناء، لا يمكن أن نعتقد أن يكون ذلك في مدينة كبيرة جداً تحدث فيها أشياء عنيفة.

قامت السيدة فروميجو بإعداد شاي المساء خاصتها، من أوراق الشجر والأزهار، مذاق الفلفل والفانيلا، مقزز قليلاً. نمت على الأريكة، كنت أشعر كما لو أني أطير. لا، لم أكن نائمة، ولكن شعرت كما لو أن جسدي خفيف جداً، ولم أعد أستطيع أن أحرك يداي وساقيّ. بدا لي أن وجه السيدة كان قريباً مني، يلمع مثل كوكب، مع ابتسامة غريبة، وعيناها السوداوتان الواسعتان شبيهتان بعيني قطة. كانت تتكلم بصوت خافت، مرددة: «طفلتي الصغيرة، طفلتي الصغيرة» كما لو أنها تموء. وشعرت بيدها الجافة والحارة تنزلق على بشرتي من قميصي المفكوك الأزرار، تلعب بحلمتي ثديي. كان قلبي يخفق حتى كاد أن يتهشم. كنت أسمع صوتها الذي يهمس: «طفلتي الصغيرة»، أردتها أن تتوقف، وأن تسكت، أردتها أن تختفي، أردت العودة إلى مكان لا يوجد فيه أحد، أردت المقبرة المطلة على البحر التي كنت أذهب

إليها، الشمس التي كانت تضيء الأزهار البيضاء في العشب، والأزهار التي لا تحمل أسماء، والطيور المعلقة في الريح، بأجنحتها القاطعة مثل منجل.

في الصباح حين استيقظت، كان فمي جافاً، يؤلمني. لا أذكر ما حدث. نمت على الأريكة في الصالة، غير أني كنت ملفوفة في برنس السيدة المصنوع من الحرير الياباني. كان أول ما صعقني رائحة الجلد الروسي المدوخة. سرت على غير هدى عبر الصالة الخالية مصطدمة بالأثاث. لم أكن أعرف ما الذي أبحث عنه، لم أكن أستطيع التفكير بشيء ما. سخنت الماء للقهوة. كانت الشمس تدخل إلى المطبخ، كان الجو في الخارج عذباً. كانت شجرة الخميسة التي تحيط بالنافذة تُصفر، وكانت هناك مجموعة من عصافير الدوري تعقعق.

فجأة، وأنا أشرب قهوتي، بدأ كل شيء يتضح: ينبغي أن أرحل من هنا. شعرت بقلبي يخفق بقوة، يضربني ألم جبهتي، قمت بدورة، قلبت كراسي وأنا أقول: «العجوز الشمطاء! العجوز الشمطاء!» مثل ماري هيلين حين كانت تتكلم عن الآنسة ماير.

تذكرت ما روته لي لالا أسمى، كانت تقول: «لا تشربي الشاي من شخص لا تعرفينه، لأنه قد يسقيك شيئاً لا تريدينه.» كانت تتحدث عن رجل كان يدعو الفتيات ليشربن القهوة ويجعلهن يشربن مخدراً، وحين ينمن يأخذهن عنده ويغتصبهن ويذبحهن.

وأذكر الشاي الذي قدمته لي السيدة، أذكر عينيها السوداوين، اللتان كانتا تلمعان فيما كنت أؤرجح رأسي. بالأمس، لا بد أنها وضعت مادة الروهيبنول المخدرة، وفقدت وعي. كنت أكرهها. خانتني. لم تكن صديقتي،

كانت مثل الآخرين، مثل زُهرة والسيد دلاهاي، مثل موظف مركز الشرطة، أبغضها، أود قتلها. «الفاجرة، العجوز الفاجرة!»

ارتديت ملابسي، الجينز والكنزة التي وصلت بها، رميت كلّ ما اشترته لي السيدة فروميجو. رميت السلسة الذهبية مع البلاك الذي حُفر عليه اسمها في الحمام، سحبت السيفون غير أن الماء لم ينجح في بلعه. بحثت عما يمكن أن يلبي انتقامي. لم أكن أريد سرقتها. لم أكن أريد أن أخذ شيئاً من عندها. فقط أردت أن أمحيها من ذاكرتي، هي وذرائعها. ذهبت إلى مكتبها، وبدأت أرمي على الأرض كل كتبها، كنت آخذها من المكتبة وأنظر إلى العنوان ثم أرميها وسط الغرفة، ثم أصابتني موجة من الهيجان، فصرت أرمي الكتب في الهواء أسرع فأسرع، كان ذلك يصدر صوتاً كبيراً للأوراق التي تتمزق، كانت تصطدم بالجدران. فعلت نفس الشيء مع صورها ورسائلها وأوراقها. أعتقد أني كنت في ذات الوقت أتكلم وأصرخ، اشتمها في العربية والفرنسية، كل ما أعرفه. وقد أراحني ذلك.

حين انتهيت، كان مكتب وصالة السيدة شبيهة بحقل بعد العاصفة. أخذت حقيبتي وجهاز الراديو القديم ورحلت.

-٨-

كان شارع جافلو المكان الأكثر إدهاشاً في باريس. في البدء، لم أصدق أن شيئاً كهذا يمكن أن يوجد. حين جاء نونو لاصطحابي بدراجته النارية (أو بالأحرى الدراجة التي استعارها) وحين دخلنا تحت الأرض، اعتقدت أنه يسلك طريقاً مختصراً، أو أننا نعبر نفقاً ما. غير أن الشارع التف تحت الأرض، في ممر خرساني، تنفتح عليه أبواب مستودعات تجارية، فيما كان صوت الدراجة يدوي كصوتٍ في جهنم. كان هناك أيضاً سيارات تسير بأضوائها المنارة، وأصوات مزاميرها. بعد كلّ ما حدث، كنت متعبة، تعلقت بسترة نونو، أحسست بأننا ضعنا، لم أعد أعرف أين نذهب أو ماذا سيحدث. أظن أن تأثير الكحول لم يكن قد انتهى.

فيما بعد، مرضت. كانت شقة نونو، التي تقع تحت الأرض، صغيرة، لا يصلها الضوء أبداً، إلا من خلال ثقوب تنزل إلى المطبخ. لم تكن، في الواقع، شقة، بل مستودعاً أو كهفاً. أُعدّ للقبو حمامٌ ومطبخٌ. فيما قُسّم الباقي إلى حجيرات بيتونية، ذات أبواب ثقيلة من الحديد خطت عليه الخدوش، وسقوف مقوسة. لكنها كانت جيدة، لا تصلها الضوضاء، إلا من وقت لآخر حيث كان يعلو صوت حفر شبكات الأقنية، أو هدير المكيفات. لم أكن أعرف

ما حلّ بي. كنت أظل معظم الوقت مستلقية على الفراش الذي وضعه نونو فقط لأجلي في شقته. فيما هو كان ينام في الصالة - بالأحرى كانت مخزناً بأرضية إسمنتية مدهونة بلون رمادي وباب كبير ذي درفتين. كان يحفظ فيها دراجته النارية. كان ينام على طبقات من الكرتون. كان لطيفاً، أعطاني غرفته. كان يائساً من رؤيتي بهذا الوضع، ساكنة على الفراش. كنت أدخن، أعطس. لم تكن لدّي القوة حتى لتحريك ذراعي، أو لأدير رأسي. لم أعد آكل. لم أكن أشعر أبداً بالجوع. كان اللعاب يملأ أحياناً فمي، وكان علي أن أميل إلى الجانب كي أبصق. لم أعد أحيض. كما لو أن كل شيء توقف في داخلي.

كان نونو يقول إن ذلك بسبب يانجيك، جيجي، بسبب سحر ما. بدا كما لو أنه يعرف الموضوع جيداً. كان يذكر كلّ ما يجب فعله، رمي الملح في النار، وضع ريش أو قش حصير، رسم رموزاً على الأرض، نفخ الدخان. كنت أستمع إليه، أشرب كل كلمة، كل ضحكة يطلقها. كان الشخص الوحيد الذي يربطني بالعالم الخارجي. حين يعود من التدريب، يعود برائحة الشارع، العرق، دخان السيارات. كنت آخذ يده، يده المربعة، ذات الأصابع القاسية وبشرة الكفين الناعمة نعومة حصاة ملساء. «اروِ لي ما رأيته في الخارج، ما يحدث في الشوارع.» يروي بأنه رأى حادثاً: باص صدم سيارة، ونزع لها الرفراف. يروي أنه رأى اسكتلنديين يعزفون القرب، أنه رأى ماري هيلين. ينقل أخباراً من شارع جان بوتون. «وعمتي حورية ؟» كان يهز رأسه. «لم أرها. غير أنه يبدو أن السيدة فرو...» لم يكن يستطيع أن ينطق الاسم، كان ذلك يثير ضحكه. «معلمتك، يبدو أنها تبحث عنك. تتمنى موتك. هذه العجوز الشمطاء التي رمتك بجيجي. سأقتلها.» لم يقل

لأحد بأني أقيم عنده. حتى لماري هيلين. إن وجدتني السيدة، ستطردني خارج فرنسا كما لو أني كنت مجرمة. رغم أني لم أسرق منها شيئاً: هي التي سلبت مني شيئاً ما، هي التي كذبت.

كنت أرى الكوابيس في مناماتي. لم أعد أميز بين الليل والنهار. بدا لي، كما لو أني في بطن حيوان ضخم جداً، يهضمني ببطء. ذات يوم صرخت، جاء نونو، لامس وجهي وكلّمني بصوت خافت، كما لو أني طفلة. حين أراد أن يعود إلى فراشه الكرتوني، أمسكته. شددت يده بأكبر قوة أستطيعها. أحسست كما لو أن عضلات ظهره كانت حبالاً. احتضنني، أطفأ المصباح. كان كلّ جسده مشدوداً، يرتجف، لا أعرف لماذا بدا لي ذلك مضحكاً، أن يكون هو خائفاً ولست أنا. لم نفعل شيئاً هذه الليلة، نمت فقط بجانبه. لم يتحرك نونو. وضع ذراعه حولي، مخرجاً نَفَسَه على عنقي. ذات مساء، مارس معي الحب، بلطف. كان يعتذر، قائلاً: «أأولمك؟» كانت المرة الأولى لي، مع ذلك لم أندهش. كما لو أني عرفت ذلك منذ زمن طويل.

فيما بعد، أصبح كلّ شيء أحسن قليلاً. بدأت أتحرك، أذهب إلى المطبخ. كنت أقول لنونو عند وقت الفطور: «هل الجو جيد؟ – انتظري سأرى.» كان يدفع مقعداً، ويفتح الكوة ويدخل نصف جسده وهو يتلوى، في مناور الضوء. ثم يعود والشحار يغطي قميصه. «السماء زرقاء!» وينتظر لأصعد معه على دراجته، للقيام بجولة.

حين خرجت للمرة الأولى، صعدت على الدرج، بجانب باب المخزن، ثم المصعد، حيث وصلتُ إلى أعلى البناء، كان ذلك صباحاً، كان نونو قد غادر ليعمل في صالة التدريب. كان كلّ شيء صامتاً، ماعدا ارتجاج المصعد في كل

طابق. صعدت إلى الأعلى، إلى الطابق الرابع عشر. كان مكتباً، ربما لشركة تأمين أو مكتب محاماة أو وكالة بحرية، شيئاً كهذا. دخلت في المكاتب، دون أن أتوقف، ومشيت نحو الواجهة الزجاجية الكبرى. رأت السكرتيرات هذه الفتاة السوداء ذات الشعر الكثيف والجينز المهترئ والنظرة الثابتة، كنّ خائفات جداً. أظن أنها المرة الأولى التي أدرك فيها أني قادرة، أنا أيضا، على إخافة أحد ما.

استندت إلى الواجهة الزجاجية ونظرت. تسمّرت للحظة من إحساسي بالدوار. لم أرّ أبداً مدينة من هذا العلو: شوارع، سقوف، عمارات، جادات كبيرة على مدّ النظر، ساحات، حدائق، وعلى مسافة أبعد، كانت التلال وانعطافات النهر الذي يلمع تحت الشمس. كما لو أني كنت فوق المنحدر الصخري، في المقبرة المطلة على البحر، حيث تحوم النوارس في السماء. كان هناك دخان، وهياكل سيارات، تلمع، صغيرة مثل الخنافس. أصابتني الضوضاء بالدوار، كان يصعد من كل مكان هدير مخنوق ومتواصل ، تخرقه زمامير السيارات وصفارات البوليس وعويل سيارات الإسعاف. كانت يداي متكئتين على الواجهة الزجاجية الثخينة، فيما كنت لا أستطيع أن أبعد عينيّ عما أراه. كانت غيمة كبيرة سوداء تقسم السماء إلى جانبين، أشعة الشمس من جانب، وخيوط المطر من جانب آخر! أقسم لكم أنني لم أرّ شيئاً بهذا الجمال.

سمعت خلفي صوتاً يشوبه الأنين، كانت امرأة تتكلم بلطف، غير أني لم أفهم مباشرة: «آنسة! آنسة! أتشعرين بشيء يتعبك؟» استدرت، ونظرت إليها باسمة. كانت الدموع تملأ عيني، لأنني شعرت فجأة بالسعادة. «لا، أنا بحالٍ جيدة، جيدة جداً، فقط أريد رؤية المنظر.» لم تطمئنها بسمتي، لأنها ابتعدت. كانت شابة، شاحبة، شعرها طويل أشقر وعيناها خضراوان. كان معها نساء أخريات، إحداهن كانت بدينة قليلاً، وواحدة أخرى تشبه السيدة فروميجو. لا

بد أنها استدعت رجال الأمن، لأنني حين خرجت من المكتب، متجهة نحو المصعد، فُتحت الأبواب الآلية وخرج رجل يرتدي ملابس زرقاء ويحمل أغلالاً وتفرسني. دخلت المصعد، وأُغلق. كنت تعبة، ثملى قليلاً. حين وصلت إلى الكاراج في القبو، تمددت على الفراش ونمت لوقت طويل من النهار. حتى أنّ نونو حين عاد من صالة الملاكمة لم يوقظني. رآني نائمة، وجلس متكئاً على الجدار، دون أي صوت، كما لو كان أخي الأكبر.

بعد ذلك، بدأت بالخروج. لم أتخيل أنني بقيت محبوسة طيلة هذا الوقت. في الخارج كانت السماء شاحبة، والشمس واطئة تجري بين الغيوم، والجو باردٌ. بل أن أشجار ضفاف السين تغيرت، فسقطت أوراقها الصفراء في الريح.

وتذكرت حورية. في اللحظة التي استطعت السير بها، ذهبت سيراً على الأقدام باتجاه محطة ليون. كنت أشعر بالبرد. كان نونو قد أعارني سترته الجلدية، كانت أكمامها طويلة. أحببتها، رائحة نونو فيها، مهترئة من الكوعين، كنت أشعر كما لو أنها تحميني، مثل درع.

لم يتغير شيء في شارع جان بوتون. كما لو أني تركته بالأمس. الفنادق البائسة، أكياس القمامة، بائعو المخدرات. في آخر الشارع، قبل الطريق المسدودة، كانت هناك بوابة بناء حديدية سوداء، ذات واجهة زجاجية متسخة. قرعت الجرس، فتح الباب لي رجل أسود لا أعرفه. كان قصيراً ونحيفاً، بلحية قصيرة. نظر إلي دون أن يقول أية كلمة، ثم عاد إلى المطبخ، حيث كان ينظف قدور الطبخ، كان دائماً عند ماري هيلين رجال يخدمونها. كان باب الآنسة ماير مشقوقاً، وغرفتها منارة. عبرت الممر دون أن أثير أي صوت وقرعت باب الغرفة.

حين جاءت حورية، تعرفت عليها بصعوبة. كانت بدينة جداً، عيناها مزرقتان. إلا أن الحياة عادت إلى وجهها حين رأتني. «كنت أنتظرك، حلمت أنك ستأتين اليوم.» هذا ما كانت تقوله دائماً. «ها قد جئت.» لم تسألني عن شيء، ما قمت به، أين ذهبت. ربما، بالنسبة لها، لم يكن الوقت يمر بسرعة، وهي مختبئة داخل هذه الشقة. «كنت أضجر، أتساءل كل يوم: هل ستأتي، هل ستهتف؟»

في بضع لحظات، جمعتُ كل حاجياتها. حشيتُ الملابس البيضاء في الأكياس، الأدوية، علب الشوفان، كل شيء. كانت حورية خائفة من الخروج، لأنها لم تدفع الإيجار. غير أني أنا لم أعد أخشى الآنسة ماير، ولا أحداً آخر. عند الخروج، صفقت الباب بشدة بحيث إن قطعة من الجص سقطت على الدرج. كنت سعيدة، كان لدي شعور بأن حياة جديدة تبدأ. وضعتُ يدي على بطن حورية: «أيتحرك؟» كانت تتقدم ببطء، وهي تلهث. «نعم، لا يتوقف، إنه شيطان صغير.»

كانت الأيام الأولى في شارع جافلو عيداً. كنت سعيدة جداً لأني وجدت حورية ولأني لن أعود إلى تركها. أحضر نونو جهاز ستيريو ضخم وكلّ ما كان يلزم، تلفزيون ملون بشاشة كبيرة. حين سألته أين وجد هذه الأشياء، تجنب الإجابة وهو يضحك، فيما ملأت الموسيقى جدران الكاراج. دعا أصدقاء أفارقة، ورقصنا على أشرطة التسجيل التي تحتوي على موسيقى أفريقية، راي، راغا، روك. بعد ذلك أخرجوا طبول الجن – جن، وبدؤوا يعزفون، وأخرجوا أيضاً آلة موسيقية غريبة، سنزا، أحضرها حكيم، صديق لنونو في خرج صغير، مثل قيثار منمنم، ذي صوت منساب وناعم يبدو كما لو أنه يخرج من كل الجهات.

كنا نشرب الكوكا مع الروم، والفودكا، والبيرة. كانت حورية تدخن سيجارة وراء سيجارة على الديوان، وهي في حالة ذبول. ثم تحاول

الرقص، كما لو أنها تعرف، تضرب الأرض بقدميها وتتخلع، غير أن بطنها الكبير وثدييها المنتفخين كانا يمنعانها. كانت تضحك للمرة الأولى منذ وصولها. نست كل شيء، شارع جان بوتون، المرأة الشمطاء. كانت الموسيقى تصعد من الأرض، تموج في كل جدران البناء، تصدح من أعلى الطوابق الإحدى والثلاثين إلى الشوارع المجاورة، شارع شاتو دورانسيه Château-des-Rentiers، تولبياك Tolbiac، جان دارك Jeanne-d'Arc، وحتى سالبتريه Salpêtrièrs ومحطة ليون Gar de Lyon. تلقي التراب الأحمر على الجدران، تراب أفريقيا. كان حكيم يعزف، يجلس متربعاً، منحنياً على السنزا، والعرق يسيل على وجنتيه، وعلى لحيته. كان يبدو ساحراً، فيما كان نونو شبه عار، يلمع من العرق، يضرب بأطراف أصابعه على الطبول، فيما حورية تصفق براحة قدميها العاريتين على الأرض، مع رنين أساورها النحاسية.

كان المصعد مغلقاً، لذا صعدت على الدرج مع حورية إلى أعلى البناء، إلى الباب الصغير الذي يؤدي إلى سطح البناء -كان نونو قد كسر قفله - عبر سلّم الإطفاء. كان الليل قد حلّ. غير أنه في باريس لا يحلّ الليل تماماً. كان هناك وميضٌ أحمر فوق المدينة. لحق بنا حكيم ونونو. جلسنا على حصى السطح، بالقرب من منفذ التهوية. بدأ نونو بقرع الطبل، وحكيم بالعزف على السنزا. كنا نغني اللحن فقط آه، آو، إي، آي، آآآ، يا. ببطء. كنا شباباً، ليس لدينا نقود ولا مستقبل، كنا ندخن سجائر الحشيش. كلّ هذا، السطح، السماء الحمراء، هدير المدينة، الحشيش. كنا نملك كلّ هذا الذي لا يملكه أحد.

صرنا نقوم بذلك كل مساء. إنها سينمانا، في النهار نختبئ تحت الأرض كالصراصير. وفي الليل نخرج من جحورنا، ونذهب إلى كل

الأمكنة، إلى أنفاق المترو، محطة تولبياك، أو أبعد، إلى محطة أوسترليتز. كان حكيم صديق نونو يبيع أشياء من أفريقيا السوداء، مجوهرات، أطواق، زينة رخيصة. كان يقوم بذلك دون اهتمام، فقط ليؤمن نفقات دراسته للتاريخ في جامعة باريس السابعة، كان يسكن في المدينة الجامعية بأنطوني Antony. كان يحدثني عن جده يامبا الحاج مافوبا، الذي كان محارباً من محاربي المستعمرات في الجيش الفرنسي، والذي قاتل ضد الألمان. كانت الطبول الصغيرة في ممر المترو تقرع وتصدح كل مساء، في محطة ساحة إيطاليا، في محطة أوسترليز، في محطة الباستيل، في محطة البلدية. كانت تهدرُ في الممرات، متوعدة كعاصفة رعدية تارة، ناعمة ومتسقة تارة مثل قلب يخفق.

كنت أعرف كلّ الموسيقيين. أذهب من محطة إلى أخرى، أجلس على الحائط وأنصت. في محطة أوسترليز، كانت هناك فرقة من الولوف، في سان بول، كان هناك ماليون وأناس من جزر الرأس الأخضر، وفي تولبياك، كان هناك الأنتيليين والأفارقة. كنت أعرفهم، هم أيضاً. حين كنت أصل، يشيرون إلي، يتوقفون عن العزف ليصافحوني. كانوا يظنون أني أفريقية أو أنتيلية. وأني صديقة نونو. ربما هو الذي كان يتباهى بذلك.

على هذا النحو بدأت أخرج مع حكيم. كنت أذهب للقائه في تولبياك أو في أوسترليز، فيترك بسطته، ويعهد بها لأصحابه. كنا نمشي في الليل، دون هدف، في الهواء البارد. نذهب نحو النهر. كان حكيم يتحدث عن نهر السنغال الكبير. لم يرهُ أبداً. غير أن أباه قد روى له، أنه حين كان طفلاً، كان الماء بطيئاً جداً وأن الأخشاب كانت تنزل نحو البحر. كان جده أيضاً، الحاج، الذي أضاع بصره الآن، يتحدث عن النهر بكلمات محدّدة، حقيقية جداً، كما لو أن الماء الموحل والأصفر يسير أمام عينيه مع القوارب المحمّلة بالنساء والأطفال، والبلشون الأبيض الذي

يطير في المقدمة. أما أنا فكنت أتحدث عن مصب نهر بورجُرج، كما لو أنه يشابهه. غير أنه كان نهري الوحيد، الذي كنت قد رأيته لأول مرة حين غادرت منزل لالا أسمى، والذي كنت اجتازه كل يوم لأعود إلى دوار تبريكة.

كنا نجلس في المقاهي نتحدث. كان حكيم طويلاً ونحيفاً، أنيقاً على الدوام ببزته السوداء. كان يروي أشياء غريبة. ذات يوم، حمل لي كتاباً صغيراً مهترئاً، قرأته أيادٍ كثيرة ملطخة بالشحم. كان عنوانه «معذبو الأرض» لكاتبٍ يدعى فرانز فانون. ناوله حكيم لي خفيةً: «أقرئيه، ستفهمين الكثير من الأشياء.» لم يرد أن يقول لي عن ماذا. فقط، وضع الكتاب على طاولة المقهى أمامي. قال: «حين تنتهين، يمكنك أن تعطيه لأحد آخر». وضعت الكتاب في حقيبتي، دون أن أسعى إلى معرفة المزيد.

لم يكن يحب نونو. كان يقول إنه مثل طائر، ينطنط، يتمتع، يتعطر، وهذا كل ما يستطيع عمله. لم يكن يحترم مهنته كملاكم، يصفه بالمرتهن aliéné[1]، بيدق البيض، لعبتهم، وحين يُكسر، سيرمونه في القمامة. كان يدعوه بالطفيلي، لأنه يسكن لدى صديق، عند إيف الغامض الذي كان مسافراً إلى تاهيتي، في الطرف الآخر من العالم. حقدتُ عليه، لأن نونو لا يستحق أن يقال عنه سوء. كان هناك شيء لا يريد حكيم أن يقوله لي، شيء في حياة نونو. أراد حكيم أن يحذرني عدة مرات. كان يبدأ: « هل تعرفين ماذا تعني كلمة aliéné؟» قلت: «مجنون، أليس كذلك؟» ابتسم حكيم ابتسامته الساخرة الشهيرة. «جواب سيء، لكن ربما ينطبق في العمق عليه.» غير أنه كان لا يريد أن يتابع الحديث عنه.

في أحدٍ ماطر، اصطحبني إلى بورت دوريه، لرؤية متحف الفنون الأفريقية. أظن أني لم أكن قد دخلت متحفاً من قبل.

---

(١) تعني كلمة aliéné مجنون أو معتوه غير أنها أيضاً تعني مرتهن أو مستلب

في المتحف، كان حكيم مفعماً بالحماسة، بل مهووساً. لم أره من قبل بهذا الشكل. أخذ يدي: «انظري، أقنعة شعب الفون fon» كان يتحدث بصوت مخنوق بارد العاطفة. «انظري يا ليلى، نسخوا وسرقوا كلّ شيء. سرقوا التماثيل، الأقنعة، سرقوا الأرواح، حبسوها هنا، في هذه الجدران، كما لو أن كلّ هذا ما هو إلا زينة رخيصة، مجموعة من الأشياء، كما لو أنها أشياء تباع في محطة مترو تولبياك، رسوم ساخرة، مواد بديلة.» لم أكن أفهم جيداً ما كان يقول. كنت أشعر بيده تعصر يدي، كما لو أنه كان خائفاً من أن أهرب. «أنظري إلى الأقنعة، يا ليلى. إنها تشبهنا.إنها سجينة، و لا تستطيع أن تعبّر. إنها مقتلعة. غير أنها في الوقت ذاته أصل كل شيء موجود في العالم. إنها متجذرة عميقاً في الزمن، كانت موجودة حين كان الناس يعيشون هنا في خنادق تحت الأرض، وجوه مسودة من السخام، أسنان مكسورة من العوز.» كان يقترب من الواجهات الزجاجية، يضغط بقبضته. «آه يا ليلى، يجب أن تتحرر. يجب أن تُحمل بعيداً عن هنا، يجب إعادتها إلى هناك، من حيث أُخذت، في أروشيكو Aro Chuku، أبومي Abomey، بورغوس Borgose، كونغ Kong، في الغابات، في الصحراء، في الأنهار!» اقترب الحارس فجأة قلقاً من الصياح و قبضة حكيم التي تدق على الزجاج. غير أن حكيم قادني بعيداً، كان يُبهت أمام خزانة عرض فيها بقايا فخار مكسور، عصي للحفر، نوع من المجارف الخشبية. «أنظري ليلى: إن أصغر الأشياء من هناك هي ثروة، جوهرة رائعة.» شاهدت قناع الدوغون dogon بفمه الحانق، وقناع سونغي songye، الشبيه بالموت، والمملوء بالبثور، ودمى أشانتية ashanti واقفة كجيش من الأشباح، والوجه الطويل للإله فانج، عيونه مغلقة كما لو أنه يحلم. نظرت إلى الأواني القديمة إلى الأطراف الخشبية المسودة ، التي أتلفتها الأيدي، وشوهها الزمن. لم أعد أعرف ماذا كانت الكتابة تقول. أعتقد أنها شيء من

لغة الأشانتي. كما ترين، إنها عظامنا وأسناننا، إنها أجزاء من أجسادنا، لها لون جلدنا، تضيء الليل كقطع زجاجية لامعة. ربما كان مجنوناً، هو أيضاً، في الوقت ذاته، كان ما يقوله يجعلني أرتعش، كان عميقاً كالحقيقة. مشينا أيضاً في المتحف، أمام التروس والطبول والتمائم. حتى أنه كان يوجد قارب مصنوع من قطعة خشبية واحدة، متآكل قليلاً بفعل ديدان الخشب، بدا كل ذلك كما لو أنه أحمال سفينة غارقة، ظهرت حين تراجعت مياه النهر المجهول.

لكن الصوت الرخو لخطوات الحارس كان يثير حكيم، وخرجنا من المتحف بسرعة. كان يكتم غيظه. قال لي: «أرأيت؟ كان يراقب كي لا أسرق شيئاً. كي لا أحمل راكضاً عظام أجدادي.» كانت تعابير التعب تبدو عليه، ويبدو كما لو أنه أكبر عمراً. «هل رأيت؟ هذا الحديد، وهذه الحواجز الحديدية، على شكلٍ.. لا أعرف ما هو، رماح صغيرة، أسهم، بزة بانانيا Banania!»

بعد ذلك أخذنا القطار إلى إيفري كوركورون Evry - Courcouronnes لزيارة جدّه.

كان الحاج مافوبا يعيش وحيداً في بناءٍ أبيضٍ كبير على طريق فيلابي Villabé، بالقرب من الطريق الكبير. كان المصعد معطلاً. كان باب المدخل مشققاً، وبلاط الدرج مغطى بصفائح معدنية. كان هناك أطفال في كل مكان. فيما كنا نصعد، كان هناك صبيٌ سمينٌ ينزل كل أربع درجات معاً، وصوت امرأة عالٍ ينادي: «سلفادور! أين تذهب ?Adonde vas » كان هناك مجموعة من الشباب العرب يدخنون جالسين على الدرجات، وفي الأعلى قليلاً، صبيتان تنزلان وشقراء صغيرة بنظارة تصرخ: «اللعنة، انتظراني! أنا التي جعلتكما تخرجان.» فيما الصبيتان تقولان لها: «بسببك أيتها الخنزيرة الصغيرة سنخرج فقط حتى الساعة السادسة.»

كان الرجل العجوز في غرفته وحيداً، جالساً على كرسي حديدي أمام النافذة، كما لو أنه يستطيع رؤية الأشياء في الخارج.

«طاب يومك يا جدي.»

وضع الحاج يديه على وجه حفيده مبتسما ثم مدّ الرأس.

«هل اصطحبت معك أحداً؟»

ضحك حكيم. «لك أذن قوية، لا يمكن غشك يا جدي.»

«من هو؟»

قادني حكيم إليه. وضع يديه على وجهي، ماسحاً بنعومة خديّ، وأصابعه المنفرجة تلمس أجفاني، أنفي، شفتّي.

تمتم: «إنها تشبه مريم، من هي؟»

تمتمت اسمي. كان حلقي مشدوداً. كانت المرة الأولى التي التقي بها برجلٍ مدهش لهذه الدرجة. كان وسيماً جداً، وجهه بلون حجر أسود، متغضن، شعر أبيض مجعد يرسم هالة. لم يكن هناك كرسي آخر، لذا جلست على الأرض مستندة إلى الحائط، فيما كان حكيم يغلي الماء للشاي.

كان الحاج يتكلم بهدوء وببطء، بصوتٍ أجش، يضغط على الكلمات التي كان يختارها بعناية. لم يكن كلامه موجهاً لي أو لحفيده. كان يفكر بصوت عالٍ، كما لو أنه يفتّتُ ذكرياته. ومن ثم، وهو يحتسي كأس الشاي، تكلم ببساطة عما كنت أنتظره، نهر السنغال الكبير الذي تجري فيه المياه الحمراء وقوافل الشجر اليابس والتماسيح. كنت أنصت إلى صوته، تارة خشناً وتارة رخيماً، يتكلم عن قرية مولده، التي تدعى يامبا مثله، قرية ذات جدران

طينية ترسم عليها النساء بإصبع مبلول باللون القطيفي. حدثني عن أبيه وأمه والأطفال العشرة الذين أنجبهم، عن ضوضاء أصوات الصباح، كان عليه، وهو الأصغر، أن يسير ساعتين للوصول إلى مدرسة النهر وأن يرتل القرآن حتى المساء. أثناء كلامه، كان يدندن، يؤرجح أعلى جسده، كما لو أن عمره ثمانية أعوام، وكان صوته يصبح مرتفعاً وواضحاً مثل صوت طفل.

«اسكت يا جدي، ستصيب ليلى بالملل..» ظلّ حكيم واقفاً قرب الباب، كما لو أنه سيغادر.

«أصيبها بالملل؟ أنت الذي لا يريد؟» وجه كلامه إلي، مديراً وجهه المضاء بضوء النافذة إلى الجنب. «لا يريد قراءة القرآن، لا يريد أن يسمع الكلام عن النبي. لا يحب إلا هذا.. خاصته.. ما اسمه؟ فانو... خاصته..

- فانون.

- نعم، فانون، فانون، أعترف أنه يقول أشياء جيدة. غير أنه ينسى الأهم، الأكثر أهمية.»

صمت صمتاً طويلاً، لأقول:

«حاج، ما هو المّهم؟

- الإنسان الذي لا شأن له كنزٌ في عيون الله.»

بما أن حكيم قد غضب، صحّح العجوز بتهكم:

«لنترك ذلك. إنه لا يؤمن. و أنت يا ليلى، هل تؤمنين؟

– لا أعرف.

– لكن صاحبه... فانون يقول أشياء صحيحة، فمن الصحيح أن الأغنياء يأكلون لحم الفقراء. حين جاء الفرنسيون إلينا، أخذوا الشباب

ليعملوا في الحقول والفتيات ليخدموا طعامهم، ليطبخوا وليناموا معهم في أسرتهم، لأنهم تركوا نساءهم في فرنسا. وليخيفوا السود الصغار، جعلوهم يعتقدون أنهم سيأكلونهم.

- وأرسلوهم إلى المذابح في فرنسا، في حقول المعارك، في تريبوليتين «Tripolitaine».

غضب الحاج.

«لم يحدث ذلك، كنا نقاتل عدو الإنسانية.

-هل كنتم تعرفون لماذا كنتم ستموتون؟

-كنا نعرف....»

ملأ الصمت المكان، حين كان الحاج يدخن سيجارته شارداً أمام النافذة المفتوحة. كان المطر يسقط بهدوء. كان الحاج يرتدي قميصاً أفريقياً طويلاً ذا لون أزرق باهت محاطاً بالأبيض، دون قبة، وسروالاً أسود، ونعلين كبيرين من الجلد الأسود المبرنق، وجوربين من الصوف. لبث صامتاً، يجلس باستقامة على كرسيه، فيما السيجارة بين أصابعه الطويلة.

حين غادرنا، مسح وجهي، لامساً عينيّ وشفتيّ. وقال ببطء، كما لو أنه يباركني: «كمّ أنت شابة يا ليلى. ستكتشفين العالم، سترين، هناك أشياء جميلة في كلّ مكان في العالم، ستذهبين بعيداً لتجديها.» شعرت برجفة احترام وحبّ.

عند الخروج من البناء، عند هبوط الليل، رأيت للمرة الأولى مخيم الغجر، في الأرض الموحلة بين مسالك الطريق الكبير، كغرقى في جزيرة.

-٩-

وهكذ، اعتدت زيارة الحاج. كنت أذهب مرة واحدة كل أسبوع، أكثر أو أقل قليلاً. لم يكن ينتظرني، أو على الأقل لم يكن يشعر أنه قد استطاع الانتظار. حين أدخل إلى الغرفة الصغيرة، لايوجه كلامه إلى حكيم. كان يعرف أني هنا، يدير رأسه: «ليلى؟». كان حكيم يقول بأن المكفوفين لهم حاسة أخرى، يدركون الروائح بشكل أفضل، مثل الكلاب.

في القطار المتجه إلى إيفري، كانت هناك شلة من الصبيان والفتيات، بالكاد تتجاوز أعمارهم اثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً، لازالوا أطفالاً، ذوي ثياب رثة، يرددون كلاماً بذيئاً، ويصخبون، مع ذلك كنت أحب رؤيتهم. كانوا يسلونني، يمررون سيجارة، يتقززون، يطلقون كلاماً بذيئاً، وهم يرون بطرف أعينهم أثر ذلك على سكان الضواحي المتذمرين. قبل إيفري بقليل، صعد مفتشان لإيقافهم، هربت شلة الأطفال قفزاً عبر النافذة إلى الأرض، تماماً قبل المحطة. يتدلون إلى الخارج معلقين بالنافذة الزجاجية، ويقفزون صائحين.

هكذا التقيت جانيكو.

كنت أغادر منزل شارع جافلو باكراً، لأعمل ساعة أو ساعتين في الحي، كنت أقوم بالأعمال المنزلية عند بياتريس التي كانت محررة في

صحيفة، في الدائرة الخامسة، وعند زوج وزوجة متقاعدين في شارع جان دارك. كانت حورية تبقى لتقوم بالطبخ، كانت تخرج عند الظهر لتتنزه وحيدة، ببطنها المنتفخ، في حديقة الأبنية، فوق رؤوسنا. وقد تعرفّت على السيد في، فيتنامي يدير مطعماً في حينا.

لم أكن أرى نونو كثيراً. حين أخرج، يكون نائماً في صالة الكاراج، على أوراق الكارتون. منذ أن قام باحتضاني، بعد وصولي، لم أدْعُه ينام مقابلي. لم أكن أريد. كنت أخاف أن يصل الأمر إلى شيء كبير، تعرفون ماذا أريد أن أقول. أظن أن ذلك جعله حزيناً جداً، غير أنه ظل لطيفاً معي، كأنه لم يحدث شيء.

بعد الظهر، كنت أذهب للقاء حكيم في مقهى بالقرب من السوربون. كان حكيم يدعوه بمقهى الديزسبرانس (اليأس) لأنه يشبه مدخل جهنم، كما يقول. كان يحضر الكتب والدفاتر، وأبدأ بالعمل. قرر أنه عليّ أن أحرق المراحل وأن أقدم الشهادة الثانوية كمرشحة حرة. لم تكن لدي أية مشكلة في اللغة الفرنسية والتاريخ والفلسفة. لقد كانت دروس لالا أسمى استثنائية، أدبتني في العمر الذي يذهب فيه الآخرون إلى اللعب بالعرائس أو يبقون فيه لساعات أمام الرسوم المتحركة. جعلني حكيم أقرأ مقاطع من نيتشه وهيوم Hume ولوك Locke وبويتي Boétie. أحضر لي نسخاً مصورة. كان يهتم بذلك من كلّ قلبه. أظن أن ذلك أصبح، فجأة، أهم بالنسبة له من أن ينجح هو في امتحاناته.

باح بالسر لجده، وحين كنت أذهب إلى إيفري كوركورون، يسألني الحاج: «إلى أين وصلت في الفلسفة؟» كنا نتناقش في مشاكل الأخلاق والعنف

والتربية والأفكار الاجتماعية والحرية، الخ. كان دائماً يقول أشياء جميلة جداً، كما لو أنها تجيء من عمق الزمان، وكما لو أنه وجدها سليمة في ذاكرته.

كان يردد: «أن الله فلق الحب والنوى، وأخرج الحي من الميت والميت من الحي.» وكان يردد أيضاً: «ما أدراك ما القارعة؟ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش» ويقول: «قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد» كان يدير وجهه نحو النافذة، وكأن الكلمات تجيء من داخله، عذبة صادحة.

كان يكلمني عن النبي، وعن بلال، عبده، الذي كان أول من نادى إلى الصلاة. بعد الهجرة، وحين لفظ النبي أنفاسه الأخيرة على ذراعي عائشة، عاد بلال إلى أفريقيا، وجال في الغابات إلى أن وصل إلى نهرٍ كبير قاده إلى شاطئ المحيط. كان يتكلم عن ذلك كما لو أنه عرف بلالاً، كما لو أن ذلك حدث في عائلته، كنت أرى حكيم جالساً على الأرض، ينصت إلى كلامه. أبداً لم أنس قصة بلال، كانت أيضاً قصتي.

كان حكيم يريدني أن أراه في المدينة الجامعية في أنتوني. كان هناك عالمٌ آخر. لايشبه شارع جافلو، ولا محطات المترو، بعيداً عن كوركورون. كانت كبيرة محاطة بحدائق جميلة خضراء مثل الريف، تمتلأ بطيور العقعق والشحاري. كان هناك طلابٌ من كل العالم، أمريكيون، إيطاليون، يونانيون، يابانيون، بلجيكيون، وحتى أتراك ومكسيكيون. دعاني حكيم إلى المطعم الجامعي، دفع ثمن طعامي بتذاكر. أكلت رافيولي ولازانيا وأطباقاً لا أعرفها. وكحلوى جربت القشدة وبروفيترول و فطيرة التفاح ولوزية. كان حكيم ينظر

إلي وأنا أتخم نفسي بالطعام، كان يسليه ذلك. أما هو كان معتاداً. كان بالكاد يأكل، كان يقضم طرف بسكويت، كان يرى كل شيء مقرفاً.

بعد ذلك، أراد أن أصعد إلى غرفته. قال إنه يريد أن يطلعني على كتبه. غير أني لم تكن لدي الرغبة في أن اختلف معه. كنت أعلم أنه يريد أن يقبلني، ولم أكن أريد أن يصل الأمر إلى هذا الحد معه. أردت أن نبقى أصدقاء، ونتابع الذهاب إلى الحاج، لسماع كلامه عن النبي.

كنت أعرف أن ذلك يضايقه. كان غيوراً، لأنه كان يعتقد أن نونو صديقي. لكنه لم يكن يتجرأ على قول شيء. ذهبنا إلى الصالة، وجلسنا على الأريكة، وأخرجت من حقيبتي **ما وراء الخير والشر**. «اشرح لي، لماذا يتحدث نيتشه عن العقد. قلت لي إنه لم يبتدع شيئاً، وأن هيوم هو الذي قال أن كل المجتمعات تقوم على عقد.» نظر إلى من وراء عدستيه. كان يبدو رجلاً قاسياً بسكسوكته ونظاراته. أظن أنه كان يريد أن يتشبه بمالكوم X، ولذلك لا يخرج أبداً دون أن يكوي قمصانه البيضاء ويختار ربطة عنقه. لم يكن يريد أن يشبه أفارقة نانتيرNanterre أو أنتيي سول Saules بضفائرهم. كان يكره كل ذلك، وفي الوقت ذاته، كان يعاني لأجلهم. ذات يوم، قال لي: «أتعلمين ما الذي يجعلني أتألم أكثر؟ النظر إليهم والتفكير في أن نصفهم لن يصل إلى عمر الرشد. كأنك في أروقة الموت.»

كان يتكلم أيضاً عن أفريقيا، عن تصفية الحسابات، وعن مرتزقة بيافرا، وعن الأطفال الذين يموتون من الجوع والسيدا والكوليرا.

كان يحب نيتشه كثيراً، مع ذلك كان يفضل فانون. كان يقرأ لي مقاطع من **السادة والعبيد** لروبرتو فراير Roberto Frayre. غير أنه لم يكن يحب

الرواية، ولا الشعر، ما عدا محمود درويش و تيماجن هوات Timagene Houat. «الرواية سيئة للغاية، لا توجد فيها الحقيقة ولا الكذب، فقط الريح.» كان عند اللزوم يقبل برامبو وجون دون John Donne، غير أنه يرى أن رامبو تكلم عن السود بشكل سيء، وأنه شارك بالتجارة غير المشروعة. ذات يوم قلت له: «في العمق، أنت تفكر مثل جدك، بأن كل شيء ذكر في القرآن». ظننت أنه سيغضب، لكنه بعد تفكير، أجابني: «هذا صحيح، لا يمكن أن يكون هناك شعر أكبر من ذلك، شيء مرعب بأن كل شيء قيل قبل أكثر من ألف عام، وبأننا لا يمكن أن نفعل أفضل منه». قلت: «إذاً ربما أننا نقوم بفعل الأسوأ؟» نظر إلي بدهشة، أظن أن ذلك شيء لم يستطع فهمه.

كان لدي حياتان. في النهار، مع حورية، والعمل المنزلي عند المحرّرة، والتسوق في الحي الصيني، حيث يجدني كل الناس لطيفة. حتى إني كنت أذهب لرؤية نونو في التدريب في صالة الملاكمة، في بارباس Barbès. ومن ثم مواعيد الدراسة مع حكيم والسوربون، أو بالقرب من شارع أساس Assas، كان فخوراً بتقديمي لرفاقه الطلاب: «إنها ليلى، عصامية. ستتقدم إلى امتحان الشهادة الثانوية كمرشحة حرة هذه السنة، في القسم الأدبي.»

في الليل يتغير كل شيء. أصبح صرصوراً، وأذهب لملاقاة الصراصير الأخرى، في محطة تولبياك، وأوسترليز وروميرسيبستوبول. حين أصل من النفق وأسمع ضربات الطبل، أرتعش. كان شيئاً ساحراً، لا يمكنني مقاومته. كما لو أني اجتزت البحر والصحراء مجذوبة بهذه الموسيقى.

كان الأفارقة في الباستيل أو سان بول، أما الأنتليين فقد كانوا في رومير سيبستوبول Réaumur-Sébastopol. أحياناً، كانت سيمون تتواجد هناك. عرفني نونو عليها، للمرة الأولى. كان هناك الكثير من الناس في الأنفاق، غير أني نجحت في أن أندس في الصف الأول. كانت طويلة، شديدة السواد، بوجه مستطيل طويل قليلاً وبعيون مقوسة، كانت قد صففت شعرها بتكعيبة مربوطة بربطة حمراء، تلبس ثوباً أحمر غامقاً طويلاً. خيل إلي أنها تشبه مصرية. قال نونو: «إنها سيمون، هايتية». كان صوتها خفيضاً، مؤثراً، حاراً، دخل أعماقي، ووصل جوفي. كانت تغني بلغة الكريول، بكلمات أفريقية، غنت رحلة العودة عبر البحر، التي يقوم بها سكان الجزيرة حين يموتون. كانت تغني واقفة، دون أن تتحرك، ومن ثم فجأة بدأت بالدوران وهي تضرب وركيها، وارتفع ثوبها الطويل حولها. كانت جميلة جداً بحيث إني دهشت لذلك.

تحدثنا ذات مساء. كانت هناك مباغتة للشرطة، وتفرق جميع الناس. كنا وحيدتين في المحطة، في آخر نفق طويل. كان يجب أن نعبر. أعطيتها تذكرة، وركبنا المترو باتجاه ساحة إيطاليا، جلست على مقعد، وأنا بجانبها. كانت تبدو في العربة المتسخة كما لو أنها أميرة، بأجفانها الكثيفة، وبشفتها السفلى المخططة، وبوجنتيها الواسعتين والناعمتين. سألتني عمن أكون، ومن أين جئت. لا أعرف لماذا، قلت لها ما لم أبحه لأحد، لا لنونو ولا لماري هيلين ولا لحكيم، بأني لا أعرف من أنا، من أين جئت، بأن أحدهم باعني، ذات ليلة، مع أقراط أذني التي تمثل هلالاً. حدقت بي للحظة طويلة، وابتسمت لي، أعتقد أنها كانت متأثرة. شدت يديّ، كانت يداها واسعتين وحارتين، قويتين. قالت: «أنت مثلي، ليلى. لا نعرف من نحن. لم يعد جسدانا معنا.» كان سماعها شيئاً غريباً وهي تتكلم بهذه الطريقة، مع اهتزاز العربة ولمعان أضواء المحطات التي تعبر على وجهها، والتي تضيء قزحيتيها بسمرة شفافة مثل حجر كريم.

أخذتني إلى منزلها. كانت تسكن منزلاً بحديقة صغيرة، في شارع صغير، يحمل اسماً غريباً، هضبة طيور السمان. كانت تعيش مع صديقها، طبيب هايتي، طويل جداً ونحيف، أنيق، وأناس أخرون من هايتي، والدومينيكان أيضاً. كانوا معاً يتكلمون هذه اللغة العذبة والسريعة، التي لا أفهمها. لو لم تكن سيمون، لكنت قد غادرت بسرعة، لأن هؤلاء الناس كانوا يخيفوني، ولاسيما مارسيال جويو، صديق سيمون، الذي كان ينظر إلي بعين ثابتة، كما لو أنه كان يريد أن يقرأ روحي. كان هناك أيضاً بعض البيض، رجل مسن، ناقد فني، يشبه قليلاً السيد دلاهاي، نساء يرتدين ملابس أفريقية، وعقود ثقيلة رخيصة من النوع الذي يبيعه حكيم. كان دخان السجائر والحشيش يثير حلقات حلزونية ثقيلة تلتف حول أشعة البقع المضيئة، والتي تتبع حركات الموسيقى البطيئة التي تبدو كما لو أنها تخرج من كل الجوانب، من الأرض، وحتى من النوافذ.

لم ينشغل بي أحد. كنت واقفة أمام مدخل الصالة، أدخن وأنا أحاول رؤية سيمون، تكعيبة شعرها القرمزية، وقرطها الذهبي.

جاء الناقد الفني نحوي، وقال لي شيئاً ما بصوت منخفض، وبما أني لم أفهم، مال نحو أذني ليعيده. «يا له من شيء رفيع» أظن أن هذا ما قاله. «إنه كلّ روح سائر الشهداء والقديسين» لم أقل نعم أو لا. ربما كان يظن أني لا أفهم. نظرت إليه مباشرة، وبقوة، كي يسمع وسردت أبياتاً لأيمي سيزار Aimé Césaire:

رقصاتي لي

رقصات زنجي شرير

رقصاتي لي

رقص سجين

رقص سجين يفر

جميل وحسن وشرعي أن يكون الرقص زنجياً

نظر إلي الناقد دون أن يتحرك، ثم انفجر في التصفيق. كان يصرخ: «اسمعوا، اسمعوا هذه الفتاة، لديها شيء تقوله لكم!» وبدأت سيمون تغني، فقط لي. عرفت أنها كانت تغني لي لأنها كانت تقف في آخر الصالة وتمد يدها نحوي، كان صوتها يغني كلاماً بالفرنسية، عذباً ينسل مع موسيقى الطبول.

بعد ذلك، دخنت الحشيشة. كنت سابقاً في أمكنة تُدخن بها. في الفندق، كانت الأميرات يجتمعن، من وقت لآخر في غرفة من الغرف ويدخنون دورياً، كانت رائحة الورق تنتشر، تارة فظة ، تارة محلاة. كان ذلك يخترقني، ويجعلني أنام.

لم يكن الأمر مماثلاً الآن. قدم لي أحد الهايتيين سيجارة، ولأنه كانت هناك موسيقى، وكان صوت سيمون يتلوى بعذوبة، استنشقت الدخان، بقوة، كما لو أني أردت أن يخترقني من جزء إلى آخر. شربت الكحول أيضاً، ويسكي، بيرة، روم. أذكر أني لم أعد قادرة على الوقوف. بالطبع، كنت ثملة تماماً، كنت واعية، ولكني ثملة حقاً، كما يظهر ذلك في السينما أحياناً. كنت واقفة أمام سيمون، وكنت أغني أنا أيضاً، أعيد كلامها، وأرقص. كنت ثملة، غير أني لم أفقد وعي، على العكس. كل شيء أصبح واضحاً. كنت أعيد كلام الأغنية أولاً بأول، على إيقاع طبل صغير، والتي تقول:

أسمع المدينة التي تخفق

في قلبي في دمي

نحن

بعيداً ضائعون

كان الجميع يتمايل كما لو أن هناك زلزالاً، رأيت الجدران تموج، وظلال الناس تتسل، واللون القرمزي لتكعيبة سيمون يكبر، يملئ كل الصالة. انشغل الدكتور جويو بي. مددوني على الأريكة، ومسحت سيمون وجهي بمنشفة مبللة بالماء البارد. كانت حركاتها عذبة، ملأى بالأمومة. كانت تتكلم ببطئ، وكنت أشعر كما لو أنها تتابع الغناء. لي فقط، بصوتها الخفيض، الأبح قليلاً، لكن، لم يكن في أذناي القرع العذب للطبل، بل كان صوت قلبي.

غادر الناس جماعة وراء جماعة. ربما كانوا خائفين من أن أسبب مشكلة. كانوا أناساً مرموقين، نقاد فن، سينمائيين، سياسَيين. إنهم هؤلاء من يغادر دائماً أولاً.

تشاجر صديق سيمون معها قليلاً. شيء غريب، أسمع صوتهم بعيداً، كما لو أني أطير فوق جسدي، وكما لو أنهم كانوا يتكلمون أمام شخص آخر. فيما بعد، تركوني على الأريكة وذهبوا إلى الغرفة. كنت أسمع الصوت الخفيض للطبيب، وصيحات سيمون. في البداية، كما لو كان يضربها، ومن ثم بدأت تتأوه بانتظام، حينها فهمت أنهما يمارسان الحب.

كنت أرتعش برداً من الحمى. ذهبت مرة إلى المطبخ لأتقيأ، كنت أتمايل، أوقعت بعض الكراسي. كان هناك هايتيان لا يزالان يشربان. حينما

وجداني في هذه الحالة، ذهبا ليحضرا طبيباً. سمعتهم وهم يتكلمان عني بلغة الكريول، وكان مارسيال جويو يقول: «ربما تكون قاصراً، من الأفضل أن نوصلها لمنزلها.» أظن أنه اتصل هاتفياً بالعديد من الناس إلى أن وجد حكيم. وهكذا حصل على عنوان الكراج في شارع جافلو. بدأت أفهم أن العالم ضيق، حين نجتذب الخيط الصحيح، يجيء الكل. أي أن هؤلاء الذين يجمعهم شيئاً ما مربوطون ببعضهم بعضاً، ويجلبون كلّ الآخرين. مثلي ومثل نونو نرتبط مع المهمشين. كنت أفكر في كل هذا حين كان صديق سيمون يتهاتف. كان دماغي يغلي. في ذات الوقت كنت أشاهد وجه سيمون، عينيها الكبيرتين، عيني المها، اللتان تحملان الحزن العميق، وفجأة فهمت لماذا قالت إننا متشابهتان، وإننا نحن الاثنتان لم نعد نملك جسدنا، لأننا لم نكن نريد شيئاً وأن الآخرين هم من يقررون مصيرنا.

بقيت في المنزل الصغير عندما أوصلني مارسيال وأحد أصدقائه بالسيارة. في الخارج، كان الجو ماطراً. كانت برك الماء تتهادى على الطريق الأسود. فيما السيارة تسير في الشوارع الساكنة والخالية. أظن أنهما كانا يبحثان عن صيدلية مناوبة، حيث اشترى الطبيب الدواء لي. ووضعاني في الشارع، أمام الباب. أنزلاني، وأجلساني مرتكية على باب الكاراج. نظر مارسيال جويو إلي بصمت .

قال صديق الطبيب عبارة بلغة الكريول. لم يكن الأمر يعنيني. يمكن أن يكون ذلك بلغة جاوا javanais. ومن ثم ذهبا، انعطف المصباحان الأحمران، واختفيا.

-١٠-

وجاء الشتاء... لم أشعر أبداً بمثل هذا البرد. منذ زمن بعيد، حدثتني تغادير عما يحدث في فرنسا خلال الشتاء: السماء الرمادية السوداء، الأضواء التي تضاء في الشوارع في الرابعة مساءً، الثلج، الجليد، والأشجار العارية، التي تتلوى مثل أشباح. لقد كان أقسى مما وصفته.

ولد طفل حورية في شباط. حين ولد، تخيلت بأنه ربما للمرة الأولى يلد طفل تحت الأرض، بعيداً عن ضوء النهار، كما لو أنه ولد في عمق كهف كبير.

ربما لأجل ذلك، بدأت أفكر في الجنوب، في العودة نحو الشمس. كي تلمس الشمس جسده، كي لا يستمر في تنفس الهواء الفاسد لهذا الشارع الذي لا سماء فيه.

كنت مع نونو نضع مخططات. كان سيربح مباراته في وزن الريشة، وسيتمكن من شراء سيارة، وسنذهب إلى الجنوب مع حورية والطفل عبر الطريق الكبير الذي يمر عبر إيفري كوركورون، بحاراته الثمانية التي تشبه نهراً. سنذهب إلى كان ونيس ومونت كارلو وحتى روما في إيطاليا. سننتظر شهر نيسان أو أيار، حتى يكبر الطفل ويستطيع تحمل مشقة السفر. أو حتى حزيران، بما أنني سأتقدم إلى امتحان الثانوية العامة. لكننا لن نذهب بعد ذلك، لأن ذلك سيكون متأخراً وبعد مدة طويلة، ولن نغادر. سيكون حزيران مناسباً.

جرت مباراة الاختيار في الثامن من الشهر. كان نونو يتدرب طيلة الوقت. حين لايكون في صالة بولفار بارباس، كان يلاكم في كاراجه، فقد صنع كرة ملاكمة من كيس بطاطا حشاه بخرق القماش.

كان الجو بارداً في شارع جافلو. لحسن الحظ، كان نونو قد أحضر مدفأة كهربائية، والتي كانت تهب مصدرة صوتاً كصوت طائرة. وكيلا تنفق الكثير، أراني نونو كيف لعب بالعداد عن طريق حفر ثقبٍ صغير إلى جانب الغطاء المعدني ليعطل دورانه بسنارة صوف. حين تكون هناك مخاطرة في حضور مراقب العداد، كنا ننزع السنارة ونخبئ الثقب الصغير بمعجونة لينة زرقاء. كانت النقود تتناقص. كان نونو يتدرب، وليس لديه الوقت الكافي ليعمل والمنحة بالكاد كانت تكفي. حين يعود في المساء، يكون قد هده التعب. وعده نائبه الاشتراكي ببطاقة إقامة إن ربح المباراة، وكان لا يريد أن يفوت الفرصة. في الأيام الأخيرة كانت حورية مثل ملكة النحل. تظل ممددة على السرير، بجانب الشوفاج الهادر، الضخم والعديم الجدوى، بوجهها المنتفخ من الحمل. كانت لا تريد أن تهتم بها مشرفة اجتماعية، ولم تكن أيضاً تريد طبيباً. كانت خائفة من أن يوشى بها للشرطة، وبأن تعاد إلى زوجها. كانت آمنة تحت الأرض كعنكبوت في بيته، تصنع طفلها. لا أحد يستطيع أن يجدها هنا. كان الخطر الوحيد هو صديق نونو، غير أنه حسب الأخبار الأخيرة، كان مسروراً في بورا بورا. ولم يكن هناك احتمال كبير في أن يحضر إلى باريس وسط المطر وتساقط حبات الجليد.

حين جاءت لحظة الولادة، طلبت حورية امرأة، وليس طبيباً. كان نونو مذعوراً. يركض في كل الاتجاهات، فاقداً عقله. بما أني لم أكن أعرف أين أذهب، ركبت القطار حتى إيفري كوركورون وذهبت إلى مخيم الغجر. عثر جانيكو على المرأة، تحدث معها بالغجرية، ووافقت على المجيء مقابل

خمسمائة فرنك. كانت تدعى جوزيفا، امرأة طويلة، مسترجلة قليلاً، بوجه طويل تقاطيعه بارزة، وبيدين قويتين. لم تكن تتكلم الفرنسية، لكنها أصبحت لطيفة حين حدثتها بالإسبانية. كانت تتحدث باللكنة الثقيلة لنساء غاليثيا.

أوصلتها بالقطار. قبل الذهاب إلى شارع جافلو، أرادت أن تقوم ببعض التسوق، لها وللأم المنتظرة. اشترت قطناً مشمعاً لاصقاً، كمادات، وأشياء شبيهة، واشترت أيضاً أعشاباً من عند الصيني، زعتر ومريمية ومرهم في علبة دائرية مزينة بنمر. وكذلك اشترت كوكا وبسكويت وسجائر.

في الكاراج، علقت شرشفاً في الغرفة التي توجد فيها حورية كي لا يزعجها أحد. وظلت ثلاثة أيام، دون أن تخرج، ودون أن تتكلم. أدركت أن الوضع سيء، كانت تشعل عيدان البخور، وتدخن السجائر. في هذه الأيام، لم نكن، أنا ونونو، نستطيع البقاء، فنبقى خارجاً طيلة الوقت. بعد العمل عند بياتريس، أذهب لألقاه في صالة التدريب، في بارباس. كان يلاكم ظله، ويقفز على الحبل. كنت أجلس في زاوية ما وأراقب حركته. كان كل الناس يظنون أني صديقته. حتى النائب الاشتراكي جاء يكلمني. لم يكون يدعوه نونو أو ليون، وإنما باسم عائلته أديدجو. كان يقول: «على أديدجو أن يعمل، يجب أن يتوقف عن الحماقات، قولي له ذلك.» أظن أنه كان يشير إلى علاقات نونو وإلى الأشخاص الذين كانون يحطمون المحلات والسيارات وإلى الأجهزة الصوتية التي يحضرها من وقت لآخر ومن ثم يبيعها. كان النائب رجلاً قصيراً، بشعر واقف، هيئته هيئة رياضي أو شرطي. لم أكن أحب أن يكلمني، ولم أحب أن يقول «أديدجو» كما لو أنه له الحق بذلك، كما لو أنه من ذات الطينة. حاول مرة أو مرتين أن يعرف وضعي القانوني، إن كان لدي بطاقة إقامة. لم أكن أحب أن يطرح علي أسئلة، ولم أحب أن يرفع الكلفة مع

جميع الناس، كما لو أنه لا يوجد فرق بينه وبيننا، لكنه ربما كان وديا. كانت ذراعه اليسرى مبتورة. ولأجل ذلك ربما كان يتجه نحو الناس، طالبا المساعدة منهم بصوت مرتفع: «أمسك، ساعدني على ارتداء كنزتي، إذا سمحت؟» كانت صداقته هجومية قليلاً. كان يقول لنونو في كل الأيام تقريباً: «بطاقتك قضية منتهية.» كما لو أنه يستطيع الحصول عليها مهما كان النظام.

أنجبت حورية طفلة. حين عدت من عند بياتريس المحرّرة، كانت الطفلة معلقةً على صدر حورية. فيما كانت القابلة متعبة، شربت عدة كؤوس من النبيذ، ونامت بعمق على الأريكة. حتى أن ضوء النيون لم يوقظها.

بدا النعاس أيضاً على حورية. كانت الغرفة تمتلئ برائحة قوية، من البول والعرق، رائحة فظة. لو كانت هناك نافذة في مكان ما لفتحتها بأكملها، لأدخل الهواء والشمس. أدركت أنه ينبغي أن تغادر الطفلة سريعاً وإلا لن تعيش تحت الأرض.

في الأيام التالية، عادت الحمى. كنا كلنا منهكين. كما لو أن كلّ واحدٍ منا وضع الطفل. كنا ننام بالمناوبة حسب أوقات الرضاعة. كانت حلمة ثدي حورية مشقوقة، وكان الإرضاع صعباً. كان هناك دم في سريرها. عادت القابلة، قدمت لحورية الحليب واليانسون، ومسدت لها ثدييها بمرهم دهني. كانت حورية ترتجف من الحمى، فيما كانت الطفلة تصيح. في النهاية، أرسلت بياتريس المحررة صديقة لها، وهي طبيبة مقيمة، واصطحبت حورية وطفلتها إلى دار التوليد. كانت مريضة جداً، حتى أنه تم نقلها على حمالة دون أن تقول شيئاً.

كنت أذهب لأراها بعد الظهر من كل يوم. كانت مع أمهات أخريات في غرفة جميلة بيضاء في الطابق الأرضي؛ كان يمكن عبر النافذة مشاهدة شجر السرو وجنبة الرّباط، وعصافير الدوري التي كانت تطير. حتى إن السماء

الرمادية كانت رائعة. كنت أحمل معي حلوى مجففة، وشاياً في ترمس. كنت أروي لحورية أي شيء لأجلب السرور إليها. كنت أقول لها بأنهم سيمنحون الطفلة اسماً. ستدعى باسكال، لأنها ولدت في اللحظة المناسبة، قبل أن يوضع المرسوم المتعلق بقانون الدم قيد التطبيق. كانت حورية موافقة، ولكنها كانت ترغب بإضافة مليكة، اسم أمها. وهكذا سميت الطفلة باسكال مليكة في القيد المدني، أرادت أن تعطي الاسم الحقيقي للأب، محمد، كي لا تكون الطفلة مجهولة الأب. حتى أن حكيم جاء لرؤيتها. نظر إلى هذا الشيء الصغير الأحمر والحي الذي يعصره النعاس في المهد، بجانب حورية. قال: «تبدو كفرنسية صغيرة.»

أصيبت حورية فجأة بالقلق: « هل سينتزعوها مني إذا عدت إلى منزلي؟» طمأنتها قدر استطاعتي. «لا أحد يستطيع انتزاعها منك، إنها لك، لا لأحد غيرك.» خيلّ إلي بأنها المرة الأولى التي فيها يكون لحورية شيء ما، وبالرغم من كلّ ما عانته، ومن قلق المستقبل، فقد كانت محظوظة.

غيّرت ولادة باسكال مليكة كل شيء في شارع جافلو. أدركت بأن أي شيء لن يكون كما كان سابقاً، وسكون التغير نحو الأفضل. لم تعد حورية تفكر في الرحيل. لم تعد تريد العودة إلى منزلها. الآن، لديها طفلة، لذا فإنها تشعر بقوة أكثر، ولم تعدّ المدينة ولا الناس يخيفونها. كل صباح، تلف الطفلة بشال كبير، وتذهب إلى الخارج، إلى الحديقة، إلى الشوراع، أو تزور صديقها، السيد في. ولكي تعمل، طلبتُ من بياتريس أن تشغلها بدلاً مني. اشترت بياتريس مهداً للطفلة، وكانت حورية تذهب كل صباح للعمل عندها. لم تكن بياتريس وزوجها قادرين على الإنجاب. لذلك كانا متأثرين من رؤية

هذه الطفلة التي تنام عندهما. اعتادت حورية بعد ذلك على تركها مدة أطول، حين تذهب للتسوق أو عندما تذهب لمتابعة دروس محو الأمية. كان لباسكال مليكة غرفة جميلة، فقد نقلت بياتريس وزوجها المكتب والأرفف المليئة بالكتب، وفرشا الغرفة بسجاد زهري اللون. كانت غرفة مريحة يدخلها ضوء الشمس. حين كانت حورية تعود إلى الثقب الأسود في شارع جافلو، في الليل، كانت الطفلة تصرخ وتبكي، لا تريد النوم. أخمن أنه منذ البداية، فكرت بياتريس وزوجها في تبني باسكال مليكة رغم أنهما لم يصرحا بذلك.

عدت لرؤية سيمون. ذات مساء عدت إلى محطة رومير سيبستوبول. بدا لي كما لو أني لم آتِ هنا منذ سنوات. حين سمعت صوت الطبل يدوي من بعيد في النفق، ارتعشت. لم أعرف أني كنت مشتاقة لذلك إلى هذا الحد. في ذات الوقت ، كلّ ما حدث مع ولادة الطفلة قد غيّرني، ربما جعلني أشيخ. كما لو أني أدرك الآن، ما كان وراء كلّ هذه الإيماءات وهذه الأفعال والمعنى الخفي لهذه الموسيقى.

في النفق، في تقاطع الممرات، كان العازفون يجلسون، يقرعون الطبول. كان هناك مَنْ أعرفهم، الأنتيلين والأفارقة، كما كان بينهم من لم أرهم أبداً، صبي بشعر طويل، ذي لون ذهبي، أظن أنه من سان دومينيكان. لم تكن سيمون تغني. كانت جالسة، ظهرها على الحائط، وجهها مقنع بنظارة سوداء. جلست بجانبها، وعندما عرفتني ابتسمت، غير أني رأيت أن وجنتها اليمنى متورمة.

«ماذا حدث لك؟»

هزت كتفيها ولم تجبني. كانت موسيقى الجامبي وجن–جن تدور رويداً رويداً، كانت بطيئة جداً، هادئة جداً. تدور تحت الأرض حتى الطرف الآخر من العالم، كي توقظ موسيقى الضفة الأخرى من الماء. مثل نشيد، مثل لغة. كنت بحاجة لذلك، كان ذلك يريحني، مثل صوت المؤذن الذي يعبر فوق السقوف ويدخل باحة لالا أسمى، مثل صوت أجدادي في بلاد بني هلال.

فجأة، كانت هناك إشارة تنذر بأن الشرطة قد وصلت، فغادر الجميع، الطبول، المشاهدون، ووجدت نفسي وحيدة مع سيمون، مثل المرة التي ذهبت بها عندها. طلبت مني بصوت مخنوق، قلق: «ليلى، هل أستطيع أن أذهب عندك الليلة؟» كانت تعرف أين أسكن منذ المساء الذي وضعني فيه مارسيال أمام باب الكاراج. لم أسألها عن السبب. عدنا على الأقدام عبر باريس، تحت رذاذ المطر.

أمضت عندنا يومين. ظلت دون حراك، ممددة على الفراش الذي أحضره لها نونو. كانت تشرب قليلاً من الكولا، ثم تنام ثانية. كانت سكرى من المخدرات. روت شيئاً مما جرى لها، لقد أصبح صديقها مجنوناً يتهمها بالخيانة، ضربها، وشارك أحدهم في اغتصابها. لم تكن تريد إعلام الشرطة. كانت تقول أن ذلك لن يفيد، لأن الدكتور جويو رجل مهم له أصدقاء في كل مكان، ويعمل في المشفى الرئيسي ولن يصدقها أحد.

ذات ليلة، جاء يبحث عنها. سمعت السيارة تتوقف وراء باب الكاراج. لا أدري كيف عرف أن سيمون تختبئ عندي. كان له جواسيس في كلّ مكان. لم يثر فضيحة. فقط، طرق على باب طوارئ الحريق، صوت خفيف سمعته رغم نعاسي. حين أضأت الضوء، رأيت سيمون جالسة على سريرها، عيناها الكبيرتان مفتوحتان، كما لو أنها تنتظره. كلمها بلطف من خلف الباب، بلغته

الكريول الرنيمة. قلت لسيمون: «هل تريدين أن أطلب منه أن يغادر؟» كانت نظرتها غريبة مسحورة، مرتعبة و مجذوبة في الوقت نفسه. رأيت وجنتها المتورمة، الدم الذي جف على قوس الحاجب، وشعرت بالغضب والعار. «لا تستمعي إليه، لا تردي عليه... سيذهب أخيراً.» إلا أن ذلك كان أقوى منها. بدأت سيمون بالحديث معه عبر الباب. لم تكن تريد إيقاظ الطفلة. كانت تشتمه بصوت منخفض، بالفرنسية أولاً ثم بالكريول.

فتح الباب في النهاية. تحت الضوء الخفيف، كانت سيارة المرسيدس متوقفة، بمصابيحها المضاءة. لم يكن هناك أي صوت آخر سوى هدير فتحات التهوية التي كان صوتها يقترب. ظلا طيلة الليل يتكلمان. استيقظت، في لحظة ما. كنت أشعر بالبرد. كان باب الكاراج مشقوقاً بحيث سمح بمرور هبة هواء رطبة. رأيت المرسيدس، وكانت أضواؤها مطفأة، وسيمون وصديقها يتابعان الحديث، جالسين في المقعد الخلفي. وفي الصباح غادرت معه، دون أن تقول لي أية كلمة. كان صُعباً عليّ أن أفهم كيف يمكن لامرأة مثلها أن تكون متعلقة برجل مثله إلى هذا الحدّ.

اعتدت الذهاب عند سيمون، بعد الظهر حين لا يكون مارسيال جويو موجوداً، كي أتعلم العزف والغناء. كانت تمضي اليوم تقريباً دون أن تتحرك، وحيدة في المنزل الصغير، هضبة طيور السمان، النوافذ مغلقة. كانت ترسم مثلثاً كبيراً بالشموع المضاءة، في الصالة السفلى، وفي الوسط تضع ما تحبه، فاكهة السوق، مانغا، أناناس، ثمرة البابيا. لم أكن أتجرأ أن أسألها عن السبب. لم أسألها عن شيء، ولأجل ذلك، كانت تحبني. كانت ساحرة ومدمنة أيضاً، تدخن الكراك بغليون أسود. كانت جميلة بعينيها الكبيرتين المصريتين، بجبهتها المحدبة التي كانت تلمع كمرمر أسود.

كانت تعزف على بيانو إلكتروني مربوط بمكبري صوت. كانت تجعل الصوت خفيضاً جداً، لأسمعه جيداً. قالت لي بأنه ينبغي أن أتعلم الموسيقى، لأن لي أذناً لا أسمع بها، وبأنه كان لكل الموسيقيين الكبار مشكلة ما، كانوا صماً أو عمياناً أو بكل بساطة مخبولين.

كان الدكتور جويو لا يعود في النهار، يظل طيلة الوقت في مشفى سالبترير، يهتم بالمجانين. كان هو ذاته مجنوناً.

لم يكن يحب ما تفعله سيمون مع شموعها وقرابينها، كان سيغضب لو عرف. غير أن سيمون كانت تخفي كلّ شيء قبل أن يعود، تنسق الشموع والبخور، وتعيد وضع السجادة والكراسي والكنابات في مكانها.

صمّمت على أن تعلمني الغناء. كنت أجلس بجانبها على الأرض، أتربع، وتمد ثوبها الطويل على ساقيها، مثل تويجة قرمزية. كانت تعزف باليد اليسرى على المفاتيح، بيدها العريضة الخفيفة التي تركض على العلامات، ثلاثة أو أربعة أو خمسة إيقاعات، أو توالف موسيقي أطول، كان عليّ أن أتبعها بصوتي. لأجل ذلك كانت تعزف بيدها اليسرى، كي تستطيع الغناء من الجهة المناسبة، بالقرب من أذني السليمة. لم أقل لها شيئاً، غير أنها كانت تعرف بأني نصف صماء. شيء لا يصدق أن يخطر ببالها أن تعلمني الموسيقى، كما لو أنها فهمت ما كان يوجد في داخلي وبأني أعيش لأجل ذلك.

كثيراً ما كنا نمضي بعد الظهر معاً، في منزل هضبة طيور السمان. نعزف الموسيقى، نشرب الشاي، ندخن، نثرثر. نضحك دون أن نعرف السبب. أحسست بأنه لا توجد صديقة مثل سيمون. كان ذلك يذكرني بالفندق والأميرات اللواتي كنت أرقص لأجلهن، واللواتي كن يصطحبنني معهن إلى

الحمام، أو إلى المقاهي على شاطئ البحر. كان لسيمون كلّ صفات أميرة. إلا أنه كان فيها شيء ما من التراجيديا، لا أفهمه جيداً، كما لو أنه جزء من حياتها ظلّ سريا، جزء مجنون.

كانت تعلمني الغناء على موسيقى جيمي هندريكس Jimi Hendrix ، Burning in the midnight lamp, Foxy Lady, Purple haze, Room full of mirrors, Sunshine of your love, Voodoo child، بالطبع، ايضاً موسيقى نينا سيمون، Black is the color of my true love's hair, I put a spell on you, وميودي واترز وبيلي هوليدي، Sophisticated Lady، غير أني لم أكن أغني الكلمات، كنت أغني الصوت فقط، ليس من شفتيّ وحنجرتي فقط، وإنما من عمق أكبر، من داخل رئتي، من أحشائي. فقط أربعة وستة إيقاعات، وتوقفني، أيضاً وأيضاً. كانت يدها ترقص على المفاتيح، وكان علّي أن أقوم بذات الشيء، ثماني وحدات. أو كانت تعزف، وعليّ أن أتبعها وأغني: «Babeliboo, baabelolali,lalialola»...

في بعض الأحيان، كانت تتكلم عن جزيرتها، في الطرف الآخر من العالم، والموسيقى التي تجتاز البحر إلى الأرض القديمة حيث خُطف أجدادها وبيعوا. كانت تذكر أسماء القبائل، التي ترن أسماؤها بغرابة، كما لو أنها كلمات موسيقى.

«إيو، موكو، تيمن، ماندينكا، شامبا، غانا، كيومنتي، أشانتي، فون....»

كما لو أنها أسماء والدي، التي نسيتها.

كانت تتحدث عن الفقر، قائلة: «إن وجه الرجل الهايتي هو الوجه الأكثر قساوة في العالم.» «إن الأسود يخون الأسود، كما حدث زمن دوسلين»

«حين نجوع نحول أعيننا نحو الداخل.» كانت تتكلم عن شارع سيزار Césars في بورت دو فرانس، عن القلب الذي يخفق بين الجموع، عن أمها روز كارول التي كانت تنشد ترانيم الفودو vaudou، لإحضار الأموات، كانت تقرع الطبل، وكانت هناك عين مفتوحة وسط مثلث كبير في باحة منزلها، مثل الذي ترسمه سيمون بالشمع. كانت تروي وتغني وتتكلم بالطبول، تشاهد قدوم «اللاواس»les loas، إلى هنا، إلى شارعها، كانت تعدد أسماءهم، أسماء النباتات، «اللازم» lazam، النصول الحقيقية، فاكهة الروح الحقيقية، شجر الباباي، والعملاق زمان zaman، الداكن، الذي يغطي الجزيرة بظله. استمع، كانت أشياء جميلة تجعلني أنام. كانت تعزف لي على المفاتيح، دائماً ذات النغمات التي تعود خفيضة، أو كانت تقرع بأطراف أصابعها على الطبل الذي كان يتكلم، عن الرادا والجن-جن، كانت الموسيقى تخترقني كما في أنفاق روميو سيبستوبول، تصعد فيّ وتملؤني بكاملي، كنت مثل أفعى ترقص أمام المروض، مثل عشيات الأعياد، أدور حول نفسي حتى يصيبني الدوار.

كنا نتوقف عن الكلام. هي، متربعة وسط ثوبها، تأرجح نصف جسدها الأعلى، وتعزف موسيقاها، وتنشد أناشيدها الأفريقية التي تذهب إلى الطرف الآخر من البحر، وأنا أكرر حركاتها، عباراتها، حتى حركات عينيها وإشارات يديها دون أن أفهم، كأن هناك قوة مغناطيسية تربطني بها.

كانت تقوم بذلك إلى أن تغرق شعلات الشمعات في شمعها.

حين ينتهي ذلك، نكون قد أنهكنا. ننام على الأرض على الوسائد المبعثرة، في رائحة الدخان. في الخارج، ربما كان العالم يتحرك، المترو، القطارات، السيارات، يركض الرجال كالحشرات المجنونة، الناس الذين

يشترون ويبيعون، يحصون، يضاعفون، يخزنون، يستثمرون. كنت أنسى كل شيء. حورية، باسكال مليكة، بياتريس وريمون، ماري هيلن، الآنسة ماير والسيدة فروميجو. ينزلق كل شيء وينسحب. الصورة الوحيدة التي تحضر، وتغرقني، هي صورة نهر السنغال الكبير... مصب فالمي... حافة النهر المخطوطة بالتراب الأحمر... بلاد الحاج. كانت موسيقى سيمون تأخذني إلى هناك.

ذات مساء، عاد مارسيال جويو مبكراً عن موعده. فتح باب الصالة، وظل عند العتبة فترة طويلة، ينظر. كان الليل قد حلّ. كانت الشمعات المحتضرة تشكل وميضاً غامضاً، عرفت نظرة الدكتور التي كانت تفتش في الضوء الخفيف. لم يقل شيئاً. اجتاز الصالة، متعثراً بطبول سيمون، وذهب مباشرة إلى الحمام. لا بد أنه كان غاضباً بشكل عنيف، ليعبر بصمت هذا المكان الفوضوي. جعلتني سيمون أنهض، ودفعتني نحو الباب. «اذهبي، اذهبي بسرعة، أرجوك.» كانت مرعوبة، قلت لها: «تعالي، أنت أيضاً. لا تبقي هنا.» كنت متأكدة أنها إذا استطاعت أن تأتي الآن، ستكون حرة. لكنها، لم تفكر حتى في هذا. وضعت النقود في يدي. «خذي سيارة أجرة للعودة، إن الجو بارد.» لا أدري لماذا شعرت في هذه اللحظة أنني لن أراها مرة أخرى. لم تكن قادرة أن تقرر، لأجل ذلك، كانت أَمة. لو استطاعت أن تقرر، ولو لمرة واحدة، ستفقد خوفها من مارسيال، ولن تكون وحيدة، ولن تعود بحاجة إلى استنشاق قاذوراتها، ولا لتناول كوكائين التمستا. ستصبح حرة.

فيما يخص الحاج، فإن الأمور أيضاً لم تكن تسير على ما يرام. كان الجندي القديم خائفاً من البرد. كنت أذهب إلى كوركورون حين أستطيع بالقطار أو الباص، حتى طريق فيلابي. كان الريف متجمداً، طبقات الجليد على المنحدرات. حقول كبيرة رمادية تعرج بها الغربان. في الشقة الصغير في البناء B ، كان الحاج جالساً أمام النافذة، وقد ارتدى كنزة سميكة فوق قميصه الأزرق، حتى أنه قد وضع طاقية أدغال كي ينام. كان يحلم بالنهر الكبير الذي يجري ببطء شديد عبر الصحراء، حيث يتألق الضوء إلى وقت الليل. ربما من أجل ذلك كنت أذهب لأراه، كي يحدثني عن النهر، كان يحكي أيضاً عن نهر فالمي، والمدن، كايس Kayes، المدينة Médine، ماتام Matam، وقريته يامبا. كما لو أنه لا زال ينساب في جذعية كبيرة مع النساء والأطفال، وهو ينظر إلى البيوت المعلقة على الضفاف التي يمر بها، طيور الكركي، والغاقة. حدثني عن مريم للمرة الأولى، حفيدته، أخت حكيم. ماتت هناك، في الصيف، حين ذهبت لرؤية أمها. كان سرطان الدم قد أصابها خلال موسم الأمطار. دخل البرد فيها، جمدها يوماً بعد يوم وقتلها. لم يرني الحاج صورها. ذلك لا يفيده بشيء. أراني فقط سجلها المدرسي، لأنه كان فخوراً بنتائجها. كانت في الصف النهائي في سان لويس.

كان ينسى أحياناً أنها قد ماتت، ويكلمني كما لو كنت أنا هي، مريم الجديدة. كان هناك شيء محطم في داخله، عميق جداً، مثل عظم مكسور، ولا يتوقف عن إحداث الألم. لم يّرد العودة هناك. «أفسدوا كل شيء، طرق في كل مكان، جسور، مطارات، تم قصّ كل الجذعيات في الخلف لتركيب المحركات. ماذا سيفعل عجوز مثلي هناك؟ لكن حين أموت أريد أن تأخذيني إلى هناك، كي أُوارى الثرى بجانب أبي وأمي، في يامبا، على حافة فالمي. هناك ولدت، وإلى هناك يجب أن أعود.» وعدته بأني سأذهب معه، حتى ولو أني أعرف أن ذلك كان مستحيلاً. أنا أيضاً لدي مقبرة أريد أن أدفن فيها.

يحدثني، أيضاً عما رآه في الحجاز حين قبّل الحجر الأسود، حجر الملاك جبريل. عن ماء نبع زمزم، الذي حمله معه في زجاجة بلاستيكية صغيرة، وجبل عرفات، حيث تحرق ريح الصحراء عيون المسافرين. كان وجهه متجهاً نحو النافذة، كنت أشاهد الجدار الأبيض الكبير للأبنية المحيطة، كنا نسمع هدير السيارات على الطريق الكبير الغير بعيد، حيث توجد جزيرة الغجر، إلا أنه لم يكن هنا، كان في مكان آخر، في ضوئه. بقيت مع الحاج إلى أن حلّ الليل، أعددت شايه، غسلت الأواني، رتبت حاجياته. ربما كنت أعرف في أعماقي أنني لن أراه مرة أخرى، مثل اليوم الذي سقطت فيه لالا أسمى في المطبخ، وفهمت أنها ستذهب.

أثر عليه الشتاء. كان يشعر بالبرد دائماً؟ اشترى حكيم مدفأة تعمل ليلاً نهاراً، وتجعل الجو حاراً في الغرفة الصغيرة بحيث أن الماء كان يسيل على البلاط. كان الحاج يتوقف ليعطس، عطسة كبيرة تثير صوتاً مدوياً في داخل رئتيه وتؤلمني. كان مصاباً بالأوديميا، مرض يمنعه من التنفس. غير أنني اعتقدت أن السبب في إنهاكه يعود فقط إلى البرد والريح والمطر والسماء المليئة بالغيوم الرمادية والشمس الشاحبة جداً.

حين شعرت أنه متعب جداً، ذهبت. قبلت يديه، وضغط للحظة راحته على جبهتي، ثم أنزلها على عينيّ وعلى أنفي، ووجنتيّ، وشفتيّ. كان يقول: «مع السلامة يا ابنتي»، كما لو كنت حقاً مريم. ربما كان يظن حقاً أني هي. ربما كان قد نسي. ربما قد أصبحت أنا شبيهة بها، من فرط ما جئت إلى جدها، ومن فرط ما استمعت إلى ما روى من حياته هناك، على ضفاف النهر، أنا نفسي، لا أعرف جيداً من أنا.

في طريقي نحو كوركورون، كنت أجتاز جزيرة الغجر، وأعرج لرؤية جانيكو. ذات مساء، جاء نحوي، كما لو كان ينتظرني. كان غريباً. طلب مني سيجارة. قال بصوت مخنوق قليلاً: «بورنا تبيع رضيعاً.» وبما أنه لم يبدو علي أني فهمت، أعاد ما قاله وقد فقد صبره: «ما قلته لك صحيح، بورنا تبيع طفلها.» حلّ الليل، أضاءت المصابيح الطريق، وليس بعيداً، في آخر منبسط إسمنتي، كان بناء المجمع التجاري مضاءً كما لو أنه قصر أسطوري.

كان قلبي يخفق بشدة، سرت وراء جانيكو، عبر الدرب الذي يتجه مباشرة نحو مخيم الغجر. كنت أسير بسرعة. لم أستطع أن أصدق ما قاله جانيكو لي. خيل إلي أن ما يرويه هو قصتي، حين رماني مجهول في كيس كبير، وأخذني وباعني من يد ليد إلى أن وصلت عند لالا أسمى.

قادني جانيكو إلى بيت وضيع من ألواح خشبية بسقف من الصفيح. كان هناك أطفال وجوههم مضاءة بمصباح غازي موضوع على الأرض. كانت تحيط بالبيت أكوام من النفايات، كارتون، علب صدئة. كان هناك أناس في العربة، نساء، رجال يأكلون، صوت تلفاز. كلاب مربوطة بسلاسل، وبرها الأصفر منفوش، فتح جانيكو باب البيت. كانت بورنا جالسة على سرير ميداني، مثبت على قاعدة بلاستيكية مكشوفة من كل طرف، كان بجانبها طفلان، بنت تقارب الست سنوات وصبي في الثانية عشرة من عمره، ذو نظرة حادة ذكية. يتكلمون الرومانية. طرح جانيكو أسئلة على المرأة. كان وجهها نحيفاً، لها شعر أشقر يميل إلى لون النحاس، وعينان خضراوان صغيرتان، يقظتان مثل عيني حيوان. كانت تستمع إلى ما يقوله جانيكو، فيما نظرتها تتجه إليه وإلي، كما لو أنها تحاول أن تكيل الحقيقة. ثم نهضت،

واتجهت إلى الداخل وأبعدت ستارة. في مخدع النوم كانت هناك عربة طفل سوداء، فيها رضيع نائم. قال جانيكو: «إنها بنت.» ثم أضاف بصوت منخفض، ساراً: «قلت لها أنك تعرفين أناساً أغنياء، أطباء، محامين، وإلا لن تريك طفلتها.» لم أعرف بماذا أجيب. نظرت إلى الطفلة النائمة، مغطاة بقماش من التريكو والقطن. سألت «ما اسمها؟»

هزت بورونا رأسها، أصبح وجهها قاسياً وحازماً. أجاب جانيكو بعد صمت طويل بما فيه الكفاية «ليس لها اسم، هؤلاء الذين سيشترونها سيمنحونها الاسم.»

حين خرجت من المنزل، قال لي جانيكو بصوت منخفض: «ليس صحيحاً، للبنت اسم. اسمها ماجدة.» فكرت ببياتريس المحررة، بما قالته فيما يتعلق بطفل حورية، إذا لم تعد أمها قادرة على الاهتمام بها، فهي تحب تبنيها. قلت لجانيكو: «أتريد هذه المرأة فعلاً بيع طفلتها، أعرف أحداً سيشتريها.» قلت ذلك وفي الحلق غصة، لأني كنت أفكر في الوقت ذاته بأن أحدهم قال قديماً ذات الكلمات، حين سرقت، وكان على لالا أسمى أن تجيب هي أيضاً: «أنا، أستطيع شراءها.» كان الجو ذلك المساء غائماً وداكناً، والسيارات كانت تسير هادرة من كل جانب في جزيرة الغجر ، مثل نهر يفيض. قادني جانيكو إلى موقف الباص، وعدت إلى باريس.

-١١-

مات الحاج بعد ثلاثة أيام. أنبأني حكيم بذلك عن طريق صديق. حين بلغني النبأ، كنت أهيء نفسي للذهاب إلى دروس الفلسفة في مقهى الدزسبرانس. في الحال، أخذت القطار باتجاه إيفري-كوركورون. كانت السماء لاتزال رمادية، تملؤها الغيوم المنخفضة، كما لو أن الأيام لم تمضِ. حتى أن الراديو قد تحدث عن الثلوج.

كان باب الشقة الصغيرة مشقوقاً. دخلت بهدوء، كما لو أنه مازال هنا و لا أريد أن أجعله ينتفض مذعوراً. كان المطبخ حيث كان يبقى دائماً خالياً، وفي الغرفة، كانت الستارة مسدلة إلى منتصفها. رأيت أولاً حكيم من ظهره، بالقرب من السرير، ومن ثم أناساً آخرين لا أعرفهم، جيران دون شك، أناس كبيرو السن، وامرأة طويلة وقوية، تخيلت أنها يمكن أن تكون أم حكيم، غير أنها كانت صغيرة جداً، وشكلها أقرب إلى العرب، بشرة بيضاء، وشعر مجعد مصبوغ بالحنة. ربما كانت خادمة منزلية، أو بوابة البناء. كان الحاج ممدداً، بملابسه، بقميصه الطويل الأزرق دون قبة، وبسرواله الرمادي ذي الثنية التامة. حتى أنه كان قد انتعل حذاءه الضخم الأسود الملمع، كما لو أنه يستعد للسفر. لم أره أبداً هكذا: كان وجهه صلباً كقبضة اليد، عيناه وأجفانهما المتورمة، فمه، حتى أنفه، كان كلّ ذلك صلباً مشدوداً، تملؤه تعابير الألم والحزن، فكرت بما كان يرويه عن نهر السنغال وقريته يامبا ونهر فاليمي،

وكلّ ما يحبه في العالم، وفي أنه مات بعيداً جداً، وحيداً في غرفته في الطابق الثامن من البناء B الواقع في طريق فيلابي.

لا أحد يتكلم، نظر حكيم إليّ حين مسحت جبهة جده، فقط لثانية، الوقت الكافي لتلمس أطراف أصابعي بشرته الباردة، المليئة بالبثور. كان الهدوء والصمت يملآن المكان. تمنيت لو كان هناك أصوات مثل الأفلام، كالتي تسمع من النساء اللواتي يبكين بنحيب طويل مؤثر ومبالغ فيه، وأن يكون هناك همهمة أصوات رجال يشربون قهوة العزاء، أو كما عند المسيحيين، تمتمة الصلاة. أن يعوي كلب في الباحة عواءً حزيناً. غير أنه لم يكن هناك شيء من هذا. فقط صيحات جهاز تلفزيون في مكان ما في أعلى البناء. كان الزائرون ينسحبون بوجوم، متجنبين النظر إلي. أردت أن يحضر إلى هنا عازفو الطبول الأفريقية الصغيرة في أنفاق المترو، ليعزفوا بلا توقف، ولتصدح موسيقى تشبه دوي الرعد عبر الغابة ومجرى النهر، ولتغني سيمون بصوتها الحاد Black is the color of my true love's hair. خرجت المرأة السمينة ذات الشعر المحنى بهدوء. وجدتها شبيهة بلالا أسمى. كان لها ذات النظرة الشاردة بسبب بعد النظر خلف عدستيها. لا أعرف لماذا، أخذتها من معصمها وقدتها نحو السرير: «من فضلك، ابقي هنا قليلاً، لا تغادري.» هزت رأسها. كان لها صوت أبح مخنوق. «كان لطيفاً» قالتها كما لو أنها تعتذر. تخلصت من يدي بهدوء. رددت أصابعي، تركتها واحداً وراء واحد. كان في عينيها الخضروايين تعبير هلع، خيل إلي كما لو أن بؤبؤيها السوداوين يسبحان وسط القزحية.

في النهاية، كان حكيم هو الذي خلّصها مني. أخذني من ذراعي، كما لو أني مجنونة في حالة هستيريا. كان حكيم أخي. كنتُ مريم. أحسست على وجهي لمسات أصابع الحاج الهرمة، تمسح بلطفٍ عيني، وجنتيّ، شفتيّ. لم أعد أستطيع التنفس. كان هناك شيءٌ ينتفخ فيّ، في صدري، يسدّ حلقي. «كان جدي، حقاً،

الآن، ماذا سيحدث لي؟»كنت أتلعثم بكلامٍ غير مترابط، تخنقني الكلمات. كان حكيم يظن أني أبكي، لم يكن ذلك دموعاً، كان غضباً، أردت أن أكسر كل شيءٍ في هذا البناء، أن أخرق السماء المعتمة التي منعت الحاج من الرؤية، أن أكسر الواجهات الزجاجية والمحلات، العربات، زجاج الباصات، السكك الحديدية، القارب الذي يأخذ زمناً طويلاً ليصل إلى ضفاف نهر السنغال ويامبي ونهر فاليمي.

شدني حكيم بقوة لدرجة أني وقعت على الأرض بجانب السرير، ورأيت كلّ ما نزع الحياة من الحاج، إناء البول، عبوات الكورتيزون. سقط كل شيء، ولا أحد لديه الوقت لينظف من أجل الجنازة.

أمسكني لبعض الوقتِ مضمومة إليه، أظن أنه هو أيضاً كان بحاجة لمن يواسيه. قبلني للحظة، فشعرت بالدمع على وجنتيه. ثم انتهى ذلك. نهضت وغادرت. لم أنظر لجسد الرجل العجوز الممدد على سريره بكامل ملابسه. اعتقدت أنه لن يعود لقريته على ضفاف النهر. سيبقى في فيلابي، في مكان صغير من المقبرة، وسيسمع ضوضاء السيارات في الشارع الكبير بدلاً من النهر. هل لهذه الأشياء أهمية؟ في القطار الخالي في هذا الوقت، رأيت الليل يسقط عبر الزجاج الكدر. أظن أني كنت أفكر في ماجدة أكثر من الحاج. كانت شفتاي جافتين. لم آكل ولم أشرب شيئاً منذ الصباح.

قبل الدخول إلى باريس اصطادني مراقبو المترو. في العادة أنتبه جيداً، وأنزل في اللحظة التي يصعدون فيها. غير أني في هذا اليوم، نسيت نفسي، كنت في حلم، فاترة الهمة، مثل الحالة التي تصيب الفرد بعد تعرضه لألمٍ كبير. لعلهما كانا قد لاحظاني من قبل، عندما رأيتهما كانا فوقي. جاءا مباشرة إلي، متجاهلين الركاب الآخرين. انسحب صبيان من الغجر - هؤلاء الذي كنت قد التقيت بهم في المرة الأولى مع جانيكو- بسرعة وهم يشيرون بأصابعهم، غير أن المراقبين يريداني. في البداية، كانا لطيفين بتكلف.

«آنسة، لا تحملين تذكرة ركوب، أيمكنك أن تبرزي بطاقة تعريف.» وبما أني قلت لهما أولاً إني لا أحمل بطاقة تعريف، وثانياً، حتى ولو أني أحملها ليس لديهما الحق في طلبها، أصبحا أقل لطفاً. «في هذه الحالة ستأتين معنا إلى مكتب...»

كانا يشكلان ثنائياً غريباً، كان الأول طويلاً وقوياً بذقن وشارب أشقر صغير، فيما كان الثاني قصيراً وأسمراً، تبدو عليه عصبية المزاج، ذا لكنة تولوزية. أخذني كل واحد منهما من ذراع، وجعلاني أعبر القطار من عربة إلى أخرى، حتى القاطرة. جعلاني أجلس بينهماعلى مقعد قاس، بجانب الباب. قلت لهما بأنهما يقومان بتعدٍ، وأن ليس لهما الحق باستخدام العنف، غير أنهما ظلا غير مباليين. كان القطار يتابع سيره نحو باريس ، فيما كان الليل يحلّ. كان حارساي يتكلمان فوقي، كما لو أني لست هنا، يتبادلان أخبار المكتب، ويرويان ثرثراتهما. كان بإمكاني أن أثير شفقتهما بأن أقول لهما بأن جدي مات، وبسبب ذلك نجحا في مفاجأتي. غير أنه لم تكن لدي الرغبة في أن يشفقا عليّ مهما حدث. ولا أريد أن استخدم الحاج في الحصول على فضل هذين الأجيرين.

في محطة أوسترليز، قاداني إلى مكتب صغير خلف شباك التذاكر. جعلاني أنتظر لساعة طويلة، وخلال هذا الوقت ظلا أمام الباب، يدخنان السجائر ويتبادلان الثرثرات. تخيلت أني سمكة صغيرة أمام رجال أقوياء جداً بلباسهم الموحد، وبأصفادهم، ومسدسهم الأتوماتيكي. غير أنهم ربما يعتبرون بأن لا شيء في هذه الحياة له معنى، هناك أناس يحبون الاعتقاد بذلك.

وصل رئيسهم، وأراد استجوابي. وجلس بالقرب من وجهي. وصرخ:

«اسمك؟

- ليلى.

- أنت راشدة؟

- لا أعلم. نعم، لا. ربما.

- أين والداك؟

- في أفريقيا.»

هنا، بدأت الأشياء تتعكر. كان الرئيس رجلاً صغيراً لا شأن له، يدعى السيد كاستور، على الأقل كان هذا الاسم الذي استطعت قراءته خلف مغلف موضوعٍ على مكتبه.

«ليس لديك أوراق رسمية؟»

كان قد رفع الكلفة في حديثه دلالة على هيجان الأعصاب.

ولأهدئ الأجواء، كانت لديّ فكرة جيدة.

«تستطيعون استدعاء محاميّ.

- تريدين صفعة؟»

لم تكن ذلك الطريقة المناسبة لتهدئتهم. سلّمت:

«حسناً، لا أقصد محامياً حقيقياً. إنها السيدة التي تهتم بي. مربية.»

أرضتهم الكلمة. أعطيتهم اسم وهاتف بياتريس. محرّرة، مربية لا فرق كبير. بدقة أكثر، لم أكن أريد أن يذهبا إلى شارع جافلو. لدى نونو وحورية ما يكفيهما من هموم. لحسن الحظ، منذ وصولي إلى باريس، فعلت كما يفعل المغاوير في أفلام الحرب، حذفت كل ما يمكن أن يساهم في التعرف عليّ.

جاءت بياتريس فوراً في سيارتها الإنكليزية. دفعت كل شيء، التذكرة، المخالفة، وحتى أنهم تلو عليها المواعظ.

كانت تمطر. مساحة الزجاج كانت تصرصر، كما لو أنها كانت تمطر رملاً. قلت لبياتريس:

«لا أريد العودة إلى حيث أسكن»

نظرت إلي لثانية، باحثة عما تقول.

«إذا أردت بإمكانك أن تنامي عندي. ريمون لن يقول شيئاً.»

لا شيء يجعلني أكثر سعادة. وضعت رأسي على كتفها. كنت بحاجة هذا المساء للاعتقاد بأنه لدي أحد ما، صديقة، أخت كبرى.

بقيت لوقتٍ طويل عند ريمون وبياتريس. أعتقد أني كنت متعبة. لم أكن ألاحظ ذلك، لأني كنت أذهب وأجيء، كان هناك طفل حورية، نونو، الدروس، التسوق، وسيمون التي كانت عندنا، والحاج الذي مات. الآن، فجأة، لم يعد لي القوة، مثلما كانت حين غادرت من عند السيدة، وقادني نونو إلى شارع جافلو.

بقيت عشرة أيام أو ربما شهراً، لا أستطيع التذكر. في الخارج كان الجو بارداً داكناً، لعلها كانت تثلج. ظللت ممددة على الفراش في جانب الصالون المستخدم كمكتب، غير أن بياتريس نزعت حاسبها المحمول، كان موصولاً في غرفة نومها. كان هناك كتبٌ في كلّ مكان، في صناديق كرتونية، على الرفوف. أمضيت وقتي بالقراءة، ما يقع في يديّ، من روايات وكتب تاريخ، وحتى شعر. قرأت لمالابارت، كامي، أندريه جيد، فولتير، دانتي، بيراندللو، خوليا كريستيفا، غيفان إيليتش. كانوا كلهم متشابهين. ذات الكلمات، ذات الصفات. لم يكونوا جازمين. لم يكن ذلك سيئاً. كان فرانز فانون ينقصني. حاولت أن أتخيل ما يقوله، كيف تكلم عن الدين، ضحكته الساخرة أمام هذه النتائج الهزيلة. أما الشعر، فقد كان غريباً، كأنه لم يكن يخصني وليس موجهاً لي. في ذات الوقت، كنت

أحب أن أجمع الكلمات. الكلمات... للغناء... لإلقائها في الغرفة... لسماعها وهي تقفز... تتكسر إلى ألف قطعة... أو على النقيض كي تقع على الأرض مثل الفاكهة الذابلة. كان لدي دفتر مفتوح، أمضي النهار أسطر فيه الكلمات التي أجدها، في أطراف الجمل:

مناخ

ظلال

طير القيثارة

طيور الفجر

انكسار

الأمواج المرتطمة

أصوات السماء

لم يكن ذلك يعني شيئاً. كانت بياتريس تعود في حوالي الساعة العاشرة، كانت تفتح الباب، وتدخل معها نفحة المدينة والصخب والدخان. فيما كان ريمون يأتي بعد ذلك حاملاً معه النبيذ. نتناول العشاء معاً نحن الثلاثة في المطبخ، معكرونة، جبنة. كنت أحب أن أكون معهما. كانا يمنحاني شعوراً بالأمان، تصرفاتهما متوقعة، وحنونان جداً.

كنت أؤخر لحظة الحديث عن ماجدة. كنت أقول لنفسي إني منذ اللحظة التي سألفظ بها اسمها، لن يبقى لي إلا أن أغادر. ومن جديد سيكون الشارع المفتوح، الناس الذين يدفعونك، لمعان السيارات، ومدخل شارع جافلو الذي يشبه دهليزاً يقود إلى مركز الأرض.

كانا يتكلمان عن عملهما. تحكي بياتريس عن الصحيفة، وعن صراخ المدير، والمكالمات الهاتفية، عن المشاكل التي لا أفهم منها شيئاً، كما لو أن هذا العالم تم تشفيره. كان ريمون يتكلم باختصار. كان متدرباً في مكاتب محاماة في سارسل، أو في فلوري ميروجي، يهتم بقضايا الآخرين.

حاولت أن أتخيل ماجدة في منزلهم، ماجدة في الغرفة الصغيرة المدهونة باللون الزهري، سرير جميل أبيض، نواسات موسيقية تعلق في هذه البلاد فوق أسرة الرضع، لتعليمهم الصبر. ماجدة وهي تركض نحو المطبخ، تمدّ ذراعيها الصغيرتين نحو ريمون، تصيح: «دادا!» وهو: «جولي!» أو: «رومي!» على أية حال، أن لا يعرفا اسمها الحقيقي أبداً ليس موضع سؤال. ربما، في يوم ما، حين تكبر سأكون بالنسبة لها مثل خالتها، وسأعلمها بالحقيقة: «سأقول لك اليوم اسمك الحقيقي، الذي ولدت فيه.» أو ربما سيكون جانيكو من سيفعل ذلك. سيلتقي بها في نفق المترو، في محطة رومير-سبستوبول، ويناديها صارخاً: «ماجدة! ابنة خالتي!»

سموها كلير، لأنه كان اسم والدة ريمون. و جوانا، لأن بياتريس تحب هذا الاسم. كانت تغني : «Gimme hope, Johanna.» كان عمرها خمسة عشر عاماً أيام حرب فيتنام، مثل الكثيرين غيرها.

لم أعرف أبداً الثمن الذي دفعوه، بقيت في الخارج، في الريح، أنصت إلى نهر السيارات حول الجزيرة. كان هناك غربان في السماء، مثل يوم مولدي، غير أنها لم تكن تصرخ صرخات ذعر.

في تلك الفترة حدث كل ذلك. ربما كان ذلك بسبب مغادرة حورية إلى منزل السيدة في. أصبحت وحيدة. ولأكسب القليل من النقود، تطوعت في

جمعية صم وبكم، كنت أضع على طاولات المطاعم بطاقة مع حمالة مفاتيح، ولأجمع التبرعات. كنت أنتبه جيداً، حين كنت أذهب لأعرض حمالات المفاتيح في مطاعم المركز التجاري، أو حين كنت أذهب لأستمع إلى موسيقى محطة مترو روميـر. لم أمر أبداً من نفس المكان مرتين، كنت أتجنب الممرات الخالية، أبواب العربات، كنت لا أنظر إلى عيون أحد.

كنت أعرف الزعران من بعيد. كانوا يشكلون جماعات صغيرة، في الشارع، من جهة ايفري، أو من جهة ساحة جان دارك. حين ألمح جماعة ما، أعبر الشارع بين السيارات، وأضيع في الطرف الآخر. كنت سريعة جداً وفطنة، لاأحد يستطيع اللحاق بي. أحياناً، كان يخالجني الشعور بأني في غابة، أو في صحراء، وأن هذه الشوارع أنهر، أنهر كبيرة ملأى بالدوامات والصخور المنبثقة، وأني أثب من صخرة لأخرى وأنا أرقص. كانت صوت زمامير السيارات ودوي المحركات يجيء من الأرض ويصعد عبر ساقيّ، ويملأ بطني. مع ذلك، لم أرَ ذلك الرجل آتياً. في الساحة الكبيرة التي تذروها الريح والتي تضيئها المصابيح، ظهر مثل أي رجل بمعطفه المطري وقبعته التي تغطي عنقه وجبهته وأذنيه، يداه في جيبيه، وجه داكن قليلاً، وأنا كنت مشغولة في عدّ النقود التي جمعتها من عند الفيتناميين، مئة أو مئة وخمسين فرنكاً، في فترة قصيرة من الوقت، بوضع حمالات المفاتيح على طرف كل طاولة، مع بطاقة الصم والبكم.

في اللحظة الأخيرة، رأيت نظرته، خفت، لأني عرفت العينين القاسيتين، الثاقبتين لعُبل حين دخل غرفة الغسيل. غير أن ذلك، كان متأخراً. أمسكني بقبضتيه، وشدني بقوة لا تصدق، دون أية كلمة. لابد أنه تبعني، ومن ثم جال في المحلات ليعود ويجدني تماماً حيث يريدني، ما بين حائط البناء والمحلات المغلقة.

أردت الصراخ، لكنه ضغط بقبضته على بطني، وشدني بدفعة واحدة، كما لو أنه أراد أن يكسرني إلى قطعتين، وأضعت نفسي، وتحطمت، كما لو أن الذراعين والساقين تم قطعها. كان ذلك غريباً، لأنه في ذات الوقت، كنت أعرف جيداً ما يحدث لي، كنت دون قوة، مثل كابوس. فك أزرار بنطالي، بيد، كان قوياً وبارعاً، وبالأخرى حافظ عليَ مقلوبة على الحائط. أذكر، كانت الرائحة رائحة بول، رائحة مرعبة اخترقتني تماماً وأصابتني بالغثيان، أما هو فقد أخرج عضوه الجنسي، وحاول أن يدخله فيّ، فيما يضربني، كان تنفسه يرن في خبايا البناء.

لا أعرف كم من الوقت استمر ذلك، بدا ذلك كما لو كان دهراً، هذه اليد التي كانت تضغط على صدري، هذه الضربات على بطني، وأنا التي لم أستطع التفكير والتنفس. كان يخيل إلي أن ذلك لن ينتهي ابداً. بعد ذلك انسحب الرجل. اعتقد بأنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لأنني كنت نحيفة بالنسبة له، أو لأن أحداً أزعجه. غادر بسرعة، فيما بقيت في الزاوية، كنت مجمدة من البرد وضعيفة، ودمي يسيل على الأرض. نزلت الدرج إلى الشارع وعدت إلى الكهف وسخنت وعاءً من الماء لأغتسل في مغطس طفل حورية. كل شيء كان صامتاً، مخنوقاً. خيل إلي أني أصبحت لا أسمع من أذني الاثنتين. لا أعرف أين كنت، أظن أني تقيأت في الحمام، في آخر الممر. أظن أني صرخت، فتحت الباب الحديدي وصحت في النفق، صيحة قوية كي تصعد إلى أعلى الأبنية، لم يسمع أحد. كانت هناك محركات الهواء التي بدأت تعمل واحداً تلو الآخر، بارتجاجاتها التي تشبه ارتجاج الطائرات. غطى ذلك على كلّ الضجيج. فكرت بسيمون، كان لدي رغبة شديدة لأن أراها، أن أكون بجانبها، فيما هي تردد قطعة موسيقية. كنت أعرف أن ذلك مستحيل. أعتقد أني في هذه الليلة أصبحت راشدة.

كان أمراً حسناً أن أكون بعيدة عن كل شيء، عند بياتريس. منذ زمن طويل لم يحدث أن كنت آمنة، دون أن أفكر في الغد، دون قلق. فقط أفعل ما أريد، في الشقة، أرتب الأشياء بهدوء، فيما أراقب الطفلة، مثلما كنت أفعل حين عادت حورية من المشفى. لكن الفرق هنا، أنه يوجد ضوء، الشمس، رقيقة، لا شيء يبعث على الخوف. نافذة الصالة تطل على باحة داخلية حيث كان ينبت اللبلاب، والأغصان كانت ملأى بعصافير الدوري. حتى أني ذات صباح وجدت أحدها على طرف النافذة، ضعيفاً، ريشه أشعث. اسميته هاري. وأخذت صندوق أحذية كرتوني من الخزانة، وقطناً، وصنعت له عشاً طرياً. ووضعته في غرفة الطفل، بجانب المهد.

كان كل هذا رقيقاً ولطيفاً، كما لو أنه لا يوجد شيءٌ قبيح في بقية العالم، لا زعران، ولا رجال شرطة، ولا فتيات مضروبات، ولا معمرون يموتون من الجوع في أكواخهم القذرة ذات الشبابيك المغلقة. فيما بعد أعددت رضاعة كلير، أو جوانا (كنت أفضل الاسم الثاني) وأخذت بعض قطرات الحليب لأخلطها بلب الخبز.

كان هاري أشعث في علبة الأحذية، غير أن ريشه بدأ يجف. نظر إلي وأنا أضع فتات الخبز أمامه دون أن يتحرك، فقط كانت عيناه السوداوان تلمعان، ثم أعطيت الرضاعة لماجدة (بالتأكيد لن أستطيع نسيان اسمها الحقيقي). وفي اللحظة التي انتهت فيها الطفلة من طعامها، بدأ العصفور يزقزق ويتحرك في العلبة.

لا أعرف إن كان قد نجح في أكل شيء ما، لكن الحرارة اللطيفة للغرفة الصغيرة جعلته يستيقظ، وطار بعد لحظة صائحاً وبدأ يضرب على النافذة. ومن الطرف الآخر، على الأغصان، كان أصدقاؤه الصغار يطيرون في كل

الاتجاهات، ينادونه. لذلك فتحت النافذة، وفي الحال نفذ هاري، وبعد لحظة رأيته يختلط بعصافير الدوري، كانوا يتمايلون مثل ورقة شجر في الريح، وبعد لحظة اختفى هاري معهم.

فيما كنت أعطي الرضاعة لجوانا، رأيت مفتشي الشرطة في الأسفل، في الشارع. كانوا يرتدون مثل كل الناس، معطفاً مطرياً، سترة رياضية، لكني عرفتهم جيداً. لدي حاسة لهؤلاء الناس. كانوا ينظرون إلى نوافذ البناء، كما لو أنهم يريدون أن ينظروا عبر الستائر. في الحال، دخلوا، كان لابد لهم من طرح أسئلة على البواب البرتغالي الذي لم يكن يحبني، وقرعوا الجرس دون توقف مما جعل صوته يرعب جوانا، ويرن في عمق رأسي مثل صوت حشرة.

لم أتحرك، إلى أن ذهبوا. كنت مهتاجة. لم أعد أستطيع أن أبقى دقيقة في هذا المنزل، مع ذلك، لا أستطيع أن أترك جوانا تصرخ وحيدة في مهدها. بحثت عن رقم بياتريس في صحيفتها. كنت مضطربة جداً فيما كانت السماعة على أذني الصماء، دون أن أسمع شيئاً. أعدت الرسالة مثل ببغاء: «أرجوك، بياتريس، ضروري أن تعودي حالاً، ارجعي فوراً، أرجوك» في اللحظة التي ذهبت فيها أغلق الباب، رن التلفون . سمعت صوت بياتريس، فيما كانت السماعة على أذني السليمة. «ليلى ما الذي يحدث؟» طلبت منها أن تعود، لأنه ينبغي أن أغادر. أغلقت السماعة قبل أن تطرح أسئلة أخرى. فيما كانت جوانا قد نامت. وهكذا مشيت في الشوارع نحو محطة أوسترليتز.

عدت إلى شارع جافلو. حين مشيت في النفق الطويل، إلى باب الكاراج، حيث رسم الرقم ٢٨، كان قلبي يخفق. كان يخيل لي، أني لم أعد

أستطيع العيش هنا، إن حياتي في مكان آخر، في أي مكان، وعليّ أن أغادر، كان جانيكو يقول أشياء كهذه. كان يقول: «أتعلمين، أحياناً، يجب أن أرحل. إن ذلك أقوى مني. ربما أعود فيما بعد، لكني إن بقيت سأقتلك، سأقتل نفسي.» الآن، أفهم ما كان يريد أن يقوله.

لم يتغير شيء في الشقة. كنا نختنق إلى حد الموت بسبب رادياتور شركة الكهرباء. كان نونو قد أحضر أجهزة جديدة، تلفزيونات، أجهزة فيديو، مجموعات صوتية. كان لديه أيضاً دراجة نارية جديدة، حمراء، بسرج جلد حمار وحشي. لا أدري لماذا كان لدي شعور بأنني أدخل إلى منزل أطفال. أعطاني ذلك الرغبة في الضحك والبكاء في الوقت ذاته.

على السرير كان هناك مغلف باسمي. لم أكن أعرف الخط الأنيق الكلاسيكي. كتب فقط: «الآنسة ليلى. باريس.» فتحته، ولم أفهم مباشرة، كان هناك فقط جواز سفر فرنسي باسم مريم مافوبا.

كان الكهف خالياً. لا أثر لحورية، ولا لباسكال مليكة. المهد لم يعد هنا، جعلني ذلك اشعر بشيء ما، حتى ولو أني في العمق فهمت أنها غادرت لوضع أفضل، وأنها لن تعود.

في صفحة الصورة في جواز السفر، كانت هناك رسالة، عرفت كتابة حكيم السيئة. كنت أجد دائماً صعوبة في قراءة دفاتره. ما كان يقوله في رسالته سهل الفهم، مع ذلك كنت أقرأ وأعاود القراءة دون فهم.

«عزيزتي ليلى

قبل أن أغادر، ترك جدي جواز السفر لك. كان يقول أنك مثل ابنته، وأنت التي يجب أن تأخذي الجواز كي تذهبي حيث تريدين، مثل كلّ الفرنسيين، لأن مريم لم يكن لديها الوقت لاستخدامه. ستفعلين ما تريدينه. فيما يتعلق بالصورة، تعرفين جيداً، أنه بالنسبة للفرنسيين كل السود يتشابهون.

«أردت أن أراك قبل أن أغادر. قررت أن أنقل الحاج إلى قريته. لدي قرض مصرفي من أجل متابعة دروسي، سيخدمني في ذلك. لكن ما يؤسفني فقط أنك لست هنا لتذهبي معنا عند جدي في يامبا. غير أنه، الآن، لديك جواز سفر، وبإمكانك الذهاب يوماً ما، وسأشرح لك أين تجدين قبره.

قبلاتي.

حكيم »

عندما فهمت، امتلأت عيناي بالدموع، لم يحصل لي ذلك منذ موت لالا أسمى. لم يقدم لي أحدٌ هدية كهذه الهدية، اسم وهوية. حين استذكره، استذكر الرجل العجوز الأعمى الذي كان يمرر أطراف أصابعه الهرمة على جبهتي وأجفاني ووجنتي. لم يخطئ الحاج مرة واحدة. كان يدعوني مريم، ليس لأنه فقد عقله. لأن هذا ما كان يريد أن يعطيني إياه: اسم وجواز سفر وحرية أن أذهب إلى أي مكان.

-١٢-

حين بدأت أشجار المركز التجاري تزهر عرفت أن الربيع لم يعد بعيداً. كانت أشجاراً صغيرة طريفة زرعها الفيتناميون، أشجار خوخ وكرز ودراق مغطاة بزغب أبيض أو زهر. كانت السماء لا تزال رمادية باردة، غير أن النهار صار أكثر طولاً. وقد أشعرتني هذه الأزهار الهشة بالسعادة.

ما عدت أسمع أخباراً عن نونو أو عن أي أحد آخر منذ أسابيع. لم أعد اذهب إلى محطة رومير سيبستوبول لأنصت إلى الموسيقى. اتصلت بسيمون، غير أنه لم يكن على المجيب الآلي سوى صوت الدكتور جويو، صوت أنيق ومزدر يجعلني أقشعر. لم أترك اسمي أبداً. أحياناً في الليل، في وحدتي في الكهف أسمع صوت محرك الديزل أمام الباب فيخفق قلبي بشدة، لأني كنت خائفة. لكن ذلك لم يكن إلا في مخيلتي.

عاد نونو ظهيرة أحد الأيام. كدت لا أعرفه. كان حليق الرأس، نظرته غريبة قلقة. أعددت له الطعام، فطائر الجبنة التي كان يحبها، مسحوق البندق، خبز بالشوكولا. ظننت أنه سيروي ما فعله، وفي أي مكان كان. غير أنه لم يقل شيئاً. أكل بسرعة، شرب أكواباً كبيرة من الكوكا.

كانت المرة الأولى التي أراه فيها دون حلاقة، شعر يشوك وجنتيه وذقنه وشفته العليا.

«أكنت في السجن؟»

لم يجب، ثم أشار برأسه بالإيجاب. حين انتهى من الطعام استلقى على فرشته مخبئاً رأسه بين ذراعيه، ونام مباشرة.

كنت بحاجة إلى حرارته. منذ أيام وأنا وحيدة في الكهف، دون أن أتكلم مع أحد، كنت أكتفي بسماع الموسيقى على جهاز الراديو القديم ذي البطاريات. استلقيت بجانب نونو، وضعت ذراعي حوله، ولم يستيقظ. وبقينا لساعات هكذا دون أن نتحرك. كنت أنصت إلى تنفسه، أحاول أن أخمن أين كان خلال كلّ ذلك الوقت. لا شيء سوى تنسم رائحته في عنقه وظهره. حين استيقظ، مارسنا الحب، بلطف، مثل المرة الأولى. قبل ذلك، ذهب لإحضار واقٍ من جيب سترته. كان يسميه قبعة. هو الذي أراده، لست أنا، حتى أني أظن أنه ما كان لي أن أفكر فيه. ولا في المستقبل، ولا في الأطفال، ولا في الأمراض.

بعد ذلك ذهبنا معاً إلى سقف البرج، من الطريق السري، والمصعد حتى الطابق الحادي والثلاثين، ومن ثم الباب مانع الحريق، وسلّم رجال الإطفاء. كانت السماء مجزأة إلى مربعات زرقاء فوقنا، كما لو كانت نافذة على اللا نهاية. في تلك اللحظة عرفت أنه ينبغي أن أغادر.

على سقف الأرض. كانت الريح تصفر على كبلات الأعمدة وصواري التلفزيون. كان صوتا غريباً، هنا وسط هذه المدينة، البعيدة جداً

عن البحر. رغم ذلك، وصل صوت هدير السيارات المنخفض جداً في شارع إيفري وفي ساحة إيطاليا، وأبعد من ذلك أيضاً، على أرصفة النهر أو على الطريق المحلق، مثل أمواج ناعمة جداً كالمدّ الصاعد. فجأة شعرت بفراغ، برغبة تصعد فيّ، آلمتني. كانت بسبب صوت البحر، منذ زمن طويل لم أعد أسمعه، كان ذلك باعثاً على الدوار. مشيت نحو طرف السطح، منحنية في مواجهة الريح، كما لو أني سأستطيع أن ألمح البحر هناك. لحق بي نونو. لم يكن يفهم: «ماذا تفعلين؟ أنت مجنونة. أتريدين الموت؟» فكرت: «ربما ذلك ما يحدث حين يقفز أحدهم من النافذة، لأنه يعتقد أن البحر في الأسفل.» تعلقت به. «ضمني، ضمني بشدة يا نونو، أشعر بالألم». أجلسني بجانب غرفة محرك المصعد، بعيداً عن مهب الريح. كنت أرتعش برداً وتعباً. خلع نونو سترته الجلدية الجميلة ووضعها على ظهري. قال ببساطة: «خذي ليلى، إنها لك، وهكذا ستتذكرينني دائماً.» وجهه كان ناعماً أما رأسه فكان فيه شيء من الضخامة، مثل قزم. غير أن عيناه كانتا عذبتين. فكرت بأنه كان قد فهم أني سأغادر. ربما علم ذلك قبلي، ومن أجل ذلك عاد.

كلّ شيء سيتغير الآن. إنها لحظة تنتهي. كنت على السطح فوق الطابق الثاني والثلاثين، في أعلى السلم، أنصت إلى الريح وعيناي تبكيان من زرقة السماء المفرطة، مثل المرة الأولى التي وصلت فيها، حين اصطحبني نونو إلى هنا.

على الطاولة ذات المنصب حيث قمت بوظائف الفلسفة للأستاذ حكيم، كانت هناك رسالة من وكيل البناء، تقول أنه تم اكتشاف تزوير في عداد الماء، وأن كمية من الكهرباء استهلكت دون تفسير وسيجرى تحقيقاً وعند معرفة الجاني سيتم طرده ومعاقبته كما يجب. تركت الرسالة في مكان مكشوف، كي يعرف نونو ذلك. صفقت باب ٢٨ الحديدي بقوة، ولا بدّ أن الصوت قد وصل إلى أعلى البرج.

-١٣-

ركبنا القطار إلى نيس. أقول «ركبنا»، لكنني كنت الوحيدة التي تسافر ببطاقة. صعد جانيكو معي، كما لو أنه أراد أن يودعني، فاندس في المقصورة، وركب في عربة الأمتعة. قام بذلك للمتعة، فلم يكن بحاجة إلى ذلك. كان يعرف خداع المراقبين، إنها مهنته.

كان هناك ثلاثة أشخاص في المقصورة. اثنان في الأسفل، وأنا في المرقد في الأعلى. بقيت لوقت في الممر أدخن السيجارة تلو الأخرى، أنظر إلى الأضواء الهاربة إلى الوراء. نزل جانيكو من مخبئه، لم يقل شيئاً، كان أثر الصفعة التي تلقاها على وجنته يتغير إلى الأزرق الداكن. حين علمت أن زوج أمه قد ضربه، أردته أن يغادر معي.

لم أعد أعرف من طرح الفكرة أولاً. ربما كان هو، من فرط التكرار: «يوماً ما سأرحل.» وها قد جاء هذا اليوم.

حدثني عن عمٍ له في نيس يدعى رامون يورسي. كان يحتاج فقط لأحد يركب معه القطار، وكان ذلك أسهل معي. كان سيغادر على أية حال. كان سيبحث عن شاحنة كبيرة في رانجي أو في محطة خدمة.

ترك رحيلي أثراً ما في داخلي. قضيت زمناً طويلاً في باريس بدا كأنه سنون وسنون، لم أعد أذكر جيداً متى وصلت إلى أوسترليتز مع حورية. لقد حدثت أشياء كثيرة. كنت أشعر كما لو أني كنت عجوزاً، ليس حقاً عجوز

ولكن مختلفة، بخبرة أكبر. لم أعد أخاف من ذات الأشياء. صرت أستطيع أن أحدق بالناس مباشرة في عيونهم وأن أكذب عليهم، وحتى أن أواجههم. كنت أستطيع قراءة ما يفكرون به في عيونهم، وأن أجيب قبل أن يكون لهم الوقت الكافي لطرح السؤال. حتى أني كنت أستطيع الصياح مثلهم.

غير أني لن أعود إلى القيام بما كنت أقوم به من قبل، أن أسرق من محل كبير، أن أتسلل خلف شخص ما لأتخيل أنه من عائلتي، أو أن أتبع رجلاً ما في الشارع كي أقول لنفسي أنه حبي الكبير.

فهمت بأن مارسيال أو عبل أو زهرة أو السيد دلاهاي ليسوا بخطرين، وإنما ضحاياهم، لأنهم راضون بذلك.

فهمت أنه إذا كان للناس الخيار بينك وبين سعادتهم ، فلن تكون رابحاً.

في ليون، كنت متعبة جداً. تحسست طريقي نحو السرير الأعلى. كانت السيدة ذات الثوب الزهري تنام في السرير السفلي، غير أني رأيت أولاً الرأس المستدير للإسبانية، الذي كان يلمع في ضوء المحطة. دعوتها بالإسبانية لشعرها ولعينيها الفاحمتي السواد. كنت أظن أنها ستقول شيئاً ما، إلا أنها كانت مسرورة بالتحديق فيّ دون أن ترمش، ودون أن تبتسم. كان جانيكو ممدداً على الفراش، ينام عميقاً إلى حد الشخير. كانت رائحة عرقه قوية وملابسه متسخة. كما لو أني كنت أستلقي إلى جانب متشرد. دفعته إلى الحائط، غير أن الرجرجة كانت تعيده دون توقف. في النهاية، نمت بشكل متقطع بسبب الضوء وطرقات العجلات على سكة الحديد.

كان جانيكو من أيقظني من غفلتي. كان قد نزل من دون أن يصدر أي صوت، وتعلق على السلم مثل قرد، وقال بالقرب من أذني كيلا يعلو صوته: «تعالي يا خالة ليلى، تعالي لتشاهدي!». خرجت وأنا أتلمس طريقي. كانت

المقصورة خفيفة الضوء، وحارة، عبقتها رائحة الأنفاس. في الممر، كانت النافذة تبرز مستطيلاً ساطعاً. تصفعه المنازل والأبراج الكهربائية، فيما البحر يلمع تحت الشمس. كان القطار يتلوى بمحاذاة البحر، يدخل أنفاقاً، ثم يخرج منها، ويبقى البحر يلمع تحت الشمس، بزرقته العنيفة جداً التي جعلت عيني تمتلئ بالدموع.

كان جانيكو يرقص في مكانه. كانت المرة الأولى التي يرى فيها البحر. حين جاء من رومانيا، قاده القطار هو وأمه وأخوته من تيمشورا مباشرة عبر الحقول دون أن يتوقف إلا حين عبر الحدود بين ألمانيا وفرنسا حتى ينضموا إلى مخيم الرحّل.

من وقت لآخر، كان يلتفت إلي بابتسامة عريضة تجعل أسنانه تلمع على وجهه الداكن، ليقول: «أترين؟، أترين ذلك؟»

نزل الناس وراء بعضهم، في كلّ مدن الساحل، أغاي، سان رفائيل، كان، أنتيب. بقينا وحيدين في القاطرة قبل الوصول إلى نيس. كان القطار يسير بمحاذاة شاطئ حصى كبير، تبعه طريق تسير السيارات فيه بذات السرعة. كانت الأمواج تتكسر بشكل موارب، والنوارس تحوم فوق مصب المجارير. كانت الشمس تلمع عبر الزجاج. بدا لي كما لو أني كنت استيقظ ، أخرج من حلم، من مرض.

دون أن نترك مكاننا في الممر، تناولنا فطورنا الذي حملته من باريس، برتقال مغربي، قطع من الخبز البائت، مطلية بالشوكولاته. لم نكن نأكل أبداً الجامبون، بالنسبة لي لأنه محرم، وبالنسبة له لأنه كان يراه ليس طعاماً للإنسان. ذات مرة حين كنا نتناقش، أضاف بأنه لا يعرف من أين جاءته هذه الفكرة، وأنه يمكن بسهولة أن يقتنع المرء بأكل لحمٍ بشري يقال له أنه جامبون. وضرب مؤخرته ليبين قصده.

كانت نيس لطيفة كما تخيلتها. مدينة جميلة بيضاء، ذات قباب، ملأى بالحمام والمسنين، بشوارع عريضة محاطة بشجر الدلب، ومزدحمة

بالسيارات حتى على الأرصفة. كان هناك الكثير من العرب، مع ذلك فإنهم لا يشبهون عرب أفريقيا. ولا حتى الإسبان.

إنها مدينة للضحك، للحلم، مدينة للتنزه، كما كنا نفعل أنا وجانيكو، كنا نمسك بأيدينا، كأخ وأخت.

كان الناس ينظرون إلينا بفضول، بسبب مظهرنا، وملابسنا، أنا بسترة نونو المهدبة، وسروال الجينز وحذاء رياضي، أما جانيكو وبشعره الأسود الكث الأجعد، وبوجهه النحاسي مثل الهنود، ودائماً بأسماله الكبيرة، وقمصانه القطنية الثلاثة ذات الألوان المختلفة، الملبوسة فوق بعضها، أطولها السفلى، أما أصغرها، ولكن أعرضها، كان مخططاً بالأزرق الفاتح والأحمر والزهري بالأسفل. لم يكن معنا أي أمتعة، فقط أنا، حقيبة البحر التي تحوي جهاز الراديو القديم خاصتي، أشياء نسائية صغيرة، وكتاب فرانز فانون العزيز.

كان الجو عذباً. مشينا طيلة النهار، دون اتجاه محدد، بمحاذاة البحر، في شوارع المدينة القديمة، وحتى في التلال المليئة بالحدائق القديمة. لم يكن جانيكو يعرف أين يسكن خاله رامون. كان لديه فقط اسمه وعنوانه المكتوب بالعرض على مغلف، على هذا النحو:

رامون

أورشي

مخيم كرمات Crémat للاستقبال.

عند الظهر، أكلنا أيضاً خبزاً وشوكولاته، على شاطئ الحصى الكبير، محاطين بسرب من النوارس. كان جانيكو مثل كلب صغير، يركض بخط متعرج بمحاذاة البحر، كان يسقط على الحصى وسط النوارس. كان يقوم

بحماقات كثيرة مشابهة. لم أره أبداً على هذا النحو. فجأة أصبح مثل طفل، كان حراً، لم يعد هناك وجود للمستقبل. وأنا أيضاً، لم أعد أفكر بما سنفعله، وأين سننام، وما سنأكله هذا المساء. رميت للنوارس آخر قطع الخبز التي كانت يابسة جداً. لو كنت أستطيع، لرميت حقيبة الشاطئ الزرقاء إلى البحر، مع كل ما تحتويه. لم يمنعني من ذلك جهاز الراديو وكتاب فرانز فانون، جهاز الراديو ليس إلا علبة موسيقى، أما الكتاب فيمكن تعويضه. ما منعني، هو المغلف الذي يحتوي جواز سفر مريم ورسالة حكيم التي كتبها لي قبل أن يصطحب جده إلى يامبا على نهر فاليمي.

أمضينا كل شهر أيار في نيس، دون أن نفعل شيئاً سوى الذهاب إلى مكبّ القمامة في الصباح، وإلى الشاطئ بعد الظهر، والتنزه في شوارع المدينة القديمة.

في البداية، كان المخيم صعباً بعض الشيء. كان بعيداً عن كل شيء، في الشمال، عند الوادي، كان أبعد من الضواحي، وأبعد من أعمدة الطريق السريع. كان مثل دوار تبريكة، ما عدا أنه كان يقع في التلال بعيداً عن البحر، تلال وعرة وجرداء، حيث تهب الريح على شكل زوابع، حيث للغبار مذاق الإسمنت. كان المجمع السكني مبنياً أسفل مكبّ القمامة، مبان من أحجار مطلية باللون الزهري، أسقفها من الأجر، على الطراز البروفانسي. كان هناك ما يتجاوز الخمسين منزلاً صغيراً، تخيلت أنه يوم الافتتاح بحضور المحافظ ورئيس البلدية والمدير الفرعي لصندوق السكن الاجتماعي، كان المشهد جميلاً ملائماً للتصوير، ولا سيما حين لا تشمل الصورة مكبّ القمامة. غير أنه بعد سنوات، أصبح المكان مدينة صفيح مثل غيرها. توضّع دخان آلة الترميد على الجدران فيما تجمعت الأوراق والأكياس البلاستيكية على الأسلاك الحديدية، وأصبحت الشوارع متشققة، ملأى بحفر موحلة.

كانت المقطورات جميلة. حيث كان للرُحل أمامَ كل منزل صغير مقطورة أو مقطورتان، بعضها دون عجلات، وضعت على أحجار من القرميد. أسكننا رامون أورشي في واحدة منها، مع ثلاثة أطفال، بعمر جانيكو وأصغر، مالكو وجورج وإيفا. في المساء، كنا نمد أكياس النوم، والأغطية وننام على أرض المقطورة متراصين مع بعضنا كيلا نشعر بالبرد.

كان رامون رجلاً طويلاً قوياً، بشعر وحواجب فاحمة السواد، يعمل عاملاً بالمقطوعية في ورش البناء. كان يتكلم الفرنسية بشكل سيئ، غير أن جانيكو قال بأنه لا يتكلم الرومانية أفضل منها. لم يكن يتكلم. في المساء، حين كان يعود من العمل، يجلس على طرف السرير، في غرفة المنزل الوحيدة، ويشاهد التلفزيون وهو يدخن.

حين رأى وصول جانيكو، لم يكن مندهشاً. ربما كان ينتظرنا، أو أن أحد أخبره بذلك. كان رامون أورشي يعيش في المنزل مع امرأة طويلة شقراء، بوجه أحمر، إيلينا. كانت إيفا ابنتها، غير أن جورج ومالكو كانا من امرأة أخرى تخلت عن رامون.

كنا نذهب في الصباح، في ساعة مبكرة، مع جانيكو والصبية إلى مكب القمامة. دعى جانيكو ذلك عملاً.

كانت الشاحنات تصل الواحدة وراء الأخرى، إلى صالة الفرم. كان صبية المخيم هنا، من كل جانب، وفي اللحظة التي تصير فيها كومة الزبالة على الأرض، ينقضون عليها مثل الفئران، قبل أن تمسك الرفاشة الألية الحمولة وترسلها إلى المسننات الفولاذية.

رأيت من قبل مزابل، في تبريكة، غير أني لم أر أبداً شيئاً مشابهاً. كان الهواء مفعماً بغبارٍ ناعمٍ، حامز، يحرق العيون والحلق، رائحة عفونة، نشارة،

موت. كانت الشاحنات تعمل في الضوء الخفيف، أضواء منارة، تحذيرات تعلو للتراجع، ومن الأعلى كانت دفقات من النور تسقط راسمة أعمدة في الغبار. كانت الضجة تبعث على الصمم، حين تبدأ المسننات عملها في قصّ قطع الخشب والأغصان والعوارض.

كان جانيكو ومالكو وجورج يفتشون الأكوام ويحملون ما يجدونه إلي. دفاتر مشوهة، أواني مبعجة، وسائد مشقوقة، ألواح خشبية شائكة بمسامير صدئة، أيضاً، ملابس وأحذية وألعاب وكتب. كان جانيكو يحمل إلي الكتب خصيصاً. لم يكن ينظر إلى العناوين. كان يضعها على جدار واطئ، بجانبي، بالقرب من مدخل الصالة، ثم يعود راكضاً ليستقبل شاحنة جديدة.

كان يوجد من كل شيء. أعداد قديمة من مجلة المختار، وأعداد عتيقة من مجلة Historia ، كتب مدرسية من قبل الحرب، روايات بوليسية، المكتبة الخضراء، المكتبة الزهرية، المجموعة الحمراء والذهبية، السلسلة السوداء. كنت أجلس على الحائط الواطئ، في مهب الريح، أقرأ عدداً من الصفحات، مثل قيثارة الأعشاب:

«متى سمعت عن قيثارة الأعشاب للمرة الأولى؟

قبل الخريف، الذي ذهبنا فيه للسكن في الشجرة، لنقل قبل عدة خريفات، كانت دولي التي كلمتني عنها، لم يكن هناك أحد سوى هي التي يمكن أن تبتكر اسماً مشابهاً، قيثارة الأعشاب.»

كنت أقرأ أي شيء: كان يخيل إلي أنه في جهنم المزبلة لم يكن للكلمات ذات القيمة. كانت أكثر قوة، ترن لفترة أطول. حتى عناوين الروايات التي ترمى بعد قراءتها، رداء الراهبة، الباب الذي يُفتح، الباب الذهبي، الباب الضيق، ومع ذلك هناك عبارات تقفز إلى العيون وتظل مطبوعة في الذاكرة، مثل:

«لماذا نرحل ذات يوم؟»

أو هذه الصفحة التي فرت من كتاب قديم، وبقيت سليمة بإعجوبة وسط جبل القمامة:

السهل الكبير أبيض ساكن ودون صوت
لا صخب، ولا نغم. أُطفئت الحياة كلها.
غير أنه يسمع في بعض الأحيان، أنين كئيب،
بعض الكلاب الشاردة تنبح في طرف الغابة

الليلة المرعبة للطيور الصغيرة
ريح باردة تهب وتركض في الممرات
لم يعد لهم الملجأ الظليل لمهد الطفولة
لا يستطيعون النوم على أقدامهم المجمدة.

إنهم هنا، على الشجرات الكبيرة العارية المغطاة بالجليد
يرتجفون، دون أن يحميهم شيء.
ينظرون إلى الثلج بعيونهم القلقة،
ينتظرون حتى الصباح الليل الذي لا يأتي.

بعد ذلك، أصبح هذا النص لازمة بين جانيكو وبيني. من وقت لآخر، في الشارع، أو حين نكون في أكياس نومنا على أرض المقطورة، يبدأ بلهجة غريبة : «الليلة المرعبة للطيور الصغيرة!» أو أقول أنا: «لا صخب! ولا نغم!» أظن أنها المرة الوحيدة في حياته التي يسرد فيها الشعر!

في الصباح، كنت أسرع مع الصبية إلى المزبلة. كانت لعبة. كنت مهووسة بما سنجده. كانت الشاحنات تصعد وتنزل التلة مثل حشرات كبيرة. كانت أطنان القاذورات تُصب، وتطحن وتهرس، فيما يصعد الغبار الحامز في كل الوادي، يصعد إلى وسط السماء، ناسجاً بقعة غامقة كبيرة في زرقة الفضاء الخارجي. كيف لا يشعرون بها في بقية المدينة؟ كانوا يرمون قاذوراتهم، ومن ثم ينسونها. مثل برازهم. غير أن البودرة الناعمة مثل غبار الطلع كانت تنزل عليهم، كل يوم، على شعرهم، على أيديهم، على أحواض زهورهم. كان يمكن أن يوجد أي شيء في الأنقاض. ذات صباح جاء مالكو فخوراً. ممسكاً بيديه لعبة، جمل جلدي مخيط، عليه هجّان بزي أحمر وعمامة بيضاء وسيف على الحزام.

كانت هناك أيضاً مشاجرات، مجموعة من الإسبان أعمارهم تتجاوز العشرين عاماً، ذوي قمصان موشحة بالزهور، وعصبات حول شعورهم. كانوا يشتموننا لأن مالكو وجورج يتكلمان الرومانية. كانوا يجيئون ليروا ما وجدناه، عجلة دراجة هوائية، أواني، قضبان للستائر، خيط حديدي صدئ، أطراف طاولات معدنية، آلة كاتبة، مظلة سوداء جيدة، أحذية. كانوا ينظرون إلى كتبي، روايات جاسوسية، كتاب شعر بالإيطالية لليوباردي Leopardi أو لدانينزيو D'Annunzio. كان أحدهم يفتش الكتب ويرميها بازدراء. مسكني، بحركة ما، من عنقي وحاول تقبيلي. دفعته، فيما قفز عليه جانيكو وتأرجح على عنقه. تشاجرا بعنف غير عادي، وتدحرجا على النفايات، دون صرخة ، فقط صيحات هان! في كل مرة يلكمون فيها، ويركلون. توقفت الشاحنات عن الدوران، واحتشد الناس ليشاهدوا المشاجرة. كان مالكو وجورج يتشاجران مع إسباني، أما جانيكو مع آخر. فيما كنتُ أصرخ مثل مجنونة، وانتفش شعري الكث من الريح، وتغطت سترتي الجلدية بالغبار، وكذلك حذائي الذي وضعته إلى جانبي على الجدار الواطئ.

ومن ثم أخذ عامل من المزبلة، عجوز كان يتلفظ دائماً بعبارات عنصرية ضد السود والعرب والغجر، سنان الرش الذي يستعمل لتنظيف

هواء هذه المزبلة، ورشنا بالماء البارد بقوة كبيرة، بحيث أن جانيكو انزلق على ظهره، وفيما طارت كتبي على شكل قصاصات ورق.

كان رش الماء قاسياً مثل سوط أتلف كلّ كتبي. كرهت هذا الرجل وصرخت: «قذر! خنزير! نذل!» وتابعت الشتم بمخزون الشتائم الذي أدخره باللغة العربية. كانت المرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى المكبّ.

رأيت سارة للمرة الأولى صدفة في بار فندق الكونكورد المطل على طريق النزهة. أحببت هذا الفندق بسبب تمثال امرأة طويلة من البرونز تحاول الهرب من كتلتين بيتونيتين. دخلت إلى القاعة لأسأل عمن صنعه، فأخبرني البواب باسم النحات، سوسنوفسكي، كتبه لي على ورقة. كان ذلك عصراً، تركت جانيكو، لأنه لا يمكن مرافقته بقمصانه القطنية القبيحة الملبوسة فوق بعضها وبشعره الكث والمشعث... دون التكلم عن رائحته! سمعت الموسيقى من آخر القاعة. كان ذلك باعثاً على الفضول، لأني عادة لا أستطيع سماع الموسيقى من بعيد بسبب أذني اليسرى. غير أن النغمات الكثيفة هنا قد وصلتني، خفيضة باهتزازات سرت على بشرتي وفي جوفي.

مشيت عبر الصالة، تقودني النغمات. للحظة، خفق قلبي لأنني اعتقدت أنني قد وجدت سيمون، وأنها هي التي تقف في آخر البار تغني Black is the color of my true love's hair.

لأسمعها جيداً، جلست بالقرب منها على درجات المنصة، وحين رأتني ابتسمت لي كما لو أنها تعرفني وأظن أنه بسبب ابتسامتها لم يطردني النادل الذي كان ينظر شزراً لهذه السوداء القصيرة ذات الشعر القصير الأجعد، والتي ترتدي بنطال جينز وسترة جلدية.

استمعت إلى كلّ الأغاني حتى الليل. كان الناس في البار يثرثرون وهم يشربون الويسكي، كانت هناك أزواج تتشكل ثم تنفصل. حتى أن هناك من كان يرقص. أما أنا فكنت أشرب الكلمات والموسيقى، أنظر إلى الظل الطويل للمرأة الشابة، وإلى ثوبها الضيق الأسود الذي يبرز جسدها، وإلى وجهها وشعرها القصير.

بعد ذلك، تحدثت إلي. كنت أجد صعوبة في الفهم، حاولت قراءة شفتيها. شربت في البار كأساً من المياه المعدنية، قالت لي أن اسمها سارة، وأنها من شيكاغو. دعتني بـــ « Sister Swallow أختي السنونوة» ولا أعرف لماذا. قالت لي أيضاً: «I love your hair أحب شعرك.» كتبت اسمها وعنوانها على مغلف، لأنها ستغادر قريباً. أما أنا فكتبت اسمي ولكن بالنسبة للعنوان، لم أكن أعرف، لذا وضعت عنوان بياتريس.

بدأ عازف البيانو العزف ثانية، فعادت إلى المنصة. وبقيتُ حتى النهاية. في الليل، جاء رجل طويل أسود لاصطحابها. كان يرتدي بزة ومعطفاً أخضر ومنديلاً أبيض، كما في السينما. اصطحب سارة، انسلت نحو الباب وهي تتموج ، وأثناء عبورها ابتسمت لي أيضاً بابتسامتها التي تلمع على وجهها الأسود. بدت كما لو أنها نجمة أو ربة أو جنية.

صرتُ أعود كلّ يوم، من الخامسة حتى التاسعة مساءاً، كنت أجلس في مكاني على طرف المنصة. إن قال لي نادل شيئاً ما، كان جوابي جاهزاً: «إنها أختي.» غير أنها قد نبهتهم، ولم يسألني أحد عن أي شيء.

غنت لي سارة طيلة شهر أيار. كان الجو عاصفاً، وممطراً، كان مطرٌ رائعاً، أما البحر الهائج الأخضر فقد كان بهياً. كان جانيكو يأتي معي كل يوم، على الشاطئ أو على الحاجز البيتوني الكبير. غير أنه لم يكن مكاناً ملائماً لفتاة. ذات يوم، كنت أنتظر جانيكو، جاء رجل وأظهر لي عضوه المختون. كانت

نظرته غريبة، شاردة، حتى أنه لم تكن لدي الرغبة في أن أصرخ عليه كما فعلت قديماً بعجوز المقبرة. كان هناك أيضاً صيادون في مراكبهم، يبدون كما لو أنهم يرفعون شباكهم إلا أنهم كانوا يقوموا بإشارات فاحشة. كانوا يصرخون بحماقات لا أفهمها. كان جانيكو يصيح غاضباً: «أولاد العاهرة»، يقفز من صخرة لأخرى، يومئ بإشارات، يبدو كما لو أنه يرميهم بالحجارة.

كان غالبا ما يقتلني ذلك، لم يكن هناك مكان هادئ في هذا العالم. حين نعثر على مكان منعزل، مكان وعر، كهف ، ، ساحة صغيرة منسية، يكون هناك دائماً إشارة فاحشة، شخص خسيس، أو متلصص.

في كل عصر كان لدي موعد لأنصت إلى موسيقى سارة التي تنسل مثل ملامسة. وكلّ عصر كنا نتكلم، في الفاصل. لم نحن نتكلم حقاً، لأنها لم تكن تعرف الفرنسية، ولم أكن أسمع جيداً ما كانت تقوله. كانت تبتسم، وتقول في كل مرة:«Sister Swallow I love your hair» أصبح ذلك كلاماً مكرراً.

كنت أبقى حتى النهاية، وفي كل مساء، كان صديقها يأتي لاصطحابها، وتعبر أمامي بمشيتها المتأرجحة وبعينيها اللتين تتلهيان، وبابتسامة صغيرة على وجهها، دون أن تقول شيء، كما لو أننا لا نعرف بعضنا، تعبر نحو باب الفندق، نحو الليل. ذلك الشهر، كنت عاشقة لسارة.

في ذلك الوقت، بدأت مشاكلي مع صبيين من مخيم كريمات، كانا أخوين، داني وهيغس. كان شعر داني غامقاً ومجعداً، أما هيغس فكان طويلاً وأشقر. هنديان، هكذا كنت أدعوهما بسبب قمصانهما الموشحة بالزهور، وعصبات شعرهما، وسيارتهم، سيارة شريسلر، كانا يقومان بها باستعراضات. كنا نصعد جانيكو ومالكو وأنا، في سيارتهم. كانا يدوران في الشوارع دون اتجاه محدد، يشفطان ويزغردان. كان ذلك جنوناً. يعبران الشوارع بأقصى سرعة، تندفع

الريح الباردة عبر النوافذ المفتوحة، أظن أن ذلك ما كان يجعلهما ثملين، غير أنهما يدخنان قبل ذلك، كانت عيونهما حمراء بعد كل ظهر.

لم أكن خائفة، أبداً لم أعرف الخوف من أناس أمثال داني وهيغس، يبدو لي دائماً أني أرى فيهم الأطفال والصبية التي كانوها، الصبية الوقحون والمضحكون والضعفاء.

كان عمر داني عشرون عاماً فقط، وعمر أخيه ثمانية عشر عاماً، مثلي. قبل الليل بقليل، أوقفوا السيارة في موقف مخزن كبير لأدوات التصليح، مثل مخزن بريكولتو والمنزل الأخضر، لم أعد أعرف. نزلنا من السيارة، وبدأ الأخوان يجوبان أقسام المخزن مثل بدائيين. بشعرهما المنسدل على كتفيهما، وبقمصانهما الموشحة بالزهور المفتوحة في الجو البارد. ظل الناس مسمرين، ورقابهم مخبئة بسترهم، يتابعونهم بعيونهم، مثل ذئبين يركضان في الممرات. يتكلمان بصوت عال بالإسبانية، ويتنادون على بعضهما البعض من طرف إلى طرف آخر من المخزن، يضحكان وأسنانهما تلمع على وجهيهما الداكنيين. ثم غادرنا وسرنا دون اتجاه محدد بمحاذاة النهر، إلى أن وصلنا إلى الجبل، اجتزنا الضواحي النائمة، الغارقة في الضباب الذي جعل الضوء الأصفر للمصابيح ضعيفاً.

كنا نقوم بأشياء مجنونة. كنا نذهب إلى مقبرة، ونتصت إلى المقابر لسماع تنفس الموتى. كان في داني شيء من الجنون، كما أعتقد. كان خال جانيكو يحذرنا: «لا تذهبوا معهما، سيسببون لكم المشاكل.» كنت أحب هيغس، كنت أجلس في الأمام، بين الأخوين. كنا نقف لنشرب، وكنت أتغازل مع هيغس، أثناء تدخين مالكو وجانيكو في الخارج، وهما يجلسان على غطاء المحرك. غير أن داني أراد أن يقبلني، وبما أني دفعته، أصبح هائجاً. برز وريد على جبهته، ولمعت عيناه. تناول قارورة غاز صغيرة للقداحات، ورشني مشعلاً فيّ النار. شعرت بهبة قوية مثل صفعة، وجدت نفسي في الخارج أصرخ، فيما احترق صدري ويداي.

أطفأ هيغس النار. لفني في سترته، ودحرجني على الأرض، ولكمني عدة لكمات، كنت مخبولة، لم أدرك ما جرى. خلال هذا الوقت، تعارك داني وهيغس، تشاتما، فيما كان جانيكو ومالكو ينظران دون أن يتحركا. أعتقد أنهما لم يدركا ما حدث. أما أنا حين أدركت، رحلت وعبرت الطريق، وتركتهم هناك. التقطني مباشرة سائق سيارة واصطحبني إلى الإسعاف. كان لطيفاً، أراد البقاء معي غير أني شكرته، وقلت له أنه لم يحدث شي، سوى حادث صغير. ضمدني الطبيب المناوب، كنت محروقة في ثديي وعنقي، وذراعي.

قال لي الطبيب المناوب: «من الذي فعل بك هذا؟» كنت أعلم أنهم يزودون الشرطة بالمعلومات. كنت متألمة، وأشعر بالوهن، غير أني قلت أني سأصبح على ما يرام. وقلت: «لا شي، فقط كان حادثاً حين أردت إشعال النار.» بدا أنه صدقني، وطلبت فقط سيارة أجرة لتعيدني إلى كريمات.

كان عليّ الذهاب بعد ذلك. لم يقل رومان أورشي شيئاً غير أن إيلينا جاءت إلى المقطورة. وضعت حاجياتي ورتبتها في حقيبتي. أعطتني كنزة جديدة من الصوف الأحمر والأسود. كانت تنظر إلي بقسوة، كما لو أنها تكرهني. كان مالكو وجانيكو يلعبان بالكرة في الشارع المحفر. قلت لإيلينا: «وجانيكو؟» أشارت بأنه سيبقى هنا، معهم. أظن أنها كانت محقة، وأن ما حصل كان بسببي، وأن ذلك لن يكون على ما يرام. أنا التي أحمل النحس. عند المدخل، كانت هناك مجموعة من الغجر يتشاجرون حول طاولة معدنية، كما لو أنهم سيقتسمون فريسة. كان ذلك باكراً يوم الأحد، لم يكن مصنع معالجة النفايات يعمل. وضعت حقيبتي من حمالتها على الكتف الأيسر، بسبب الحروق. كانت السماء زرقاء، فيما كانت طيور السنونو تخط الفضاء، سمعت صرخاتها بوضوح. ركبت الباص حتى المحطة، تبقى معي ما يكفي من نقود لشراء بطاقة في القطار التالي إلى باريس.

-١٤-

تلك السنة، قبل الصيف، حدثت تغيرات كثيرة. فقد تقدمت إلى امتحان الشهادة الثانوية الأدبية، كمرشحة حرة. كما كان متوقعاً، فقد رسبت. سلمت ورقة امتحان الرياضيات بيضاء، وكذلك التاريخ. أما في امتحان اللغة الفرنسية الشفهي، لم تصدق الممتحنة أنني مرشحة حرة. فحصت جواز سفري، ونظرت في ملفي، وقالت: «توقفي عن الكذب، أين درستِ؟» ومن ثم: «أين قائمتك؟» وفي النهاية، وبما أنها خجلت من نفسها بسبب غضبها، قالت لي: «عن أي كاتب سيكون عرضك؟» قلت دون تردد: «إيمي سيزير» لم يكن مدرجاً في البرنامج، غير أنها كانت مندهشة، قالت: «إني أسمعك.» استظهرت مقطعاً من دفاتر عودة إلى الوطن الذي استشهد به فرانز فانون:

ولهذا الإله ذي الأسنان البيضاء
الرجال ذوي الأعناق الهزيلة
يستمد ويرى الصمت المميت
ولي رقصاتي
رقصات زنجي شرير
وحتى:

اربطني بالأخوة الحامزة

واخنقني بحبلك النجومي

اصعد أيها اليمام

اصعد

اصعد

اصعد

أيها الساكن في ماضيّ، إني اتبعك

بقرنية بيضاء

اصعد يا أيها الذي تلامس السماء

والعدم حيث كنت أريد أن أغرق

هناك، في القمر الآخر

أريد أن اصطاد الآن اللغة الشيطانية

لليل الساكن.

في الفلسفة، كان موضوع امتحان تلك السنة، الإنسان والحرية، أو شيئاً شبيهاً بذلك، كتبت إجابة طويلة من عشرين صفحة، استشهدت فيها، بشكل متواصل، بفرانز فانون ولينين، بالعبارة التي يقول فيها : «حين لا يبقى على الأرض أية إمكانية لاستغلال الآخرين، ولا يعود هناك ملاك عقاريون أو أصحاب مصانع، ولا يبقى هناك متخمون من جهة وجائعون من جهة أخرى، حين يصبح كلّ ذلك مستحيلاً، حينها فقط سنضع آلة الدولة جانباً.»

رسبت لأنني كتبت كلّ شيء دون أن أرتاح، دون أن أقرأه مرة أخرى، مثل هروب، بعد ذلك رميت رزمة الأوراق على مكتب المراقب، وغادرت

دون أن أعود. حتى أني لم أبحث عن اسمي في الجريدة، كنت أعرف مقدماً، أنه لن يكون فيها.

كان كل شيء في باريس على ما هو ومختلفاً في الوقت ذاته، كان منزل بياتريس وديعاً، كانت نافذة الصالة الكبيرة تبعث ضوءاً جميلاً. كانت جوانا قد كبرت، وقد نما شعرها. عيناها دائماً مثل حجر عقيق، ما زالت لها هذه النظرة الملحة والقلقة.

كنت أظل معها طيلة الصباح، خلال وجود ريمون في مكتبه وبياتريس في جريدتها. كانت شجرة اللبلاب ملأى بالطيور. كنت أحمل جوانا بالقرب من النافذة كي تسمع زقزقتها.

قررت الرحيل. حصلت على تأشيرة تبادل، بفضل أستاذ في المركز الثقافي وعقيد في قسم المعلومات الأمريكي أغرم بي. سأسكن عند سارة ليبكاب في بوسطن. حتى أني سجلت اسمي في السحب الذي يوزع بطاقات الإقامة في الولايات المتحدة، فقد كانت حصة الأفارقة جيدة تلك السنة. لم يكن ينقصني إلا النقود. بدلاً من بيع قرط الهلال العائد لأجدادي، استقرضت من بياتريس خمسة وعشرين ألفاً. كنت خجلة، غير أنها كانت مسألة حياة أو موت، أو ما أشبه ذلك. كنت أشعر أن بياتريس وريمون قدما لي هذه النقود كي أخرج من حياتهما للأبد، كي لا يبقى أي رابط يربط جوانا بأمها.

لم أودع أحداً بشكل حقيقي. كان كهف شارع جافلو مغلقاً. لدى عودته من موريا، أعطى إيف صديق نونو تعليمات لإدارة البناء بتغيير القفل. عبرت أمامه بسيارة أجرة عصراً، مما أحدث لدي شعوراً غريباً من رؤية الباب المعدني المدهون بالأخضر، مع الرقم ٢٨ المكتوب بلون أسود على حجر الزاوية، كما لو

أنه كاراج، أو خزانة كمبيوتر في الحائط، أو شيء من هذا القبيل، وكأنه لم يعش فيه أحد من قبل، وأنه لم تولد فيه أبداً، تلك الليلة، باسكال مليكة. كان شيئاً غريباً، كل شيء كان يبدو معكوساً. حين خرجنا من النفق طلبت من السائق «عد إلى الخلف». نظر إلي في المرآة العاكسة. أعدت: «من فضلك أريد المرور ثانية من هنا». كانت تسير السيارة ببطء، أنار السائق أضواء السيارة. نظرت إلى المكان الذي انتظرت فيه مرسيدس مارسيال جويو سيمون معظم الليل. كانت هناك بقع زيت على الطريق، كما لو أنها بقع دم. ربما ماتت. كان يصيح بها دائماً بأنه سيقتلها إن تخلت عنه، لعله قتلها. غير أنها كانت سجينته ، لن تستطيع الهرب منه أبداً. ربما من أجل ذلك كانت تستنشق البودرة وتتناول الحبوب. كان ذلك طريقها في الهرب.

أنزلتني السيارة في بولفار باربس، أمام نادي نونو. صعدت الدرج بين محلات الفلبير و بائعي أجهزة مكبرات الصوت. في الطابق، كان باب النادي مقفلاً، إلا أنه كانت هناك جلبة أصوات. قرعت مطولاً إلى أن جاء أحدهم. كان رجلاً طويلاً ببيجامة رياضية، عربي لا أعرفه. سألت: «أين نونو؟»

أعدت سؤالي. صرخ داخل النادي: «أتعرف نونو؟» سدّ الممر في وجهي، ومنعني من النظر. جاء رجل في الأربعين من عمره. سحنته غير مضيئة، أنف كبير، شعر مجعد أشيب، كان يشبه السيد دلاهاي. لا أدري لماذا، عرفت مباشرة أنه إيف لوغن، صديق نونو. نظر إلي طويلاً دون أن يقول شيئاً. حتماً أنه عرفني هو أيضاً. غير أنه لم يعبر عن شيء، لا تعاطفاً ولا نفوراً، مع ذلك كنت أشاركه نونو. أشار بيده ليقول أنه قد انتهى، بأن كل شيء انتهى. قرأت على شفتيه أكثر مما سمعته. كان يتكلم بصوت خفيض.

«لم يعد هنا، نونو لم يعد يأتي إلى هنا، خسر مباراته، وانتهى. لم يعد يلاكم هنا، لم يعد يلاكم أبداً.» صرخت: «أين هو؟ هل تعرف أين يمكن أن أجده؟» هز الرجل كتفيه. «ليس لدي أي فكرة، ربما عاد إلى أفريقيا، ربما تم طرده. لقد أضاع كل شيء.»

لم أستطع التصديق. رفعت نفسي على أصابع قدمي، ببلاهة، كي أرى خلف أكتافهم، كما لو أنهما يخفيان شيئاً ما. رأيت الصالة القذرة، الحلبة، الصبية الذي يضربون أكياس الرمل، كما لو أنهم يرقصون. كان هناك سود، نحيفون، صغار مثل نونو، يتدربون. بعد ذلك أدار الرجل ظهره لي، ودفعني العربي بيده كي يغلق الباب. كانت هناك رائحة حامضة، رائحة عرق، عفونة، مثل نونو حين كان يعود من التدريب. فجأة شعرت أني وحيدة. كما لو أني فهمت في النهاية أنني راحلة حقاً، لأن الجميع قد غادر قبلي.

عدتُ إلى ساحة إيطاليا، لرؤية حورية. لم يكن السيد في يحبني، لكن ذلك لم يكن يعنيني. قررت أن أشاهد حورية وباسكال مليكة، ولن يكون ذلك سوى للحظة. في هذه اللحظة لم أكن متأكدة مما سأفعله. في مطعم في تاي تو، كان الباب مفتوحاً للمساء، غير أن الصالة كانت فارغة. أخرج السيد في رأسه من باب المكتب، وقال بصوته القبيح: «ماذا تريدين؟» حاولت المرور، لكنه سدّ الممر. كان قوياً بالنسبة لرجل قصير ونحيف جداً. صرخ: «اخرجي من هنا! اخرجي من هنا!» تمنيت أن تصل صرخاته إلى حورية، لكنها لم تظهر. ربما قد حبسها. أو ربما لم تعد راغبة في رؤيتي. ربما حقاً أنا التي أحمل النحس.

درت في المترو كثيراً ذلك المساء، حتى من ناحية رومير أو من محطة ليون إلى دنفر روشرو. كان هناك أناس غريبون في القاطرات، على الأرصفة.

جنود مسرحون يغنون ويشربون النبيذ، متشردون، نساء بعيون شفافة، سواح ضائعون، أناس عاديون لدرجة غير عادية، مع سلال، وأغطية للكتف، وقبعات. من ناحية محطة آرإمتيه Arts-et-Métiers، بحثت عن الجندي الإرتيري العجوز الذي يبدو كمحارب من شعب عيسى متدثراً بدثار فضفاض وقدماه معصوبة بأسمال. بحثت عن مسيحي الذي يستجدي وهو جاث على ركبتيه وذراعاه متصالبتان. وماري مادلين ذات العيون الخضراء والشعر المحلول، والفم المدمى كما لو أنها كانت تعض. شيء غريب... للمرة الأولى دون شك، كانت الطبول صامتة، وكان الصمت يرن في كل الأنفاق، من ناحية أوسترليز كما بعد عاصفة، بعد رنين الأجراس. اعتبرت ذلك نذير شيء ما.

في اليوم الأخير قبل أن أركب الطائرة لبوسطن، تهت في شارع جان بوتون، كما لو أن هناك ما سأجده حقاً عدا بعض الفتيات المتسكعات وبائعي المخدرات وفندق الآنسة ماير. كنت آمل بشيء من اليأس أن تخرج ماري هيلين من البناء، بأن تجيء نحوي، وأن تضمني إليها بقوة، وبأن أجد نونو في مطبخها، عارياً يعزف. كانت تمطر وكانت حبات المطر تنقر البرك السوداء، لا شيء تغير، مع ذلك كانت تلك حياة أخرى، بعيدة جداً. عبرت سيارة شرطة ببطء، وسرتُ مسرعة، ووجهي ملتفت إلى الناحية الأخرى، كي لا يرى أحد إلى أي حدّ أنا سوداء. رغم جواز مريم ورسالة قسم الهجرة في سفارة الولايات المتحدة التي أعلمتني بأن اسمي قد تم سحبه في اليانصيب. كان قلبي يخفق كما لو أني سأرمى للخارج. لذا اعتقدت أنه لا يوجد لي مكان واحد في العالم، وأينما ذهبت، سيقال لي أني لست في بلدي، وأنه ينبغي أن أفكر في الرحيل بعيداً.

-١٥-

كان الصيف خانقاً في بوسطن، وسماءها تختفي من البخار الذي يملأها. كانت سارة ليبكاب تسكن شقة صغيرة مكونة من غرفتين في بناء من القرميد الأحمر بالقرب من نهر شارل Charles، بجانب المكتبة الجامعية .B.U. في الصباح، كانت تقوم بتدريس الموسيقى في مدرسة دينية، أما في المساء، فكانت تغني في ناد للجاز مع صديقها عازف البيانو جوب.

كانت الأيام الأولى ممتعة، لم أشعر أبداً بمثل هذا الشعور بالحرية. كانت مثل أيام الفندق وأميراته، لكن هنا، لا يبحث عني أحد. كنت أركب الترامواي، أذهب أينما أريد، كنت أخرج طيلة النهار، إلى البلاك باي وهايماركت وأرلنغتون، وإلى الميناء. كنت أذهب إلى كامبردج سيراً على الأقدام، وأمشي بمحاذاة النهر وأركب العبارة. كنت أقوم بالأعمال المنزلية أثناء غياب سارة في دروسها، أغسل وأرتب الأواني، أعدّ شيئاً لطعام الغداء والعشاء. لم تكن سارة تطلب شيئاً، لكن ذلك كان يبدو لي طبيعياً مقابل السكن، مثلما كان الحال عند بياتريس. ما عدا أن سارة لم تكن تعطيني النقود وكذلك جوب. كما أنهما لم يسألاني، عما أنفقه لشراء الطعام، وأنا لم أكن أجرؤ على المطالبة. كنت أشعر أن مدخراتي تنفذ، و لايمكنني العمل دون البطاقة الخضراء. كنت أفتح علبة الرسائل كل يوم متأملة بأن أجد مغلفاً يحمل في قسمه الأعلى عبارة قسم الهجرة. وفي كل يوم كنت أزداد عصبية، كنت أشعر بمصيدة تغلق بتمهل دون أستطيع فعل شيء.

كانت سارة وجوب يعيشان يوماً بيوم. لم يدخرا شيئاً. كانت سارة تدفع أجرة الشقة بأجرها من تدريس الموسيقى، أما ما تبقى من السهرات مع الأصدقاء والمطاعم والثياب، كان يسدده أجر النادي. أعتقد أنهما كانا أيضاً يتعاطيان المخدرات. كانا يدعواني من وقت لآخر. ويصطحباني إلى نادي سي تي وايو في البلاك باي والذي كان يسميه جوب البلاك باي لأنه كان يُسمع فيه أفضل موسيقى جاز.

كانت سارة تحب أن تعرضني على أصدقائها. كانت تجعلني أتنكر مثلها، بجورب لاصق أسود وقميص أسود وبيريه، أو تجدل شعري بضفائر صغيرة، مثلما كانت الأميرات يفعلن في الفندق. كانت فخورة بي، كانت تقول بأنني لا أشبه أحد، وأنني أفريقية حقيقية. هذا ما كانت تقوله لأصدقائها: مريم، من أفريقيا. كان الناس يصيحون «أه؟» أو «أوو؟»، كانوا يسألون أسئلة سخيفة، من نوع «ما اللغة المحكية هناك؟» كنت أرد: «هناك؟.. لا نتحدث هناك...» في البداية، انسجمت مع لعبة سارة، ومن ثم بدأت أشعر بالملل بشكل جدي من هذه الأسئلة ومن هذه النظرات، ومن جهلهم بكل شيء. في النادي، كانت الموسيقى قوية جداً، نغم ثقيل يدق في جوفي، حاولت عبثاً أن أضغط بيدي على أذني السليمة، غير أن صخب الجهير كان يدخل جسدي، ويجعلني أتألم. كنت أشرب البيرة، مارغريتا، كوبا ليبر، كنت أشرب الضوء والدخان. كنت أثمل، مثلما كانت حورية عند عودتها من حفلات الزواج.

ربما كنت أحب ذلك أو ربما لا. كان ذلك جديداً، كنت أشعر كما لو أن جسدي قد تغيّر. أصبحت نحيفة جداً، هزيلة تقريباً، ، عيناي محمومتان، كنت أشعر بالكهرباء في أصابعي، وحتى أطراف شعري. كنت أشعر بالكحول يضخم مفاصلي، يجعلها أكثر مرونة. كنت أذهب من فرقة إلى

أخرى. كان جوب يمسكني من خصري، ويتكلم بصوت جهوري وبسرعة، ولم أكن أفهم ما كان يقوله. وكانت سارة تضحك بطريقة غريبة، ضحكة خفيضة تصبح مرتفعة، تتدحرج مثل شلال.

كانت سارة ليبكاب تحب رواية حكايتي، كيف تعارفنا، في فندق إكسلسيور أو كونكورد، لم أعد أعرف، تمثال المرأة العارية بين جدارين كما لو أن هناك هزة أرضية. وأنا التي كنت أجلس على طرف المنصة، مثل فتاة صغيرة جادة، لأسمعها وهي تغني لماهاليا جاكسون ونينا سيمون. كانت أختي الكبيرة التي وجدتني، أنا التي لم يكن لدي أحد في هذا العالم، أنا التي أستطيع أن أدق على الدربكة وأن أغني – كانت رائعة- جعلتني أجيء إليها، إلى هنا، إلى بوسطن، في هذه المدينة الفاسدة، مدينة المعتوهين الأنغلو، حيث لا يستطيع أحد، ولاسيما إن كان موهوباً، أن يخرج من وحلها الذي ينبغي أن يتكيف معه.

كان ذلك في البداية. غير أنه في نهاية الصيف، حدثت تلك العاصفة، هذا الإعصار الذي قلب كلّ شيء. لا أعلم إذا كان الإعصار حقاً سبب ما حدث. كان الجو حاراً خانقاً منذ بداية آب. في بعض الأحيان كان الضباب كثيفاً بحيث أنه كان يخفي الأبنية العالية، ناحية الميناء. حين وصل الإعصار متجها نحو رأس كود، أطلق الإنذار. أوصد الناس أبوابهم ونوافذهم، وفي أعلى الأبراج الزجاجية ألصقوا شرائط ورقية. غير أن سارة تابعت ذهابها إلى مدرستها لتدريس البيانو.

في الصباح، كان جوب معتاداً على البقاء في المنزل. كان يتحجج بأنه سيساعدني في الأعمال المنزلية، وإعداد الغداء، ولكنه كان يتمدد على الأريكة في غرفة المعيشة ويشرب البيرة وينظر إلي بطرف عينه من فوق شاشة التلفزيون المشغل.

في ذلك الصباح، حدث حادث تافه، أسفت كثيراً بسببه. جاء جوب نحوي، دون أن يقول شيئاً كما لو أنه جاء ليشرب في المطبخ. كان الجو حاراً، كان عارياً، إلا من سروال داخلي، جسده الأسود يلمع من العرق. كنت أكنس بالمكنسة المبللة الأرضية، وبدلاً من أن يتخطى المكنسة جاء خلفي وأمسكني. في البداية، ظننت أنه يمزح، لأنه احتضنني محاولاً تقبيلي. مدّ يده تحت قميصي ليلمس ثديّي، بدأت أصرخ بكلّ قوتي فتركني. ظننت أن الأمر انتهى، غير أنه عاد إلي محاولاً إدخالي إلى الغرفة، نحو السرير. لم يكن جوب طويلاً جداً، غير أن الكحول قد ضاعف قواه، أثار فيّ السخط وجرني نحو الغرفة. تابعت الصراخ وأترعته ضرباً بقبضتي. لكنه ضربني، أولاً بجانب الرأس، ومن ثم على وجنتي وعنقي. كان يصيح في نفس الوقت: «عاهرة!» أو «لا تكوني عاهرة!» حين أدرك أنه لن يصل إلى أي شي، أو ربما لأنه خاف من أن يقرع الجيران الباب ليسألوا عما يحدث، تركني. أخذ يدي ووضعها على عضوه الجنسي المتصلب. أراد أن أستمنيه، كان يقول أنه مريض. كنت أعتقد بما كان يقوله، وأني إذا تركته في هذه الحالة سيسقط مريضاً. صرخت به بأن يذهب إلى الجحيم وغادرت.

مشيت طيلة النهار في شوارع بوسطن. في النهاية، لم يصل الإعصار. غيّر اتجاهه عند رأس كود وذهب ليدمر المنازل الخشبية للأغنياء في مارثا فينيارد.

كانت تمطر عصراً. ذهبتُ إلى الطرف الآخر من النهر، في الشوارع الإنكليزية الصغيرة في كامبردج. كان الناس قد خرجوا من منازلهم، كان هناك طلاب وعشاق على المروج الخضراء يستظلون بمظلات الغولف. كان المطر الحار ينشر رائحة العشب والأرض.

شعرت بالخواء والتعب. في مقهى بالقرب من محطة الترام، التقيت بجان فيلان. أخبرني بأنه جاء لاتباع دروس في هارفارد وبأنه يعلم الفرنسية في فرع الأليانس الفرنسية بشيكاغو. لم يكن طويلاً جداً، كان في جبهته بعض الصلع، إلا

أنه كان له عينان خضراوتان جميلتان، مضطرب قليلاً، وذو ابتسامة لطيفة. أمضينا بقية النهار معاً في الحديث والمشي في الشوارع، والتنقل من مقهى لآخر. كان صوته خفيضاً أسمعه جيداً، و يداه كبيرتين جميلتين. أعتقد أنني لم أتكلم أبداً بمثل هذا القدر من قبل، بدا لي كما لو أنه منذ سنوات لم أتكلم على هذا النحو، مثلما كان مع جد حكيم. احتمينا تحت شجر الحدائق، وحين بللنا المطر كثيراً، جلسنا في مقهى. وأخيراً، حين حلّ الليل ذهبنا إلى غرفته في الأي إن إن، في الطابق الأخير والتي كانت نافذتها تطل على جادة ماسشوتس.

لم نكن نتكلم حقاً، بسبب أنني المصابة، أما الأخرى فكانت تعبة. كنت أشعر بخواء يرن في رأسي، لم أكن أريد التفكير بما حدث في منزل سارة. كنت أتكلم بما يخطر على بالي، دون فكرة محددة، فيما جان كان يتكلم أيضاً من جهته. حكى لي عن طفولته السعيدة، أخوته وأخواته، في مقاطعة بريطانيا، في باريس. كنا نضحك من وقت لآخر، كما لو أن هناك نكتة لطيفة.

كان الوقت متأخراً للعودة. أبداً لم أرد العودة إلى منزل سارة. أكلنا بسكويتاً مالحاً من البراد، وشربنا زجاجات صغيرة من الكحول والجن والفودكا.

في الصباح، لم أكن قد نمت. كان جان ممدداً على الأريكة، كان يبدو شاحباً وتعباً، فيما لحيته كانت تظلل وجهه. قلت لنفسي، أنه لدى خروجنا، سيظن أناس الفندق أنني عشيقته أو ربما مومس عابرة.

ذهبنا لتناول الإفطار في كافيتريا في الفندق، في الباحة الداخلية. الكثير من الشاي وبيض وفاصوليا. كان جان سيستقل الطائرة إلى شيكاغو عند الظهر.

عدت عند سارة.

غير أن الأيام التالية لم تكن مريحة. لم أعرف ماذا روى جوب لسارة، غير أنها أصبحت فظة وسيئة التعامل معي. فكرت أن أقول لها الحقيقة، غير

أن ذلك لن يفيد بشيء. لن تصدقني. تقف النساء دائماً في طرف أزواجهن حتى ولو كانوا يخنهن، أو حتى كن يخنهم.

لذا اشتريت بطاقة غري هاوند، ووضعت حاجياتي في حقيبة الشاطئ، ودائماً الراديو القديم المبقع وكتاب فرانز فانون ذكرى حكيم، ورحلتُ إلى شيكاغو.

لم أعد خائفة من شيء، كنت قادرة على مواجهة العالم. بعد يومين من وصولي، تم استخدامي في فندق في كنال ستريت يديره السيد إستبان «السنيور»، كوبي منفي، وذلك من أجل جمع وغسل أكواب البار في «الساعة السعيدة– ساعة الخصم» ساعة مسافري الغري هاوند. كانت هناك مغنية سوداء لا تشبه سارة والتي تجعجع بأغاني بلوز برفقة عازف بيانو تعب. استأجرت غرفة في منزل في ساوث روبسنون، وضعت شاشة على النافذة السفلى، مثل صالة السينما. منزل قديم، هش من الخشب القاتم، له درج مدخل وسقف من القرميد الأخضر ومدفئتان من الآجر.

بعد وقت، مرض عازف البيانو وحللت محله. نفعتني كثيراً دروس سيمون وسارة. كنت أعزف من الذاكرة، لم أكن بحاجة لأقرأ الموسيقى. أصبح كل شيء سهلاً: كنت أحصل على خمسين دولار كل مساء، وخلال أربعة أيام استطعت أن أدفع أجرة غرفتي. كنت أتعشى في الفندق قبل الصعود إلى المنصة، ستيك وجمبري، وكنت أستطيع أن أمسك نفسي إلى المساء التالي مع الحليب والحنطة. كان صاحب الفندق يحب موسيقاي. كان يأتي ويجلس في الصالة حين أعزف، كان يستمع إلي وهو يشرب مياه غازية. وحين تركت المغنية بدورها، كنت أنا التي أغني وأعزف البيانو في مكانها. غنيت من مجموعة سارة وبيلي

هوليدي ونينا سيمون. في بعض الأحيان كنت أرتجل، أعود إلى الموسيقى التي كنا نعزفها في ممرات محطة روميرو سيبستول، أو على سطح شارع جافلو. فقط إيقاع البيانو الذي كان يسير، وهدير عاصفة من بعيد، الضجة الكثيفة للسيارات في الجادات والصرخات والنداءات وصراخ حاصدي قصب السكر في حقول سانت دومينيكان: «أواها! هووا!»

لم يكن السنيور يتكلم كثيراً، ولكن من الطريقة التي كان فيها ينقلب فيها قليلاً على الكرسي و يغلق عينيه قابضاً على سيجارته، كنت أرى أن ذلك كان يرضيه. لم أكن أنتبه إلى الناس الذين يشربون في البار، كنت أعتقد أنني كنت أغني خصيصاً لأجله. كنت أحاول أن أتخيل حياته، أين مرّ قبل وصوله إلى هنا. ربما كان عقيداً في الجيش الكوبي، قديماً، أو قاضي صلح ، قبل كاسترو. كنت أجده أقرب ليكون قاضي صلح. لم أكن أراه أبداً في البار سوى في المساء أمام كوب المياه الغازية. كان يعيش وحيداً في ملحق بالفندق، في نهاية ممر من الأرض. لم يكن ينشغل بشيء، حتى بأجور العمال. كان سامبو عامله الذي يفعل كلّ شيء، وهو الذي يعطيني النقود بعد كلّ أمسية.

كنت ألتقي بجان فيلان. كان يعيش مع امرأة تدعى أنجيلينا في بناء أنيق، في بين غروف، بالقرب من لاكشور. كنت أمضي بعد الظهيرة معه من وقت لآخر، كي أنسى الآخرين. كنا نذهب إلى فندق وسط المدينة، في أعلى برج. كان كل شيء معه ساكناً وهادئاً، صالون حقيقي من الدرجة الأولى. على وجه الخليج الكبير الشفاف في الشرق كنت أرى الليل الأزرق، البحيرة، أضواء السيارات التي تتلوى في الأسفل على الطريق، كما لو أني في الجو على ارتفاع ثلاثين ألف قدم. كنا نتحدث مثلما كنا، ولكن أكثر مما فعلنا في غرفة الفندق في هارفارد. كنا نمارس الحب، نأكل، ومن ثم أنام بعمق حتى المساء. في معظم

الأوقات، حين أستيقظ، يكون جان قد غادر لإعطاء دروسه. كان يعمل على إطروحة في علم الاجتماع، حول المهاجرين المكسكيين في ضواحي جنوب شيكاغو. أخذني معه مرة أو مرتين إلى أحياء روسل وتينلي ونابرفيل، وأورورا، كان يدعى إلى حفلات زواج وتعميد. كان كما لو أنه يذهب إلى كوكب المريخ. لست متأكدة إن كان مع شهاداته يفهم ما يراه أفضل مني.

في روبنسون، كان هناك أناس غرباء. في المساء قبل الليل بقليل، كانوا يخرجون من منازلهم ذات النوافذ المغلقة بالألواح الخشبية. كانوا يبيعون جرع البودرة الصغيرة، والراتينج. تعلمت تجنبهم، لكنه في مواجهة نافذة غرفتي، في الطرف الآخر من الشارع، كان يعيش ألسيدور، رجل ضخم، طويل مثل دب أسود، وبوجه طفولي. كان دائماً يرتدي ذات الثياب سروال جينز وقميص أبيض وأحمر، حتى حين تهب ريح الشمال. كان يعيش في منزل صغير مترنح مع أمه، امرأة قصيرة سوداء تعمل في مقهى. كان متآلفاً معي. في كل صباح، حين أخرج للتسوق، في حوالي الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة، كان ألسيدور يجلس على درجات مدخل منزله، فيشير إلي. غير أنه لم يكن يستطيع الكلام، كان يفتقد شيئاً ما في رأسه. كان يحرك رأسه حين أقول له شيئاً، كان ككلب ضخم مسالم. كان صبية الحي يهزؤون منه، ويرمونه بالنوى، لكنه لم يكن يغضب أبداً. كان يستطيع البقاء جالساً لساعات أمام الباب في انتظار أمه، يأكل الكراكرز. كان باعة المخدرات يتركونه هادئاً. كانوا يجعلونه في بعض الأحيان يدخن سيجارة حشيش للتسلية، من أجل معرفة الأثر الذي ستتركه عليه. كان ألسيدور يدخن السيجارة ومن ثم يعود إلى أكل الكراكرز بهدوء. ربما كان يضحك أكثر قليلاً، لا شيء أكثر من ذلك. كان حقاً ذا قوة لا تصدق. ذات يوم، صعدت شاحنة يقودها سكير على الرصيف وحطمت جدار بناء على بعد قليل. سقطت

عارضة من طرف واحد أما الطرف الآخر فقد ظل معلقاً على الجائز الأفقي. وصل ألسيدور، وأمسك بالعارضة التي كانت تتدلى، ومن ثم حملها دفعة واحدة ورفعها وأعادها إلى مكانها. أراد منظم مباريات مصارعة أن يشغله، لكن ألسيدور كان وديعاً ولطيفاً جداً، لم تكن لديه الرغبة بالقتال. لم يكن يتحدث كثيراً، كلّ ما كان يقوله كان حول الحالة الجوية في الشتاء « ربما مطر، ربما ثلج، لا أعرف».

كانت أمه تحميه. كنت جالسة ذات يوم على درجات منزله، بجانبه، مع كتاب قصص مصورة، اعتقدت أن بإمكاني أن أعلمه القراءة. جاءت أمه، وعندما رأتني، غضبت: «يا لك من زنجية؟ ماذا تريدين من ابني؟» ولم أعد للقيام بذلك.

مع ذلك، ذات عصر، حدثت هذه القصة الرهيبة مع الشرطة. أعطى رئيس البلدية أوامر لتوقيف بعض بائعي المخدرات، فقط لوقت يسمح بتصويرهم والحديث عنهم في الصحافة، ولا أدري لماذا اختاروا شارع روبنسون، ربما لأنه لم يكن يحدث به شيء. فجأة، وصلت سيارات الشرطة وسدتّ الشارع. وصعد رجال الشرطة يهاجمون المنازل، ولاسيما تلك التي كانت في الطرف، والتي كانت نوافذها مغلقة بالألواح الخشبية. لا بد أنهم قد أوقفوا بعض الصبية، وفجأة رأوا ألسيدور. كان العملاق قد نهض من قيلولته. وخرج إلى عتبة بابه، مرتدياً كعادته سروال الجينز وقميصه الأحمر والأبيض، وعندما رأى المصابيح الدوارة التي كانت تومض، جذبته، وسار لخطوات كي يشاهد ما يحدث. في أعلى الدرجات الخشبية، كان يبدو أطول وأضخم، كدب حقيقي خرج من الغابة. كان قلبي مشدوداً، لأني كنت أرى جيداً أنه لم يفهم الخطر، وأن رجال الشرطة كانوا خائفين منه. أردت أن أصرخ به: «ألسيدور! اذهب، عد إلى المنزل!» كانت مكبرات الصوت تزعق

بالأوامر، غير أنه بالطبع لم يكن يفهم شيئاً. تابع السير نحوهم، يديه في جيوبه، يترنح بمباهاة. ومن ثم قفز عليه ثلاثة رجال شرطة، محاولين أن يوقعوه أرضاً، غير أنه دفعهم بلطمة مفاجئة. كان يظن أن ذلك لعبة. كان ينظر إلى أسلحتهم المصوبة إليه دون أن يفهم متابعاً التقدم نحو وسط الشارع. لكن يديه لم تعودا في جيوبه. عندما رأى رجال الشرطة أنه غير مسلح، سروا بذلك. قفزوا عليه وبدؤوا بضربه، على الظهر، على ذراعيه، على رأسه. كان ألسيدور ينزف من أنفه ومن جمجمته، غير أنه ظل واقفاً، دار حول نفسه متذمراً، وذراعيه ممدودين، كما لو أنه يحاول أن يحتفظ بشيء. ثم ضربه رجال الشرطة على ساقيه ليسقط في النهاية على الأرض. وهنا تابعوا ضربه بالهروات بقوة بحيث بدا لي أني كنت أسمع صوتها. كانوا يشتمونه ويضربونه. في النهاية، رأيت ألسيدور الذي كان يبكي، مرمياً على الأرض، ذراعاه على رأسه ليحتمي من الضرب. كان يصرخ. ينادي أمه لتنجده.

وصلت العجوز في اللحظة التي كانوا يدخلون فيها ألسيدور في سيارة. كان ضخماً جداً بحيث أنهم لم يكونوا يستطيعون إدخاله بشكل مستقيم، لذا دفعوا رأسه إلى الأمام، وكانوا يضربون ساقيه لينثني في السيارة. فيما كانت العجوز السوداء تركض وراءهم صارخة، تحاول أن تمنعهم. ثم غادروا وعادت إلى منزلها، مغلقة بابها. كانت متأكدة بأننا نحن كلنا في هذا الشارع الملعون، أرسلنا الشرطة لأخذ ابنها. بعد يومين، عندما عاد، تغيّر شيء ما، لم يعد ألسيدور يجلس في الخارج ليشاهد مرور الناس. ظل محبوساً في المنزل. كان خائفاً. بعد مدة، رأينا لوحة معلقة على المنزل. كانت العجوز قد اصطحبت ألسيدور إلى حي آخر، ولم أعد أعرف عنه شيئاً.

فيما بعد، غيّرت اتجاهاتي. مللتُ من مشاركة أنجيلا بجان. خرجت مع بيلا، شاب من الإكوادور يسكن جوليت، طويل ونحيف وبشعر طويل مثل الهنود في السينما، وبحلية صغيرة ترصع أذنه اليسرى. كان يحلم بموسيقى الريغا وموسيقى الراغا، وبإطلاق شركته للاسطوانات. وبانتظار ذلك، كان يتاجر بالبريت والأنفيتامين وبالقليل من البودرة، وكان يتعاطى أيضاً، دون أن أعلم بذلك. كنت أذهب معه إلى البارات، وعلب البلوز، أقابل موسيقيين. كنت أبقى خارج المنزل طيلة الليل. كان هناك نجوم كرة سلة، رياضيون بائسون، مقدمو حفلات، فنانون يحسبون أنفسهم جانيت جاكسون حين تغني «اهرب إن أردت أن تبقى حياً Run away if you want to survive» جاميكيون يحسبون أنفسهم زيغي مارلي، هايتييون يحسبون أنفسهم فريق الفيغه. أما أنا فكنت أحب مجموعة الروتس Roots: رازهيل «عراب الصخب»، بلاك ثوت، هيب، ؟ إشارة استفهام ، كامل. ومن ثم حاسة مشتركة، KRS One، و Coed . بادلت جهاز الراديو القديم بجهاز وكمان، كنت أذهب إلى أي مكان مع الموسيقى في أذني الوحيدة، كما لو أن كلّ العالم أبكم. كنت ألبس وأمشي وأدخن وأتكلم مثلهم، كنت أقول: «هل تفهم ما أقوله؟ You Know what I'am saying?» لم يكن أحد يصدق أنني قادمة من الطرف الآخر من العالم. تكلمت مرة عن المغرب فلفظتها موروكو Morocco، فتم فهمها موناكو، فلم أعد إلى ذلك. لا أحد يفهم ماذا تعني أن تكون من أفريقيا، ومن ثم أنني لم أتلق بعد هذه القطعة البلاستيكية الخضراء التي تمنح كلّ الحقوق. من وقت لآخر، كنت أرى جان، غير أنه لم يكن يحب أن يتشارك بي مع أحد آخر مثل بيلا. كانت ذقنه مرتدة، لذا بدا أكثر حزناً.

بفضل السنيور، أصبح لديّ رقماً في الضمان الاجتماعي، وشهادة قيادة. ذات مساء، دون أن ينبأني، دعى السيد لروي إلى باره، ليسمعني أغني. وعندما

أنهيت وصلتي، قدم لي السيد لروي بطاقته محدداً لي موعداً في اليوم التالي. ذهبت وحيدة إلى استديو التسجيل دون أن أقول لبيلا، ولا لجان ولا لأي أحد آخر. لم أكن أفهم ما الذي كان يريده السيد لروي. ارتديت سروالاً ضيقاً وكنزة كبيرة ذات قبة ملفوفة تحسباً لأن يكون من النوع الهجومي. كان الإستديو في القبو في بناء أوهايو، كان عبارة عن صالة كبيرة، مغطاة بعازل أسود، في وسطها بيانو أبيض. كان ذلك مرعباً، عزفت كما تعلمت مع سيمون في منزل هضبة طيور السمان، أميل على المفاتيح كي أسمع صوت الموسيقى الخفيض. غنيت لنينا سيمون، I put a spell on you و Black is the color of my true love's hair, بعد ذلك عزفت مقطوعتي التي أصيح فيها مثل حاصدي قصب السكر، والتي أصرخ فيها مثل طيور السمام التي كانت في سماء بيت لالا أسمى، والتي غنيت فيها مثل العبيد الذين ينادون أجدادهم على ساحل المزارع، واقفين أمام البحر. سميت أغنيتي On the roof على السطح، ذكرى شارع جاقلو وسلم رجال الأطفاء الذي كان يؤدي إلى سقف العالم. كان قلبي يخفق بقوة، لأشجع نفسي، فكرت بصوت جيما الغريب والعذب الذي كنت أسمعه في دوار تبريكة، من جهاز الراديو الملتصق بأذني، حين كانت تعلن عن كات ستفنس من راديو طنجة، The Voice of America .

الآن بعد كل هذه السنين، كنت أعرف ما الذي أريد أن أسمعه، هذا الهدير المستمر والأصم والخفيض والعميق، صوت البحر على الأرض، صوت العربات على سكك لا تنتهي، الهدير المستمر للعاصفة الذي يصعد خلف الأفق. مثل تأوه أو همهمة تأتي من المجهول، صوت الدم في أوردتي حين أستيقظ في الليل وأشعر بالوحدة.

كنت أعزف، لم أعد أخاف شيئاً. أعرف من أنا. لم يعد هناك أهمية حتى لطرف العظم الصغير المكسور خلف أذني اليسرى، وللكيس الأسود والشارع الأبيض والصرخة المخدوشة لطائر الشؤم. لم يعد هناك أهمية لزُهرة وعبل والسيدة ديلاهاي وجوب، كلّ هؤلاء الناس الذي يصيدون ويمدون شباكهم في كل مكان. غنيت طويلاً، بالكاد كنت أستعيد نفسي، كنت متألمة من أطراف أصابعي. كنت أشعر بفراغ كبير، مثل أروقة المترو حين تفرغ من الناس. لم يقل السيد لروي شيئاً. غادرت الإستديو وقلبي مقبوض، شعرت كما لو أني فشلت في كلّ حياتي. ذهبت لألتجأ في الفندق مع جان فيلان.

نمت نهارين وليلتين، تقريباً لم أستيقظ. قواي استنفذت. لم أعد أستطيع العودة إلى شارع روبنسون بسبب رؤية العملاق ألسيدور مرمياً على الأرض من قبل رجال الشرطة، وقد ضرب وتُرك يبكي أمه مثل طفل صغير. لا زال في أذني صوت صفارات سيارات الشرطة حين أغلقت الشارع. كانت للسماء زرقة الخريف، وكانت الأشجار حمراء، غير أنه لم يكن مختلفاً عن شارع جان بوتون، بل لم يكن مختلفاً كثيراً عن باحة لالا أسمى، ولا الشارع الأبيض، الذي اختطفت فيه حين كنت صغيرة.

تماماً، قبل الثلج، في شهر تشرين الثاني، تلقيت في وقت واحد رسالة الهجرة التي تحتوي بطاقة إقامتي ورسالة أخرى فيها موعداً من السيد لروي لتسجيل On the roof. في الإستديو، كان هناك المنتج والمساعدون الفنيون. عزفت وغنيت طيلة الصباح، كان التسجيل يسير على مراحل صغيرة. كان ينبغي العودة إلى الوراء والبدء من جديد مرة تلو أخرى. حين انتهى ذلك، وقعت عقداً لإسطوانة الأغنية ولكلِ ما سأنتجه خلال خمس سنوات. لم يكن معي أبداً هذا القدر من النقود. لم أفهم جيداً ما حدث. في الليلة التي أعقبت ذلك، ذهبت

إلى مطعم غراند الذي تمتلكه ماجي جونسون مع بيلا والموسيقيين والسيد لروي والمساعدين الفنيين. كان رأسي يدور، بدا لي كما لو أنه لم يعد أمامي حدود. طرح علي صحفي أسئلة، قلت أشياء تافهة، مثل أني فرنسية وأفريقية. حين سألني عن اسم أغنيتي القادمة، قلت بلا تردد: To Alcidor with love إلى ألسيدور مع الحب. كنت أشعر بغضب مكبوت، كنت أرتجف. كنت أشعر بأن موسيقى طبول رومير سبستوبول كانت في كلّ مكان، في الهواء، في دخان البارات، في الوميض الأحمر الذي يبقى فوق شيكاغو حتى الليل.

في الصباح، تركت الجميع، لأمشي بمحاذاة البحيرة. كان الجو بارداً جداً، ولم أكن أرتدي سوى سترتي الجلدية والبيريه الأسود خاصتي الذي يغطي رأسي حتى أذني. كان شجر الحور الرجراج متقداً والسماء بزرقة كثيفة. كانت الشمس تشرق فوق البحيرة. شاهدت مرور أسراب الكركي باتجاه المكسيك الجديدة.

انتظرت بتعقل في أروقة الأليانس الفرنسي. لم يعرفني جان فيلان مباشرة، بسبب سترتي السوداء والبيريه. اعتذر من طلابه قائلاً لهم بأن لديه شيئاً مهماً ومستعجلاً. مشينا في الجادات الكبيرة، أفطرنا معاً مثل أيام هارفرد. ذهبنا إلى السهلة التي تحيط بمحطة التصفية على شاطئ البحيرة. كان هناك العديد من الناس، أناس يركضون تسحبهم كلابهم من نوع الكانيش، مسنون في بيجامات رياضية يمارسون التاي شي. كان الجو بارداً. عند العبور أمام بناء شريدان، استأجرت استديو، دفعت مباشرة قيمة أجرة شهر كتأمين، وإضافة لأجرة شهر مقدماً. أردت التصرف كما لو كنت أنا وجان متزوجين، دون شهود، دون كنيسة، دون أوراق. دون مستقبل. أظن أنني في تلك اللحظة صرت حاملاً.

-١٦-

لا أدري أي شيطان تلبسني كي أعود إلى بيلا، إلى شقته في ساحة بلازا بجوليت. ربما كان هو الشيطان. أو ربما كان جان فيلان، لأنه جعلني أنتظر طويلاً، لأنه كان ينتظر الكثير مني. لا أعتقد أن هناك شخص ملّ مثلي.

في شردان، كنت محبوسة في قفص من الزجاج والحديد، فوق المدينة والبحيرة المجمدة، في مكان كتيم جداً، بحيث أنني أستطيع أن أعتقد أنني أصبحت صماء من أذني الاثنتين. كنت أنتظر طيلة النهار، أنتظر أن ينتهي جان من دروسه، ومن طلابه وأساتذته ومقالاته. أنتظر أن ينهي علاقته بأنجيلينا. كان جان يصل نحو الرابعة مع زهور وزجاجة نبيذ وبرتقال، كما لو أنه يعود مريضاً. أنام مضمومة إليه على الموكيت أمام الخليج الخالي فيما يكون الليل قد حلّ، مثلما كنت أفعل حين كنت ألتصق بظهر لالا أسمى. في الساعة الثانية عشر ليلاً، كان يغادر على رؤوس أصابعه. طلبت منه ذات يوم، أن يريني صورة لصديقته. كانت تبتسم بشيء من البلاهة، في مرج أخضر كبير، أمام مسبح. كان اسم أنجلينا يليق بها. طويلة وشقراء ذات وجه ملائكي، كانت نقيضتي في كلّ شيء. لم أعد أدري إن كانت روسية أو ليتوانية. كانت تعمل طبيبة.

كان بيلا نقيض جان في كل شيء. كان نحيفاً مثل شجرة متسلقة، لطيفاً وعنيفاً، فيه شيء من الغضب المكبوت. يهتم بشكل كبير باختيار ملابسه وأحذيته وقمصانه الحريرية السوداء. يلمع كلّ يوم الحلية التي ترصع أذنه، كان يقول أنها من أخته التي أعطته إياها قبل موتها عند والديها في واشنطن نتيجة تعاطيها جرعة زائدة. كنت لا أشعر معه كثيراً بملل الانتظار. بلّ لم أعد انتظر شيئاً. نعيش كل يوم بيومه، ننصت إلى الموسيقى، نذهب إلى البارات وعلب الليل والسهرات. لم يكن السيد لري يحب بيلا. ذات يوم اتصل بي هاتفياً دون أن أدري من أين حصل على الرقم قائلاً: «إنه ليس بالرجل المناسب لك، سيجعلك تسقطين.» غضبت وقررت عدم العودة إلى الإستديو.

كان ذلك قبل الربيع، كان بيلا واقعاً في مشاكل مالية، فقد كان متأخراً في تسديد أجرة سكنه لعدة شهور. كنا قد اتفقنا على الذهاب إلى كاليفورنيا بالسيارة، غير أننا لم نستطع القيام بذلك. في الليل، كنا نتسكع في علب الليل حتى الرابعة نشرب وندخن، ونستيقظ متأخرين. حتى أني لم أعد أميز بين أيام الأسبوع. طرد بيلا من سكنه في ساحة لابلازا. ذات عصر، كنت عائدة بعدما أحضرت الحليب والمعكرونة وأشياء أخرى للعشاء فوجدت أن قفل الباب قد تم تغييره. وصل بيلا غاضباً، لم أره أبداً في مثل هذه الحالة. كانت أمتعتنا قد وضعت في أكياس قمامة في أسفل الدرج، تحت المطر. كان بيلا يركل الباب بشدة، ويصرخ شاتماً. وصل الحارس مع هراوته الإلكترونية وهاتفه. أراد بيلا أن يتشاجر معه، فصعقه الحارس بهراوته، ومن ثم اتصل بالشرطة. صحت وأمسكت ببيلا، سحبته من شعره إلى موقف السيارات. كان ذلك مثيراً

للسخرية ومرعباً. وضعنا أكياس القمامة في السيارة ورحلنا قبل أن تصل الشرطة. ولكي ينتقم، رمى بيلا زجاجة عصير بندورة على الواجهة مما ترك بقعة حمراء كبيرة على الحائط، فيما كان يعوي مثل ذئب. التجأنا إلى صديق من أصدقائه في المدينة الصينية، ومن ثم قررنا أن نغادر إلى كاليفورنيا. اجتزنا الولايات المتحدة تقريباً دون توقف، نسوق بالتناوب، ليلاً ونهاراً، وننام في مواقف السيارات. في بعض المناطق، مثل أركنساس وأوكلاهوما، كان الجو بارداً، فيما غطى الثلج المنحدرات. مرضت، كنت أرتجف، أشعر بالألم في رأسي وبالغثيان. كان بيلا يقول: «إنها مجرد نزلة برد ستزول.» لكنها لم تزل. لم تكن نزلة برد، كانت حمى في الجهاز المخي الشوكي. حين وصلنا إلى كاليفورنيا، كنت مشرفة على الموت. تصلب عنقي وظهري، وضربني ألم واخز في أذني، وشعرت بأن قلبي قد توقف. لم أعد أستطيع التكلم، ولم أعد أسمع ما كان يقوله بيلا. كانت عيناي مفتوحتين نهاراً وليلاً، كما لو أني سقطت عبر الفضاء. في سان برناردينو، فقدت الجنين، مع الكثير من الدم فيما كان بيلا خائفاً من أن أموت في سيارته. وضعني مع حقيبتي عند باب مشفى. لا أعرف ما الذي رواه، ربما أنه قال أنه التقطني من الطريق أو شيئاً شبيها بذلك، لأنني لم أره بعد ذلك. ربما قد اعتقلته الشرطة حين كان يبيع البودرة والحبوب. وعلى هذا النحو أضعت إحدى قطعتي الحلق الذهبي التي أعطتنياه لالا أسمى، لكني كنت مريضة جداً لأن أكترث بذلك.

حين دخلت مشفى سان برناردينو ، كنت قد فقدت وعي، أو قاربت على ذلك. كنت أمضي وقتي متكومة تحت أغطية السرير هاربة من الضوء،

أصبح لساني أسوداً ومتورماً بسبب الحمى والجفاف، وكانت شفتاي تنزفان. حتى أني لم أدرك أني أصبحت صماء. كنت في شرنقة متكومة في عمق كهف. كان بطني محركي ووجودي، كان مكشوطاً وفارغاً، لم أعد أعيش إلا فيه. في بعض الأحيان كان يجبرني أحدهم على الاستيقاظ للتبول في وعاء ولحقني بدواء. كنت أشعر بإبرة تنغرز في ظهري، بين فقراتي، فأصيح من الألم، ومن ثم أقع على السرير منهكة.

حينئذ رأيت ندى للمرة الأولى. دعوتها ندى في داخلي لأنها كانت تضع يدها الندية على جبهتي كما لو أنها ندى الصباح. رأيت وجهها الجميل الناعم والداكن، وعينيها اللوزيتين الفاحمتي السواد، شعرها المجدول بجديلة واحدة، ثخينة مثل ذراع. كانت تجلس بجانب سريري، كنت أنظر إلى عينيها، وأغوص في نظرتها، متمسكة بيدها، لم أعد أريدها أن تغادر.

ثم نمت للمرة الأولى منذ أسابيع. حلمت أني لم أكن أنام وأني أنزلق على موجة إلى الخلف. كنت أنتظر عودة ندى كل صباح ويدها الندية ونظرة عينيها. كانت الوحيدة التي تقودني إلى السطح وإلى الضوء. كنت قد بدأت بالخروج من كهفي. كانت الوحيدة التي تأخذني إلى العتبة حيث تُسمع موسيقى الأطفال وصوت الطيور، بل حتى هدير السيارات في الشوارع. لأجلها كنت أجمع الأقراص المنومة. أضعها في منديل تحت مخدتي، وفي الصباح أقدمها لها. لم يكن لدي شيء آخر لأعطيه.

ذات صباح، جاء رئيس الأطباء مع طلابه. كان يقوم بمحاضرة فيما طلابه كانوا يكتبون في كتبهم. نظرت إليهم إلى أن أخفضوا عيونهم. كان الشباب يضحكون هازئين. أما أنا لم يهمني ذلك، فقد كنت أنتظر ندى.

جاءت قبل الليل، قبل أن تعود إلى حيها في إرسالية سان خوان. لم يكن اسمها ندى، كتب اسمها على بطاقة مثبتة بدبوس على مريولها الأبيض: شافيز. كانت من هنود خونيرا. لم تكن تكلمني إلا بالإشارات، وتومئ بيديها وبوجهها ما كانت تريد قوله، وترسم أحرفاً بأصابعها، وأنا قد تعلمت على إجابتها. تعلمت أن أقول امرأة، رجل، طفل، حيوان، أرى، أتكلم، ألم، أبحث. كانت تعرف عن جنيني. كانت هذه المشكلة تواجههم في المشفى فضلاً عن كلّ المشاكل الأخرى. لم تسألني عن شيء. أرتني رجالاً بلا تعيين في مجلة، هيغ غرانت، سامي ديفيس، كيني ريفيس، بيل كوسبي، ففهمت. ضحكنا كثيراً. أظن أنها كانت خائفة بأن يكون جنيني قد جاء إثر حادثة اغتصاب. لذا، كتبتُ على المجلة اسم جان فيلان، وأضفت بأن هذا اسم رجل.

ذات صباح، أشرت لها بأني أريد الرحيل. فكرت ندى للحظة، ومن ثم أحضرت لي ملابسي. تراجعت وفتحت باب الغرفة. كان ذلك غريباً، لأنه حتى تلك اللحظة لم أكن قد رأيت منها سوى وجهها البيضوي البريء الشبيه بقناع ذهبي من أقنعة الأنكا، حاجبيها المقوسين وعينيها مثل دمعتين سوداوين وشعرها الأسود الناعم واللامع. وعندما وقفت أمام الباب المفتوح، رأيت أنها بدينة جداً. لا بد أنها قرأت في عينيي اندهاشي، لأنها رسمت وركين ضخمين مبتسمة.

لبست سروال الجينز الضيق بسرعة وقميصي القرمزي وثبّت على شعري البيريه الأسود الذي ثُبتتَ عليه فردة القرط التي تبقت من قرط الهلال. وضعتُ النظارات السوداء الزرقاء التي أعطاني إياها قبل أن

نغادر. كانت دلالة على الحداد، غير أني أنا التي كنت ضائعة. أردت أن أترك شيئاً لندى، كذكرى، أعطيتها نسختي من فرانز فانون المهترئة مثل نشرة غير مصورة تم التقاطها من جوف كيس قمامة. غير أنها كانت أغلى ما أملك.

حين قبلت ندى شافيز، أعطتني نقوداً، دولارات ملفوفة بمطاطة مثلما فعلت حورية حين غادرنا تبريكة. نزلت الدرج، وعبرت أمام الحرس مباشرة دون أن ألتفت.

منذ زمن طويل جداً لم أخرج سوى رأسي، كانت ساقاي ترفضان المشي. كدت أن أعود. أنصت إلى صوت خطواتي على الرصيف.. صوت الدم في أوردتي.. صوت الهواء في رئتي.. دون أن أسمع شيئاً آخر.

-١٧-

مشيت لأيام. إلى نهايات الشوارع.. إلى البحر.. إلى آخر العالم.. إلى الموت. أنسل بين الناس، بين السيارات غالباً ما أركض. إني الأسرع. لا شيء يستطيع إيقافي. تعلمت الجري منذ زمن طويل، حين خرجت من باحة لالا أسمى. تعلمت تجنب المصائد.. الأخطار.. شرطة زُهرة. أترصد من زاوية عيني، أنقض. متوازنة مثلما يتوازن البهلوان على الحبل. تلمسني الشاحنات والحافلات والعربات المعدنية. تلطم الريح وجهي، أشم رائحة إطاراتها العشر التي ترفع في سيرها غباراً ناعماً أسود.

أمشي في عكس اتجاه السيارات، أعرف أن ذلك شيء غريزي. إن كنتِ تمشين في اتجاهها لن تريها قادمة، ستكونين أنت الطريدة والضحية. تتباطأ السيارات، تتسكع بمحاذاة الأرصفة مع أغطية محركاتها اللامعة، بزجاجها الملون. هناك أبواب تنفتح، سواعد تريد الإمساك بك، إجبارك على الصعود.

على النقيض، إن كنت تمشين عكس السيارات، فإنك مجنونة، هم الذين يخافون منك، في مركباتهم، خلف زجاجهم. ويبتعدون، ويتركونك بسلام. سيطلقون بالتأكيد مزاميرهم ، وسيصرخون مثل الذئاب. غير أن الشمس أمامك تغرب، تلسع صدرك وشعرك ولا تسمعين شيئاً.

كنت أفكر بندى شافيز، أميرتي في فندق سان برناردينو. جميلة جداً بوركيها الواسعين، وبوجهها الهندي، وبعينيها التين فيهما كنت أستطيع تأمل

تلك التموجات المنسابة في بحرهما، يدها الندية بندى الصباح. هي وحدها لم تطرح عليّ أسئلة، ولم تنصب المصائد لي. حين كانت تصل كلّ صباح، كانت تجلس على الكرسي البلاستيكي، عند رأس السرير، تمد يدها كي أضع فيها الكرة الورقية التي تحوي الحبوب البيضاء والحمراء التي تنوم المجانين. ثم تضغط بيدها على جبهتي وتعطيني قوتها. وذات يوم، عرفتْ أنني مستعدة، ففتحتْ لي الباب كي أرحل.

كانت المراكز التجارية الكبيرة مكاناً ملائماً لتناول الطعام وللالتجاء إلى الظل والهرب من مطر الصباح الخفيف. كانت المسافة ما بين محطة غريهوندز في المنطقة السابعة والاميدا وحتى سانتا مونيكا تعادل ساعة في الحافلة أو نصف نهارٍ من المشي على الأقدام. حين كنت أصل هناك، أكون في منطقتي المحببة. كنت أختفي بين الجموع، أتبع الممرات، اجتاز الساحات والميادين، أنزل على السلالم الآلية، أصعد في المصاعد الزجاجية، أذهب إلى كل الأمكنة، حتى إلى الطوابق السفلية، إلى مواقف السيارات. كنت منهمكة، أذهب في اتجاه محدد. أعرف كل زاوية، كل ممر. مثل أيام سطح شارع جافلو، لكن المكان هنا أكبر مثل جزيرة، كبير مثل قارة.

كنت أعرف الأسماء والوجوه ورسوم الواجهات. أحدد أمكنة الحرس، هم أيضاً كانوا يحددون أمكنتي. لا بد أنهم قد شاهدوني أولاً على شاشاتهم التلفزيونية الصغيرة وميزوا الفتاة الجديدة: «هناك فتاة غريبة، فتاة ملونة ذات قميص أحمر وبيريه أسود، وشيء ما معلق على البيريه، نجمة أو هلال. لا تفقدوا أثرها!» كنت متبوعة، كانت هناك ظلال خلفي، في أعقابي، مثل الذئاب في غابات كندا، مثل سمك القرش في خليج كوباكابانا. كنت أجّرهم خلفي، أعرف تماماً أين هم، وما الذي يفعلونه. كنت أستطيع أن أجعلهم

يفقدونني حينما أريد، غير أن معرفة أنهم هنا كانت تجلب لي المتعة، وبأنهم كانوا يتناوبون، وأنهم كانوا يتبعوني بعيونهم. لذا كنت أتظاهر بالاختباء، وبأني أختار، لوقت طويل، بين معاطف الكشمير التي أجربها على القميص الأحمر، أتظاهر بالتردد، بأنني أتحسس القماش، وأني أشاهد اللصاقات، برأس مائل قليلاً، مثل دجاجة تترصد. ومن ثم أترك كلّ شيء، وأمشي بخطوات كبيرة. ذات مرة تم إيقافي. تم تفتيشي داخل كابين من قبل امرأة سمينة قاسية. لم تكن تعرف مع من تتعامل، لا تعرف أن لدي عينيين خلف رأسي. منذ أن فقدت السمع في أذني الثانية، كنت أرى كلّ شيء من بعد كيلومترات، كنت أستطيع أن أدرك حركة الحارس الذي يحك ما بين ساقيه من الطرف الآخر من الصالة. لن أسرق حتى لا أمنحهم فقط متعة الإمساك بي.

كلّ ما كنت أفعله هو قياس الملابس. إنها طريقتي لأكون مختلفة، لأحقق ماهيتي. تنانير قصيرة من الجلد الأسود ومن الحرير الصناعي، أثواب بيضاء تلتصق بالجسد، سراويل ضيقة الساق، سراويل جينز واسعة. سترات، قمصان حريرية، كنزات من ماركات T.Ilfiger, Nautica, polos Gap, R.Loren, C.Klein,Lee، قمصان بيضاء من L.Ashley. كنت أذهب إلى قسم الرجال، ألبس البزات والبزات الرياضية، وبزات Oshkosh، والملابس المانعة لنفوذ الهواء The Men's Store at Sears. وثم اعود إلى لبس سروالي من الجينز الأسود وقميصي القرمزي والبيريه ومن ثم أغادر. ما كنت أبحث عنه هو انعكاسي في المرآة. كان يخيفني، ويجذبني. إنه أنا.. ولم يعد أنا. كنت أدور وأشاهد الألوان النيرة والأقمشة اللامعة. لا تعود عيناي عيناي. إنهما شبيهتان بخطوط طويلة مقوسة، بشكل ورق شجر مثل عيني ندى، وبشكل شعلة مثل عيني سيمون. صار لي تجاعيد صغيرة مثل التي كانت في زوايا عيني العجوز تغادير. أو الدوائر الزرقاء حول العين الدامسة التي كانت لحورية عند ولادة طفلتها تحت الأرض.

أريد التكلم مع جسدي. لذا أمشي نحو المرآة عبر الرواق مثل أميرة على شرفتها. كنت أمشي وأدور، أتخلع في مشيتي، وأشعر بالنظرات التي تحدق بي، عدسات الكاميرات الخفية. في بعض الأحيان، كان الباعة يتوقفون وينظرون إلي. الأطفال والمراهقون. جاءت واحدة منهم ذات مرة مع دفتر صغير تريد أن أكتب لها اسمي كما لو أني كنت نجمة في هوليود. كتبت ندى مافويا. كان عمرها أربعة عشر عاماً ذات وجه جميل مثل قطة صغيرة، وعينين كبيرتين داكنتين لوزيتين وشعر بجديلة ملتفة في مؤخرة رأسها، وبسروال جينز كبير عليها مهترئ عند الركبتين. جعلتها تكتب اسمها لي على ورقة من مفكرتها: آنا.

من أجل الطعام، كنت أشتري سندويشاً رخيصاً. في بعض الأحيان، كنت أذهب إلى المطاعم في ويلشير Wilshire وهاليفاكس Halifax وسينغا Cienega، وأتوارى قبل الطبق الأخير. كان هناك رجال يدعونني، يتبعونني في المراكز التجارية، وأقودهم إلى كافتيريا. كانوا يجلسون على طاولتي، وأبتسم لهم مدركة أنني لن أدفع شيئاً. وحين كانوا يكتشفون أني صماء يخافون. أو يصبحون فظين. كنت آكل وأشرب، وقبل أن يشعروا، أهرب إلى الشارع. كنت أجتاز راكضة، وأمشي في الشوارع ذات الاتجاه الوحيد. ذات يوم، لم يتحمل أحدهم، دار طويلاً في سيارة إلى أن وجدني. كان طويلاً ووسيماً، يلبس جيداً، غير أنه كان كلباً. ركض إلي ولكمني لكمة أوقعتني أرضاً، مع نظارتي السوداء وحقيبتي التي انتشرت محتوياتها. لم يساعدني أحد على جمعها. لا بد أنهم ظنوا: «إنها مومس كان يؤدبها!»

قبل الليل، كنت أركب الحافلة إلى المنطقة السابعة. أمر أمام السائق دون أن أعطيه نقوداً. في بعض الأحيان كان لا يقول شيئاً. وحين يغضب، أشير بأني لا أسمع ومن ثم أدفع قطعي النقدية. كان ملجئي الليلي عبارة عن

بناء كبير من الطوب بجانب الأميدا. كان هناك دائماً طابور من الناس ينتظرون، وخصوصاً أناس مثلي بشرتهم داكنة وشعرهم أسود. كان يتم توزيع القهوة والسندويش في الساعة السادسة. كان عنبر النساء في الخلف وسط مربع من العشب المصفر مزين بأعشاب كبيرة من اليكة. حين أكون على سريري، كنت أرى اليكة تواجه السماء البنفسجية. كانت هناك صالة حمامات من الإسمنت مدهونة باللون الرمادي، حيث تستحم النساء في مجموعات. لا تنظر الواحدة فيهن إلى الأخرى، غير أني كنت أرنو إلى ظهورهن المتعبة وأثدائهن وبشرتهن المصفرة، الداكنة والسمراء المحمرة، وبطونهن المليئة بالندبات البنفسجية، وسيقانهن المصابة بالدوالي. وهكذا لا أفكر بشي، ولا أكون موجودة سوى في العيون. ثم أدخل تحت الماء الحار الذي يوخز فمي حيث ضربني الكلب.

لم أكن أنام، أو أني كنت أنام بعيون مفتوحة.

أنقذتني الموسيقى...

كنت قد رأيت البيانو الجميل الأسود في بيفرلي Beverley. كنت أعبر أمامه في كل مرة، لم أكن أستطيع أن أرفع نظري عنه. وذات عصر، لم يكن هناك الكثير من الناس، وقد تغير الرجل الذي كان يحرسه. كان رجلاً شاباً وأشقراً ذا نظارات ، ذقنه مرتدة، يشبه جان فيلان. ويقرأ كتاباً في كرسيه.

اقتربت من البيانو، ولمست الخشب الأسود، والمفاتيح العاجية. نظرت إلى الحارس، كان يتابع القراءة، دون أن ينتبه إلي. فكرت: أيكون أصماً هو أيضاً؟

جلست على الكرسي وبدأت بالعزف. أظن أني في البداية نسيت، كانت أصابعي تتمسك بالمفاتيح، كنت أبحث عن الألحان في رأسي، كنت أدندن أهمهم.

كنت أميل رأسي إلى الجانب كي أقبض على الأنغام، كما كانت تفعل سيمون حين كانت تعلمني. ومن ثم فجأة، بدا ذلك يعود. كانت أصبعي تسير على لوحة المفاتيح، كنت أجد التناغمات والقطع الموسيقية، وأعيد تشكيلها. عزفت لبيلي وجيمي هندريكس، مقطوعات تتملص وتسقط. كنت أعزف ما يأتي، دون نظام، دون أن أتوقف، أرتجل مثلما كنت أفعل في شيكاغو وفي بيت هضبة طيور السمان، كنت أعود إلى الماضي، أستعيد، أنسى، والأنغام كانت تتفجر خارجة مني، من فمي، من يداي، من جوفي. لم أكن أرى شيئاً، كنت وراء غطاء البيانو، مع فمي الفاغر وجوفي الذي كان يرد الصدى وحلقي، حتى ساقي، كما لو أني كنت أمشي في الخارج تحت الشمس، كما لو أني كنت أركض.

الآن، أسمع الموسيقى، ليس بأذناي، ولكن بكلّ جسدي، تلفني قشعريرة تنساب على بشرتي وتؤلمني وتؤلم أعصابي، حتى عظامي. كانت الألحان الغير مسموعة تصعد في أصابعي، تمتزج في دمي، ونفسي، في العرق الذي يسيل على وجهي وظهري.

اقترب الشاب مني. كان يقف، متراجعاً قليلاً، لم أكن أستطيع أن أرى وجهه، غير أني رأيت أن الكثير من الناس تقف في البهو عند مدخل المتجر. أطفال يجلسون على الأرض أزواج متشابكين، مسنون ببيجامات رياضية يشربون الصودا. في لحظة ما رأيت الفتاة التي طلبت مني أن أوقع لها، آنا. كانت في داخل المتجر تجلس على درجة المنصة، كما فعلتُ للمرة الأولى حين كنت أسمع سارة في فندق الكونكورد في نيس.

كنت أعزف لهم ولها، أعثر على موسيقاي، إيقاع الطبول الأصم في رومير سيبستوبول وتولبياك وأوسترليتز. صوت سيمون التي كانت تغني رحلة العودة نحو ساحل أفريقيا، صفارات الشرطة والهراوات التي ضربت

ألسيدور في شارع ربنسون في شيكاغو. لم أكن أعزف هذه المرة لنفسي فقط، لقد أدركت أني أعزف لهم جميعاً، هؤلاء الذين رافقوني، أناس القاع، سكان أقبية شارع جافلو، المهاجرون الذين كانوا معي في القارب، على طريق وادي أرن، سكان السويقة ودوار تبريكة الذين ينتظرون عند مصب النهر، والذي ينظرون إلى خط الأفق بلا توقف كما لو أن هناك شيئاً ما سيغير حياتهم. لهم جميعاً أعزف، وللطفل الذي تذكرته فجأة، والذي جرفته الحمى، أعزف له كي تجده موسيقاي في المكان السري الذي يوجد فيه.

أخذتني الموسيقى، أسمعها تمر على بشرة وجهي مثل أعمى يستطيع أن يشعر بطقطقة الشمس والدحرجة البطيئة للبحر. شعرت بالدمع يسيل من عينيي. كانت المرة الأولى منذ أن تجمد يامبا الحاج في سريره وحيداً، في إيفري كوركورون.

ربما كنت سأستمر العزف على هذا النحو حتى نهاية العالم. شعرت بأيدي الحرس ترفعني بهدوء. مددت أصابعي أيضاً نحو لوحة المفاتيح، غير أنه فجأة لم يكن هناك شيئاً سوى الصمت. وقادني الحرس ببطء مثل موكب عبر البهو، ومن كل جانب كان الناس يصفقون بصمت. مشت آنا الشابة بجانبي للحظات، لم تكن تصفق ولم تكن تتكلم، فقط مدت يدها نحوي، وكان وجهها الشبيه بوجه قطة صغيرة مائلاً نحوي، رأيت للحظة عينيها المستطيلتين اللتين تلمعان، لأنها كانت تبكي. وضعني الحرس في شاحنة بيضاء، وفي خلف الشاحنة كان هناك رجل مسن يشبه السيد رشدي الأستاذ الذي كنت ألتقيه في المكتبة. ضمني إليه كما لو أنه كان يعرفني. كنت متعبة جداً بحيث أني استرخيت واضعة رأسي على كتفه، وأظن أني نمت.

في النهاية، جلست في الظل وفي البرودة، في غرفة صغيرة نظيفة، اتجاهها الشمالي محمي بإحكام من الشمس. لم يكن هناك نوافذ، فقط كوة ذات شبك في أعلى الحائط التي لا يمكن أن يرى منها شيئاً سوى السماء، التي كانت في لحظتها زرقاء. كان هناك كرسي بلاستيكي بجانب السرير، وكومدينة فيها حوض، وفي درج كانت حقيبتي السوداء والتي جئت بها إلى سان برناردينو والتي تحوي كلّ أشيائي، أي نظاراتي السوداء الزرقاء والبيريه الذي غرزت به فردة قرط الهلال الأخيرة.

كل صباح، كان الأستاذ يزورني زيارة قصيرة. لم أعرف حقاً إن كان أستاذاً، غير أني دعوته هكذا لذكرى السيد رشدي اللطيف الذي عرفته في المكتبة بالقرب من المتحف. كنت أمتعه بالطريقة التي أتداول فيها الإنكليزية والفرنسية والإسبانية. لم يكن يتكلم، كان يطرح أسئلة بالكتابة على أوراق كبيرة ينزعها من دفتر . كان يكتب بعصبية بأحرف كبيرة، أشياء مثل: حالتك النفسية؟ طبق الحلوى المفضل؟ غير أنه كان يريد أن يعرف من أين جِئت وما حصل لي، وعن عائلتي، واسم الرجل الذي جعلني أحمل.

حين كان يطرح أسئلة عن عائلتي، كنت أكتب أسماء يقرأها باهتمام، كما لو أنها لغز: ندى، سارة، آنا، ماجدة، مليكة. كان يظن أني مكسيكية او هايتية، أو ربما غينية.

جاءت شافيز للمرة الأولى. لم أدر كيف وجدتني. ربما من ملفات المشفى أو أنها قرأت في جريدة محلية مقالة مع صورتي ومع عنوان جذاب:

هل تعرفونها؟

لم تكن ترتدي زي التمريض، غير أنها كانت ترتدي سروالاً واسعاً وبلوزة امرأة حامل موشحة بالأزهار، ربما كما تخيلت تضامناً معي. تعانقنا كما لو كنا أصدقاءً قدامى، وجلست على الكرسي، وجلست أنا على السرير. تكلمنا وضحكنا، ومن ثم جعلتني أخرج إلى الحديقة. لم نكن في سان برناردينو. كنا في مونت زيون في بيفرلي. كان هناك شجر نخيل وأوراق شجر في كل مكان وأعشاب خضراء وفضية. لم يكن هناك سور ولا حراس. كان بإمكاني أن أمشي وأرحل. ربما لأجل ذلك بقيت.

في كل صباح، كانت شافيز والأستاذ هنا. لا بد أنها قد طلبت إجازة كي تتغيب عن عملها. أو ربما كنت أنا عملها. كنا نصعد في سيارة الأستاذ، ونلف في الشوارع، بلا اتجاه محدد. كان دائماً يطرح أسئلة على دفتره. كان يريد أن يفهم من أنا، ما الذي أعمله، أين تعلمت عزف البيانو. عدنا معاً إلى المركز التجاري، أمام البيانو، غير أن ذلك لم يلهمني. كان الحارس قد تغير، لم يعد الشاب الذي أحببته. وكان البيانو ضخماً، وحيداً وسط المتجر مثل آلة جهنمية. قدتهم إلى مكتبة، لشراء مجلات الموضة، بحثت بين الكتب، بلا تعيين. فجأة ، تعرفت على صورة الأستاذ على غلاف كتاب في الفلسفة. كان اسم الكتاب Hypnos & Thanatos، أو شيئاً كهذا. كتب تحت العنوان إدوارد كلاين، كنت مسرورة بمعرفة اسمه، أما هو فقد ارتبك قليلاً، ولكنه سرّ أيضاً. ابتسم ابتسامة صغيرة، كما لو أنه يقول: «نعم، هذا أنا.» فيما بعد قدم لي كتابه مع إهداء: «To my dearest unknown! إلى عزيزتي المجهولة!»

ذات عصر، فُتح باب غرفتي في زيون، ودخل السيد ليروي. لم أدهش من ذلك. فقد بلغت نقطة كنت أرى فيها كل شيء في ذات الوقت غريباً وعادياً ودون سبب.

مثل كل شيء كان هناك تفسير: وجدت ندى شافيز في كتابي معذبو الأرض نسخة من عقدي مع مؤسسة كنال نسيتها فيه. فاتصلت بشيكاغو، فجاء السيد لروي مباشرة في الطائرة التالية، حاملاً معه لي دعوة للمشاركة في مهرجان الجاز في نيس. الذي سيشاهد فيه كل شيء، حتى صماء تعزف البيانو. طلبت شافيز من الاستعلامات رقم جان فيلان مع ذات الحماسة الصادقة والهوجاء. سبّب ذلك بالتأكيد مشكلة مع أنجيلينا، لأنه كان سيجيء في اليوم التالي. ربما قد ترك طبيبته الليتوانية. يشهد الله علي بأني لم أطلب شيئاً من أحد.

-١٨-

إني عائدة، باسم آخر، بوجه آخر.

منذ زمن طويل أنتظر هذه اللحظة، إنها انتقامي. ربما دون أن أعي فعلت كل شي من أجل قدومها. كانت سيمون التي كانت تعرف شيئاً عن ذلك، تقول ليس هناك صدفة.

في نيس، تدبرت هيئة المهرجان إقامتي في فندق على شاطئ البحر حيث تريد دائماً المرأة البرونزية أن تهرب من الجدران التي تسحقها. كان دائماً هناك بيانو على المنصة، وصوت يغني مع موسيقا بيلي هوليدي. أنا أيضاً، غنيتُ في الليل أغنيتي على المنصة. مشيت كلّ يوم في شوارع نيس، في الجو الخانق، وتحت السماء الرمادية الرصاصية، كما لو أني أستطيع معرفة شيء ما. كان شاطئ الحصى الكبير يبدو أسوداً من كثافة المستحمين، والشوارع مزدحمة بالسيارات. كانت الجموع في كلّ مكان منهكة لا تعمل.

هناك حيث مشيت مع جانيكو. ركبتُ الباص بمحاذاة السيل الجاف، إلى أعمدة الطريق السريع، وبحثت عن مدخل المخيم. لابد أني حقاً شخصاً آخر لأنني بالكاد اجتزت باب المخيم بين السياج، سدّ رجل الممر بشاحنته. كانت نظرته فظة شريرة. حين ذكرت اسم ريمون يورسي استهزأ مني. صرخ بأشياء أخرى لم أفهمها، اسم مشوه: «روسو! روسو!» جاء رجلٌ آخر طويل،

أنيق رغم أسماله، ذو شارب صغير. أشار لي بأن لا أحد هناك، وبأن الجميع قد غادروا. ثم رافقني إلى مدخل المخيم.

حاولت الاتصال هاتفياً بجان لأطلب منه الحضور حالاً. لأحدثه عن طفلنا الذي سأحمل به عند عودتي. إلا أني لم أستطع أن أكلم سوى المجيب الآلي بسبب فارق التوقيت. لم أكن أعرف ماذا أقول، قلت بأني سأعاود الاتصال. كنت أشعر بالغثيان وبوجع في الخاصرة. أذكر حورية حين كانت تمشي في الجبال والطفل في رحمها. لماذا لا أملك ذات الشجاعة رغم أنه لم يعد هناك شيء في رحمي؟ فجأة ضايقتني الموسيقى. أردت فقط السكون، الشمس والسكون.

تركت ملاحظة لهيئة المهرجان، قلت بأني ألغيت كلّ شيء. غادرت الفندق بعد الظهر، وركبت القطار باتجاه سربير، مدريد، الجزيرة. إنها العطلة، السياح في كلّ مكان. الفنادق ممتلئة. في الجزيرة، أمضيت يومين في موقف سيارات مغبر، مملوء بسيارات متوقفة، ومقطورات. نمت على الأرض، ملفوفة بلحاف. شاركتني عائلة مغربية بالماء والمياه الغازية والخبز. كان الأطفال يلعبون بين السيارات المتوقفة، يرقصون على الموسيقى المنبعثة من أجهزة الراديو كاسيت خاصتهم. من وقت لآخر، كان حراس مسلحون ببنادق رشاشة يعبرون من بعيد في الطرف الآخر من الأسلاك الشائكة. كانت الشمس تشع وسط السماء، غير أن الليل كان عذباً ونديًا. كنا نتحدث بالإشارات، نروي الحكايات، نعد الساعات والأيام من تقويم. في البداية، كان الأطفال يستهزؤن بي بسبب صممي، ومن ثم اعتادوا ذلك. بالنسبة لهم، كان ذلك لعبة، لا شيء أكثر.

في الأمسية الثالثة، ركبنا العبّارة. لم أعدّ أعرف جيداً لماذا كنت هنا. تبعت حركة الناس، دون أن أفهم. لم أكن أبحث عن ذكريات ولا ارتعاشات الحنين. لم أرغب بالعودة إلى بلد مولدي أيضاً. ولا الضفتين. ضفتي الآن،

هي ضفة البحيرة الزرقاء تحت الريح الباردة لكندا. إنه خيط معقود في وسط أحشائي ويسحبني نحو مكان أجهله.

سافرت بباص نحو الجنوب، كان هناك سائحات ألمانيات يرتدين السراويل القصيرة، فرنسيات بقبعات، أمريكيات بخفافات شاطئ بلاستيكية. سافرت معهن جزءاً من الطريق، ثم ذهبن في اتجاه آخر. في مراكش ركبتُ حافلة إلى الجبل، فيما اتجهن نحو الشاطئ، أغادير، الصويرة، شاطئ طانطان.

في تازناخت، فيما كان السائق يشرب الشاي، اشتريت من بربري متحجرة ضخمة لجان. وبما أن الحجر كان ثقيلاً جداً.، صنع البربري حقيبة ظهر من حقيبة قديمة من النخيل. كان رجلاً طويلاً وقوياً، جلده أحمر مثل هنود أمريكا، يرتدي معطفاً كبيراً من نسيج خشن. أطلعني على بطاقة بريدية أرسلها له أخوه من أمريكا، من قرية في الغابة، في ولاية واشنطن.

وهكذا وصلت إلى فُم زكيد. في الجنوب، كان الطريق يؤدي إلى طاطا، وفي الشمال إلى زاكورة. في الأمام، لم يكن سوى الطرق التي حفرتها الشاحنات وممرات الماعز والجمال. كان هناك الامتداد الوعر، القاسي، الآبار الجافة، الأكواخ الطينية والحجرية الشبيهة بأوكار الزنابير.

ها قد وصلت. لم يعد بإمكاني الذهاب إلى أبعد من ذلك. كما لو أنني على شاطئ البحر، أو على ضفة مصب نهر لا نهاية له.

تركت حقيبتي والمتحجرة في غرفة في القرية.

أردت أن أسأل المرشد الذي استأجرته في الفندق للمرة الأولى السؤال الذي احتفظت به في فمي منذ زمن طويل: «هل تمت سرقة طفل هنا قبل خمسة عشر عاماً؟» غير أني لم أقل شيئاً. على أي حال، كنت أعلم بأنه ليس هناك جواب. منذ عودتي ، تحسنت أذني، ولكن هل سماع الأصوات والكلمات كافٍ كي أفهم؟

الناس، هنا، الناس الذين أراهم وأناس القرى الذين لا أراهم ينتمون إلى هذه الأرض، فيما لم أنتمِ أبداً إلى أي مكان.

كانوا يتحاربون، بعضهم يأخذ أرضاً ليست له، كانوا يحفرون آباراً في أماكن ليست لهم.

ماذا كانت قبائل عسقا ونخيلة والوكوم وولاد عيسى وولاد هلال يستطيعون أن يعملوا هنا؟

كانوا يتحاربون، كان هناك جرحى وموتى ونساء تبكي وأطفال يختفون. واقع لا يمكن أن نفعل له شيء.

إنه هنا، إني متأكدة الآن. الضوء في السمت شديد البياض، الشارع خال. يجعل الضوءُ العيونَ تدمع. تجعل الريح الحارقة الغبار ينساب بمحاذاة الجدران. من أجل مقاومة الريح والضوء، اشتريت ثوباً أزرق طويل، مثل النساء هنا، التففت به تاركة فقط فتحة للعيون. بدا لي كما لو أني بدأت أشعر في بطني بالضربات الخفيفة للطفل الذي سيكون لي، والذي سيعيش. جئت إلى هنا، إلى آخر العالم، من أجله أيضاً.

أنهك المرشد من اللحاق بي في ذهابي وإيابي في الشارع الخالي. جلس على صخرة بظل جدار. ليدخن سيجارة انكليزية أثناء مراقبته لي من بعيد. إنه ليس من ولاد هلال ولا من ولاد عيسى، ولا من أهل خريويغا الغازين. طويل جداً، يبدو جيداً أنه قادم من المدينة، من زاكورة أو من مراكش أو ربما حتى من الدار البيضاء.

هناك في البعيد، في طرف الشارع، أمام المنزل الأخير، هناك حيث تبدأ الصحراء، امرأة عجوز ترتدي السواد جالسة على كرسي خشبي، أما باب فناء خالي. لم يكن وجهها مغطى بحجاب، كان أسوداً متغضناً، مثل جلد قديم

محروق. شاهدت قدومي، دون أن تنزل عينيها، كانت نظرتها حادة مثل حجر. بدتْ كما لو أنها مسنّة وقاسية مثل متحجرة جان. كانت حقا من بني هلال.

جلستُ بجانب المرأة العجوز. كانت قصيرة ونحيفة جداً، بالكاد يصل طولها إلى كتفي، مثل طفلة. الشارع خالٍ، سلخته شمس الصحراء، شفتاي جافتان متشققتان، حين مررت عليهما يدي، رأيت دماً. لم تكلمني المرأة العجوز. لم تتحرك حين جلست. نظرت إلي فقط، بوجهها الجلدي الأسود، وبعينيها اللامعتين والناعمتين والفتيتين.

لست بحاجة لأن أذهب أبعد من ذلك. الآن، أعرف بأني وصلت إلى آخر رحلتي. إنه هنا وليس في مكان آخر. الشارع الأبيض مثل الملح، الجدران الثابتة، صرخة الغراب. هنا تم اختطافي قبل خمسة عشر عاماً، قبل دهر، على يد شخص من قبيلة خريويغا، عدو قبيلتي بني هلال، من أجل مشكلة ماء، مشكلة آبار، من أجل الانتقام. حين تلمس البحر، فإنك تلمس الطرف الآخر. هنا، حين أضع يدي على غبار الصحراء، ألمس الأرض التي ولدت فيها، ألمس يد أمي.

سيصل جان غداً، تلقيت برقيته في فندق الدار البيضاء. إني حرة الآن، كل شيء يمكن أن يبدأ. مثل جدّي الشهير (أيضا!) بلال العبد الذي حرره الرسول وأطلقه إلى العالم، خرجت في النهاية من مرحلة العائلة، ودخلت في مرحلة الحب.

قبل أن أغادر، لمست يد المرأة العجوز، الناعمة والصلبة مثل حجر في عمق البحر، مرة واحدة، بلطف، كي لا أنسى.

الطبعة الأولى / ٢٠٠٧

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة





سعر النسخة داخل القطر ١٥٠ ل.س في الأقطار العربية مايعادل ٣٠٠ ل.س
٢٠٠٧